في ظلال السيرة النبوية

غزوات الرسول ﷺ

تأليف

أ.د/ محمد رجب البيومي

عضو مجمع البحوث الإسلامية وعميد كلية اللغة العربية سابقًا

في
ظلال السيرة النبوية
(غزوات الرسول)

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م
بطاقة الفهرسة

البيومي / محمد رجب

في ظلال السيرة النبوية (غزوات الرسول) - تأليف الدكتور/ محمد رجب البيومي ط ١ . - المنصورة : دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٩م

٢٤٨ ص ، ٢٠ سم .

تدمك : ٢ - ٣٢٧ - ٣١١ - ٩٧٧

١ - غزوات النبي .

أ - العنوان :

٢٣٩,٤

رقم الإيداع : ٢٣٦٦٨ / ٢٠٠٨م

دار الكلمة للنشر والتوزيع - مصر - المنصورة

المنصورة - ص . ب . : ١٦٧ ت ف : ٢٢٣٤٥٠٣ / ٠٥٠

محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

email:mmaggour@hotmail.com

في
ظلال السيرة النبوية
(غزوات الرسول)

تأليف
الدكتور / محمد رجب بيومي
عضو مجمع البحوث الإسلامية

دار الكلمة
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قراءة السيرة النبوية من أحب القراءات لدى المسلمين ، لأنها تعطي من المثل الخلقية ، والدلالات النفسية ، والظواهر الاجتماعية ما يغني عن كثير من القراءات المختلفة ، وهي بعد منار هداية ، وسبيل إصلاح وتوجيه !

وتاريخ الغزوات النبوية ، يشير إلى أكثر من دلالة وقد فهمه بعض المتسرعين على غير وجهه ، حين سجلوه على أنه هجوم مفاجئ لكسب المواقع ، وبسط النفوذ ، وهو في حقيقته دفاع اضطراري أمام هجوم عدواني لا سبيل إلى تلافيه ، دفاع قام به الذين أخرجوا من ديارهم بغيًا وظلمًا ، ثم لم يتركوا في مهاجرهم النازح ليتنفسوا الهواء النقي في أفق وضيء ، بل حيكت حولهم المؤامرات ، وأحكمت الدسائس للانتقاض عليهم . وكان لابد من الدفاع عند الهجوم تارة ، أو مجابهة الهجوم في خطواته الأولى حين تتأكد دلائله ، ويوشك أن يقع ، وكل ذلك حق مشروع لا جدل فيه، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل .

وهذه الصفحات تصور أحداث الغزوات بما يبين أسبابها الدافعة ويصف خطواتها المتلاحقة ويوجز نتائجها الحاسمة ،

لتتضح المرامي الحقيقية لهذه الوقائع ، وقد آثرت أن أعمد إلى اللباب الخالص دون بسط في التمهيد ، أو إسهاب في العرض ، أو تكرار للنتائج ، ما دام الأسلوب مطردًا على وجهه الصحيح ، ومن الله التأييد والسداد .

د . محمد رجب البيومي

في الطريق إلى المدينة
(بيعة العقبة)

من يدرس سيرة سيدنا محمد ﷺ يرى أن كل موقف من مواقفه عليه الصلاة والسلام ، يصلح وحده أن يكون دليلاً صادقًا على نبوّته ، إذ كانت جميع أعماله الرائعة تحمل صدقها الصريح ، وتنادي ببراءتها من الزيف والافتعال ، ومهما كتب الكاتبون في القديم والحديث من مؤلفات تحليلية للسيرة النبوية المطهرة ، فإنها لا تزال محتاجة إلى كتب أخرى تضيء الجوانب الخافية ـ وما أكثرها ـ في حياة محمد ، لذلك كان من المستحب أن يخص الكتاب مواقف السيرة بتحليل جديد يضيف الطريف إلى التليد ، ولسنا ندعو إلى الافتعال في التعليل والتمحل في التحليل ، فهذا ما يجب أن تبرأ منه سيرة نبي طاهر كان التكلف أبغض الأشياء إليه ، إنما ندعو إلى أن نعمق النظر في جميع الظواهر التاريخية التي تمر بها في سيرة الرسول، وهنا يكون مجال التحليل الصادق الذي يكشف عن الغائب ، ويشير إلى المستور .

ولنضرب المثل على ذلك بما سنخوض فيه من حديث المعاهدة النبوية الأولى ، وهي التي عرفت في التاريخ النبوي ببيعة العقبة الثانية ، وبمقتضاها تمت الهجرة الإسلامية من مكة إلى المدينة ، لدى الذين تبوءوا الدار والإيمان من الأنصار ، إذ يحبون من هاجر

إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة !

كانت ليالي حوالك ، تلك التي أخذ فيها محمد ﷺ يعرض نفسه على القبائل داعيًا إلى دين الله ، وقد فقد عمه أبا طالب وزوجته خديجة ، (قبل الهجرة بثلاث سنين) وتجرأ المشركون على تسفيهه، حتى ترصده بعض الرعاع ، فدفع بالتراب على رأسه الشريف، ودخل رسول الله محزونًا إلى بيته ، فبكت فاطمة لمرآه ، فأخذ يصبر بنته الباكية ، متعرضًا لأزمات الآباء التي تصطرع في نفوسهم لدى بكاء الأبناء ، وبخاصة إذا كان البكاء لضعف الأب وقلة حيلته!قد خرج إلى الطائف وحيدًا لا صديق معه ! وكأنه أراد أن يكتم الأمر ما استطاع ، كيلا يشمت به المشركين إذا رجع دون إجابة ، خرج إلى الطائف يدعو ثقيفًا إلى دين الله ، ملتمسًا لديهم المنعة والاحتماء، ولكنهم كانوا كمشركي مكة : صم القلوب ، عمي العيون ، لم يسمعوا نداء الحق ولم يروا نور الإيمان ، فجبهوه وسفهوه، وأغروا به رعاعهم ، يتعقبونه هازئين ساخرين ، ففر إلى بستان بعيد يحتمي بجداره وقد رفع يده إلى السماء ليقول : (اللهم إليك أشكو ضعفي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات،

وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك).

هذا الابتهال الحار الدامع ، يصور أعنف ما يعتلج في نفسه الكريمة من شجون ! وقد لجأ إلى ربه ، إذ لا يجد أقرب إليه من ذي الجلال والإكرام ، وكأني به ﷺ ، وقد شعر ببرد الراحة حين نفض همومه المتراكمة في كلمات موجزة رفعها إلى السماء ، فرفهت عنه ما استطاعت أن ترفه ، وأخذ الأمل يتجدد في خاطره دانيًا قريبًا ، إذ أسلم قلبه إلى الله وهو مؤمن ! ولم يكن يأسه من ثقيف بمانعه أن يتابع الدعوة في القبائل المختلفة ، فأخذ يعرض دينه في المواسم الحاشدة بمكة ، بل إنه جاوزها إلى كنده وكلب في خيامهم النازحة، فما وجد من سميع ، فواصل الدعوة في بني حنيفة وبني عامر بن صعصعة ، فلم يتقدم خطوة واحدة إلى الأمل ، والمسلمون على حالهم بمكة قلة مضطهدون ، يعذب الأرقاء ويموت بعضهم تحت العذاب ، ويحارب الأحرار في وسائل الرزق من تجارة وصيد ، حتى تفاقم الأمر ! وطافت الحوالك الغاشية بمطارح العيون حتى ما تجد قبسًا من الضياء إلا ما يبرق من نور الإيمان ! ثم أذن الله بأن يشرق شعاع من يثرب يكون طليعة فجر صادق للدعوة المحمدية! فكانت بيعتا العقبة الأولى والثانية مبزغ هذا الفجر الباسم، وأتيح بها نصر الله لنبيه تصديقًا لقوله : (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء) .

وسننظر الآن في المعاهدة النبوية الأولى التي تمت في بيعة العقبة الثانية ، بعد خطوب حالكة ألمعنا إلى بعضها بإيجاز مقتضب ، لنرى ما تكشف عنه من يقين صاحب الدعوة وبراءته من التحايل ، وكسب القلوب بالوعود المغرية ، إذ أن هذه المعاني النفسية وحدها من أدلة الصدق الحقيقي الذي يعتنقه محمد ﷺ عن ثقة وإيمان !

إننا لنتأمل في واقع أمره عند إبرام هذه المعاهدة ، فنجده مضطهدًا محاربًا بمكة وقد رد فيما حولها من القبائل قريبة أو بعيدة أعنف رد ، ثم ينظر فيجد الكثرة الكاثرة ممن حوله يستهزئون به ويقعدون له كل مرصد ، والقلة القليلة ممن معه يتساقطون جوعًا وضعًا ، وقد بعدت عليهم شقة النصر ، هذه الظروف الخانقة إذا اعترضت زعيمًا غير صادق ، فإنه لا محالة سيضطر إلى تأليف القلوب بالوعود الخادعة والأماني الخالية ، وسيفسح لمن يريد أن ينتصر بهم على أعدائه في أحلام الملك والرئاسة حين تتم له الكلمة، ليجد من ذلك وسيلة نفسية إلى الإذعان المصمم ، ولكن محمدًا ﷺ يجتمع بمن استجابوا إليه ليلة العقبة الثانية - وهم أمله الأوحد بعد أن تألبت عليه شتى القبائل - يجتمع بهم في هذه الليلة الحاسمة ليبرم معهم معاهدة التناصر والاحتماء ، يجتمع إليهم ، فلا يقول لهم ستكونون أصحاب الأمر والنهي في القبائل إذا تم النصر ! ولا يقول لهم ستكونون وزرائي وأصحاب القوة التنفيذية في المعسكر الإسلامي ، بل يصدقهم القول فيعلن أنه رسول الله ، وأن جزاءهم

أخروي لا دنيوي ، والقوم بعد حديثو عهد بالكلام عن الآخرة ، لم يعلموا عنها في عصر الشرك ما يجعلها مناط رغبة ، وموضع ارتقاب ! ولكنهم يستمعون لمحمد إذ يتحدث عن جنتها ونارها فيصدقون ! ثم يعقدون المعاهدة الخطيرة بريئة من الاحتيال ، ساطعة واضحة ، تنطق نصوصها السافرة بأمانة رسول الله ، ولعل الأنسب أن نلم هنا ببعض حديثها التاريخي معتبرين .

في الليلة الثانية عشر من ذي الحجة جعل فريق من أهل المدينة يتسللون تحت ستار الليل في حذر شديد إلى العقبة ، لم يجيئوا جماعات جماعات ، ولكن فرادى فرادى ، كيلا يعلموا أحدًا بما سيدبرونه من أمر ، حتى إذا اكتملوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، جلسوا يرمقون الطريق بأبصار قلقة تنتظر قادمًا ذا خطر ، ولم تمض لحظات حتى كشف الليل عن طائفين يشقان ستار الظلام في طريقهما إلى العقبة ! هما محمد رسول الله وعمه العباس ، تلاقت الوجوه ، وتصافحت الأكف ، وتعارف المجتمعون ، ثم نهض عم رسول الله ليقول : (يا معشر الأوس والخزرج ، إن محمدًا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا ، وهو للآن في عز من قومه ومنعة في بلده ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن ، فدعوه فإنه

في عز ومنعة من قومه وبلده) .

هذا ما قال العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على الشرك ، لم ينضم إلى قافلة الإسلام كأخيه حمزة وقد يعجب بعض المتسرعين حين يرى عمًا مشركًا يأخذ العهد لابن أخيه ، وكان في حمزة العم المسلم كفاء وغناء ، وقد نسى أن بعد نظر الرسول قد هداه إلى اختيار العباس وحده ، ليعلم اليثربيون أن بني هاشم مسلمهم ومشركهم على رأي واحد في وجوب نصرته عليه الصلاة والسلام، وأن وفاة أبي طالب لم تفرق الكلمة الهاشمة ! فلئن شذ أبو لهب فما هو غير فرد واحد تغلبت عليه امرأته فأبردت حمية الدم في عروقه، أما بنو هاشم فرئيسهم العباس بن عبد المطلب ، ينطق بلسانهم ، ويعلن رأيهم الصريح ، إذ يؤكد أن محمدًا ﷺ في منعة من بلده وعزة من قومه ، وليكرر ذلك مرتين ليعلم السامعون أن القول فصل وما هو بالهزل .

هذا ما رآه في اختيار العباس بالذات ، وقد ألقى كلمته الموجزة الحاسمة ، وترك المجال لرسول الله ليتلو القرآن ، ويقرر مبادئ الإسلام ، ويقول في صراحة : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأموالكم ! فنهض البراء بن معرور وكان سيد قومه ، أسلم بعد العقبة الأولى ورجع إلى يثرب مبشرًا بدين الإسلام ، حتى إذا استدار العام قدم مع القوم ليأخذ مكانه في البيعة الثانية رئيسًا ينهض بالعبء عن دراية ، ويهتف بالحق عن إخلاص !

نهض البراء بن معرور ليقول في لهجة قاطعة : (والذي بعثك بالحق لنمعنك مما نمنع منه أنفسنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحرب . وأهل الحلقة ، ورثناها كابرًا عن كابر) .

وفي مثل هذه المواقف الحاسمة لابد أن تكون الصراحة المطلقة ديدن المجتمعين وأداة التفاهم السافر ، البريء من الشك والالتباس ، وبهذه الصراحة الكاشفة اعترض أبو الهيثم بن التيهان، وقال في جلاء : يا رسول الله ، إن بيننا وبين اليهود حبالاً وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله وقال : بل الدم والدم ، وما هدمت من الدماء هدمته أنا ، أنتم مني وأنا منكم ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم !

ثم نهض القوم للمبايعة فاعترضهم العباس بن عبادة الأنصاري قائلاً : (يا معشر الخزرج ، هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل؟ قالوا : نعم ؟ قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتوه فمن الآن ، فهو الله خزي الدنيا والآخرة إن فعلتم، وإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة) ، ثم سكت العباس بن عبادة الأنصاري متطلعًا في الوجوه ، فاستمع إلى من

يقولون في صوت واحد : نبايعه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف.

وتطلع صوت آخر يسأل : فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ، فتكون الإجابة النبوية في لفظة واحدة هي : « الجنة» ، فيصيح الجميع : أبسط يدك نبايعك ! ومدوا إليه أيديهم فبايعوه، ولما فرغوا من ذلك قال لهم رسول الله : أخرجوا لي منكم اثنى عشر نقيبًا يكونون على قومهم بما فيهم ، فاختار القوم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فقال النبي لهؤلاء النقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومي.

فقالوا جميعًا : بايعنا على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم ! ثم تفرق القوم كما جاءوا فرادى قبل أن تبزغ أضواء الفجر.

هذه قصة المعاهدة النبوية الأولى كما رددتها كتب التاريخ ! ونحن نلم بها الآن ، لنتخذ منها وحدها الدليل على صدق محمد وإخلاصه، ولنقارن بينه وبين من يضعون المعاهدات السياسية، مرتكنة إلى حقوق ذاتية تكون أجرًا ماديًا مكافئًا للتعاون والتناصر ! فتفسح مجال الإغراء بما تبسط من وعود ، وتزلف من أحلام ، وإن كلا الفريقين ليترقب الخير العاجل لنفسه سائرًا إليه على بساط من التمويه والتضليل ! أما محمد فلا يعد بشيء دنيوي ولا يتحمل

حقوقًا خاصة لفريق خاص !

وهنا يشع جوهره كاشفًا عن منبع اليقين في ذات نفسه ، ولو كان - حاشا له - إنسانًا وصوليًا ، لانتهز الفرصة السانحة من أهل المدينة بعد أن جافاه القريب والبعيد ، ولامتد ببساط الآمال مع حلفائه إلى حد يجعلهم وحدهم أصحاب حق أكيد في السيطرة والرياسة تلتزمه المعاهدة وتقوم عليه المبايعة ! ولكنه قبل كل شيء رسول الإنسانية الصادق ، وصاحب الخلق العظيم ، وقد نهض برسالة تقوم على المساواة العادلة ! ومن مبادئها الرفيعة ألا يخص بالجاه النافذ فريقًا دون فريق ، لأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين .

*****

الهجرة ومشروعية القتال

يحاول بعض الدارسين أن يجعل الهجرة إلى المدينة فاصلاً بين اتجاهين في حياة المسلمين من ناحية السلام والحرب ، إذ كان رسول الله ﷺ - في رأي هؤلاء قبل النزوح إلى المدينة - لا يفكر إلا في الدعوة عن طريق الحسنى والنقاش بالتي هي أحس ، ثم رأى في المدينة من أنصاره قوة قوية جعلته يعدل عن طريق السلم إلى الحرب، فأمر بإعداد السرايا المتوالية تهيئة لغزو شامل ينتقم به ممن أخرجوه من مكة ظالمين !

هذا التفكير المنحرف ، يجد من يروجون له من غرض مشبوه تارة، وعن سلامة نية تارة أخرى ، ونريد هنا أن نحق الحق بما يقضي على الباطل ، لأن اقتطاع الأحداث عن مجرياتها الطبيعية ، ومحاولة تفسيرها في ظل وهم خادع لا أساس له من اليقين ، مما يشوه روح الدعوة الإسلامية ، ومما يلجيء المخلصين إلا الاعتذار من ذنوب موهومة لم يقترفها المسلمون .

إن المتابع المنصف لتيار الأحداث قبل الهجرة وبعدها ، يجد أن الرسول ﷺ - في بيعة العقبة بمكة - قد اشترط على الأنصار أن يمنعوه مما يمنعون منه أهليهم وذويهم ، يريد بذلك أن يدافعوا عنه فقط ، لا أن يكونوا مهاجمين لمن ألقوا السلم ، وارتضوا الأمان، وقد هاجر المسلمون إلى المدينة ليجدوا الأمن وليسعدوا بالهدوء ،

لا ليخوضوا المعارك الدامية ، وقد بدأ رسول الله ﷺ ، فآخى بين المهاجرين والأنصار ، ليحدث من التلاحم الأخوي ما تقوى به الروابط ، وتتماسك الوشائج ، ثم بادر بتوقيع معاهدة مع اليهود، يبسط إليهم يد السلام ، ويؤكد حرية العقيدة وحرمة النفس، كيلا يظنوا أنه يحارب معتقداتهم ، ويدعو إلى استئصالها كما حارب عبادة الأوثان ، كما أدرك بصائب فراسته أن قومًا من الأوس والخزرج دخلوا الإسلام عن نية مدخولة ، وعن حقد مستتر ، وهم المنافقون الذين يلقون المسلمين فيقولون آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون ، أدرك هؤلاء الذين يبدون ظاهرًا راضيًا ويضمرون حقدًا لاهيًا ، فرأى أن يأخذ بظاهر القول فلا يحاسبهم على ما يضمرون ، وكأنه بذلك يحاول أن يسد كل منفذ يفضي إلى الخلاف ! سالكًا ما يوحي به العقل حين آخى بين الصادقين ، وعاهد أهل الكتاب ، وتغاضي عن الحاقدين ، وليس وراء ذلك من طريق للمسالمة ، وبخاصة إذا كان المهاجرون قد خرجوا من مكة مضطرين دون أن يقدروا على اصطحاب ما لهم من الأموال ، فهم مضطرون أولاً إلى البحث عن وسائل الكسب المشروع تجارة وزراعة في موطن جديد ليس لهم به عهد ، ومثل هؤلاء في ضائقتهم المادية لا يتجهون إلى شراء السلاح وتكديس الذخيرة ، وفيهم من يعصب بطنه من الجوع يومًا وبعض يومًا ، وقد آثرهم الأنصار إيثارًا كريمًا شهد به القرآن حين قال الله عز

وجل في سورة الحشر ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

ولكن الأنصار مهما بذلوا عن سماح راض لا يستطيعون القيام بكل ما يطلب المهاجرون من ضروريات ، وحسبهم أنهم يؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، لذلك كانت ظروف المسلمين تدعو إلى المسالمة ، لو أمنوا على أنفسهم ، وما كان أحب إلى رسول الله ﷺ أن يفرغ إلى بناء أمته الناشئة ، داعيًا إلى مكارم الأخلاق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإسعاد المجتمع الإنساني ، دون أن يضطر إلى مواجهة خصوم يملكون من قوة العتاد مالا يملكه ، ولهم حلفاؤهم المنتشرون في القبائل المترامية حول المدينة ، ويوشكون أن ينقضوا عليها متآمرين ! ما كان أحب إلى رسول الله أن يفرغ إلى أداء الرسالة في جو هادئ مطمئن ، ولكن عدوه ساهر متيقظ يرصد له المكائد ، ويغري به القريب والبعيد ، فلابد من المجابهة السافرة ، وإن كانت ذات أعباء ثقال .

كانت قريش تكابد غصص الحسرة أن فاتها الرسول يوم الهجرة فلم تقدر على اغتياله ، وكانت حسرتها تزداد لهيبًا كلما تسمعت أنباء المدينة ، فعلمت أن الرسول قد طرق خير منزل ، وأن المسجد قد

أسس على التقوى من أول يوم ، وأن المهاجرين قد لاقوا من الأنصار أهلا بأهل ومن طيبة دارًا بدار ، ولم تجد أمامها متنفسًا لما يضطر من غل الصدور ، وإحن النفوس ، غير المستضعفين من المؤمنين الذين حالت ظروفهم دون الهجرة فظلوا بمكة قابعين، لقد كان هؤلاء المستضعفون قبل رحيل محمد وأصحابه يجدون بعض الراحة في لقاء النفوس ، والتواصي بالاحتمال ، فأصبحوا منذ الفراق هدفًا للنكال يصب عليهم صبًا من أمثال أبي جهل وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط .

وكانت هذه الأنباء تفد إلى المدينة فتقع موقعها المؤلم من النفوس، والرسول صابر يتحمل ، ولكنه يبحث عن حل لإنقاذ هؤلاء المضطهدين ، إذ صاروا أشبه بالأسرى لايفك لهم عقال ، وما كابدوا برح الاضطهاد إلا لأنهم قالوا ربنا الله ! وكيف يظلون هكذا دون إنقاذ ! وقد نزل قول الله عز وجل :﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ .

يقول أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز ـ رحمه الله ـ في توضيح هذه الحقيقة :

(إن الحلقة الأولى [من حلقات الغزو النبوي] ظلت منسية

منعزلة من قصة الحرب فلم تأخذ مكانها في سلسلة السرد التاريخي لهذه الفترة من الزمان ، وأن مؤرخي العرب ومؤرخي الغرب معًا كانوا سواء في السكوت عنها ، فحق علينا أن نرد هذه اللبنة المفقودة مكانها من البنيان) .

لقد بدأت قريش بعد هجرة النبي وأصحابه تغير أسلوب معاملتها للمسلمين المستوطنين بمكة ، وهم الذين لم يجدوا سبيلاً للحاق بإخوانهم ، فبعد أن كانت حوادث عدوانها عليهم حوادث فردية متفرقة ، وكان يلطف من حدتها في غالب الأمر مقام الرسول وعظماء أصحابه بين ظهرانيهم ، أخذت حين خلا لها الجو تهاجم جموعهم ، وتوالي التنكيل بهم ، وهي آمنة أن تلاقي لهم وليًا حميًا تخاف غضبه ، أو يلاقيها شفيع ممن تستحي أن ترد سعيه ، وما زال طغيانها عليهم يزداد يومًا بعد يوم ، حتى عيل صبرهم ، وطفح كيل بلائهم ، فهناك أخذوا يجأرون إلى الله مستغيثين ، وهناك فقط أمر الله المهاجرين والأنصار أن يخفوا لإغاثتهم .

ثم قال العلامة الكبير : (فلم تكن الغزوة الاولى حملة تحرش وبدء بالعدوان كما زعم الجاهلون ، فذلك ذنب يعتذر منه لو وقع ، ولم تكن دفعة ثأر وانتقام لجروح قديمة قد اندملت ، لم تكن هذا ولا ذاك ، ولكن كانت عملاً أعلى من ذلك وأسمى ، لقد كانت قيامًا بواجب منزه القصد ، مبرأ الغاية عن الأغراض العاجلة ، واجب نجدة المظلوم وإغاثة الملهوف) .

ولم تكد تمر ثمانية أشهر على مقام المسلمين بالمدينة حتى ظهرت الحقود المستترة من اليهود والمنافقين معًا ، لقد كان اليهود يظنون بادئ ذي بدء أن في طوقهم أن يخدعوا الرسول ، وأن يتخذوا من دعوته بابًا إلى تأييد معتقداتهم !

لقد تعاهد معهم على ضرورة حرية العقيدة صادقًا ، ولكنهم كانوا كاذبين حين أظهروا الإخلاص للمعاهدة ، لقد درسوا نفسيات المجتمع المدني ، فعرفوا المؤمن من المنافق ، وبدءوا يستميلون ذوي النفاق لينشروا الدسائس قولاً وعملاً ، وليكونوا رأيًا عامًا يجمع على طرد من يصفونهم بالدخلاء المهاجرين ، ثم رأوا أن يتشحوا بالعلم ، فأخذوا يجادلون الرسول في بعض ما لديهم من أنباء التوراة ، يبتغون الفتنة من شتى الوجوه ، حين يقفون على بعض الخلاف بين ما ينزل على رسول الله من آيات القرآن ، وما حرِّف بين أيديهم من نصوص التوراة !

فقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، وقد وجدوا من المنافقين آذان سوء تسمع الشر ، وألسنة رجس تذيع الخبيث ! ولم يكن الأمر أمر هذين الفريقين وحدهما ! ولكن العدو الرابض بمكة يتحسس الأنباء ، فيذيع استعداده لمنازلة المسلمين في صميم يثرب ، ليزيد من بلبلة الناس ، ثم ينهض إلى أحلافه من القبائل حول المدينة ليغريهم بمهاجمة المسلمين ، فإذا وجد بعض النفور ، بذل العتاد ، واكتفى بالمعاهدة كي يتناصر الجميع ، حين

تأزف الآزفة ويشتعل القتال ، إن قريبًا وإن بعيدًا !!

لقد فكر الرسول في كل ذلك ، ولمس ما يدور في الداخل والخارج على نفوس هالها أن يجد المسلمون في المدينة أمنًا من خوف، وراحة بعد عناء ، ولئن طال سكوته على ما يرى فإنه الشرر المتقطع سيستطير في هوج الرياح ، وسيكون ضرًا ما يهب فيحرق!

لابد أن يثبت للأعداء جميعًا أنه قادر على التحدي ، وأنه يحيط علمًا بما يحاك في الظلام ، ولابد أن تعلم قريش بمكة أنه في وضع قوي ! وأن ما يجيئها من الأخبار عن ألسنة اليهود والمنافقين كذب أثيم ، ولن يكون ذلك بغير الدليل الناهض ، يراه العيان الناظر فتأوى الأفاعي إلى الجحور .

هذا مكمن السير في إعداد السرايا التي تقدمت غزة بدر ! وإن النظرة الفاحصة إلى عدد جنود السرايا الواحدة ، وعدتها الحربية ، لتدل في سطوع على أنها سرية إرهاب وتخويف ، لا غزوة حرب وتدمير ، لقد أرسل رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين من المهاجرين ليلقى أبا جهل يقود قافلة لقريش ، ومعه ثلثمائة راكب ، فسار أسد الله حتى وصل إلى البحرين ناحية العيص، وذعر أبو جهل لرؤية حمزة ، إذ حسب أنه طليعة لجيش كبير ، وكاد الشر يقع ، لولا أن تدخل سيد جهينة المقيم بالعيص بين الفريقين ! وتابع أبو جهل سيره إلى مكة في ذهول ! فما أثر ذلك؟

أثره أن الهلع قد استولى على قريش ، وأن ما حسبوه من تضاؤل شأن المسلمين بالمدينة كان وهمًا خادعًا ! وهذا ما عناه الرسول !!

وبعد شهر واحد من لقاء أبى جهل خف عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب في ستين راكبًا من المهاجرين إلى مقابلة المشركين في (وادي رابغ) وكانوا أكثر من مائتين تحت قيادة أبى سفيان بن حرب، فترامى الفريقان بالنبال ، وشاءت حنكة أبى سفيان أن يبذل الحيلة لينجو دون مواجهة ، وكان معه من المسلمين الذين يخفون إسلامهم من اهتبلوا الفرصة ، فهربوا إلى المدينة ؟

وجاءت السرية الثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص ! وتتابع الموقف ! وفي كل يوم نبأ مفزع لقريش .

هل كان الرسول ﷺ يريد بهذه السرايا قتالا صريحًا ؟ سؤال يجيب عنه المؤرخ الكبير الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه (حياة محمد) فيقول :

(أما أنهم بهذه السرايا - يريد المسلمين - كانوا يقصدون حرب قريش وغزو قوافلها ، فذلك ما يقف الإنسان منه موقف التردد والتفكير ، فلم تكن سرية حمزة لتزيد على ثلاثين رجلا من المهاجرين، ولم تكن سرية عبيدة تزيد على ستين ! وكان الموكلون بحماية قوافل قريش عادة أضعاف هذه الأعداد وقد زادتهم قريش عددًا وعدة منذ أقام محمد بالمدينة ، وبدأ يحالف القبائل التي بها

والقريبة منها ، ومهما يكن من بأس حمزة وعبيدة وسعد ممن كانوا يرأسون سرايا المهاجرين فإن عدة من معهم لم تكن لتشجعهم على الحرب مما جعلهم يعودون من السرايا كلها دون قتال ، إلا ما قيل عن سهم رمى به سعد) .

وإذا كان الدكتور هيكل يقف موقف التردد والتفكير حين يتساءل عن نية المسلمين في إرسال السرايا ، مرجحًا أن المسألة مسألة إرهاب فقط ، فأنا أتجاوز التردد إلى اليقين كل الإيقان ومعي دليلي في سرية عبد الله بن جحش الأسدى ، إذ تنطق بالحكم الفاصل في هذه القضية دون التباس .

لقد أرسل رسول الله ﷺ ابن جحش الأسدى في (رجب) من السنة الثانية للهجرة مع جماعة من المهاجرين حتى ينزل بين مكة والطائف مترصدًا قريشًا كي يأتي له ببعض أنبائهم ، فسار عبد الله حتى نزل بمكان يقال له (نخلة) ، فمرت بهم عير لقريش تحمل أنواعًا من التجارة ، وكان في عبد الله حماسة وحمية ، فأخذ يذكر أصحابه كيف أخرج هؤلاء جماعة المسلمين من ديارهم ، وكيف سلبوا أموالهم ، واحتلوا ديارهم ، وملكوا عقارهم عن بغى وعدوان، ولئن تعرضوا لهذه القافلة فإنما يستولون على مال قد غصب منهم ظلمًا دون حق ، ونازعه القول من أصحابه من نازع، وأيده من أيد حتى رجحت كفة الهجوم ، فواجهوا القافلة وأصيب رئيسها القرشي بسهم فقتله ، وأسر المسلمين رجلين من قريش ،

وذهبوا بالقافلة التجارية مع الأسيرين راجعين إلى رسول الله بالمدينة ، فماذا حدث ؟

لقد غضب رسول الله ﷺ وقال لابن جحش وأصحابه لم آمركم بالقتال ، وأبى أن يأخذ شيئًا مما اقتادوا ، وتألم عبد الله بن جحش لموقف النبي منه ، وأدرك أنه جاوز الصواب حين قاتل دون إذن ، وهنا موضع الشاهد حقًا ، فلو كانت هذه السرايا ذات أهداف حربية يرسلها النبي للقتال ، ما وجه لابن جحش الملام ، ولدافع عن نفسه حين لامه رسول الله ﷺ ولكن السرايا كانت ذات غرض تخويفي دون أن تتخطى حدها المرسوم ، فحين جاوزه عبد الله وأصحابه وقع الملام .

أما قريش فقد ثار ثائرها وأعلنت أن المسلمين قد انتهكوا حرمة الشهر الحرام ، ووصل الحديث إلى المسلمين بالمدينة بعد أن نقلته طوائف المغرضين إلى شتى القبائل حول المدينة ليظهروا المسلمين في مظهر المعتدى ، المستهزئ بحرمة الشهر الحرام ، كما انتقل اللغط إلى اليهود بالمدينة وجماعة المنافقين من خلفهم ، فأخذوا يجوفون الأمر ، ويعدونه حدث الأحداث ، وجريمة الجرائم التي ما كان ينبغي أن تحدث ! وقد جاء الفرج من السماء حين نزل قول الله عز وجل : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا

يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

والذي ينظر إلى ثورة المشركين وتعظيمهم الظاهري لحرمة الشهر الحرام يظن أنهم يحترمون الشهر حقيقة ويصمون السلاح أن يقعقع فيه ، ولكن الأمر ليس كذلك ، فهم يقاتلون في الشهر الحرام إذا أرادوا ثم يزعمون أنهم أبدلوه شهرًا آخر مما يعرف بالنسيء ، وفيهم نزل قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [التوبة : ٣٧] .

فليت شعري : أي الفريقين أخلص للحق ، وأطهر في السلوك ؟ فريق يذهب إلى أن القتال في الشهر الحرام مباح إذا خيفت الفتنة مباح حين يوازن بما استحله المشركون من صد المسلمين عن البيت وإخراج أهله منه ، وسلب ما يملكون ، وتعذيب المستضعفين إلى درجة القتل !! أم فريق لئيم يتستر فينافق نفاقًا آثمًا حين يدعى حرمة الشهر ، ثم يقاتل فيه عامدًا مختارًا ويقول إنه أرجأه إلى شهر آخر ؟

وهو تدليس دنيء وصفه الله عز وجل بأنه زيادة في الكفر ، وكان على القبائل التي رددت هراء قريش أن تسأل نفسها ! هل حفظت قريش حرمة الشهر حقيقة أو أنه ادعاء يقال ؟! وهي لا شك تعرف الجواب الصحيح .

نخلص من هذا كله إلى أن الهجرة كانت باب السلام ومناط الأمن ، لو وجد المسلمون من أعدائهم كفًا عن الشر ، واحتجازًا عن الدم ، وقد تركوا أرضهم ليأمنوا ، لا ليشبوا الحريق في كل مكان ، ولكنهم فوجئوا بمن يتحرش بهم ويؤلب القبائل عليهم ، ويدعو إلى استئصالهم ، فاضطروا إلى مواجهة سافرة لم يكن منها بد ، وأمامهم ـ قبل كل شيء ـ قول صريح يلتزمون به ذلك هو قول الله عز وجل : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال : ٦١] .

*****

غزوة بدر الكبرى

أ ـ حوادث المعركة

أولاً : قدمت عاتكة بنت عبد المطلب على أخيها العباس بن عبد المطلب ، فقالت له : يا أخي ، رأيت رؤيا أفزعتني ، وتخوفت أن يدخل علينا منها شر ، ولابد أن أقولها لك لأستريح ، فإذا استمعت ووعيت فاكتم عني .

قال العباس : وماذا رأيت ؟

قالت عاتكة : رأيت راكبًا أقبل على بعير حتى وقف ببطحاء مكة، ثم يجعل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، ألا انفروا إلى مصارعكم ، قالها ثلاثًا ، فاجتمع الناس حوله مذعورين ، فدخل المسجد والناس من ورائه ، ثم شرد به بعيره إلى جبل أبي قبيس فارتقاه ، والناس من خلفه في ذهول ، حتى إذا وصل إلى أعلى مكان في الجبل ، أخذ منه صخرة كبيرة ، ورماها بأقصى قوته ، فجعلت تهوى من رأس الجبل ، حتى إذا انتهت إلى السفح تناثرت كحبات الرمل ، وجعلت حباتها تطير إلى بيوت مكة ، ولم يبق بيت حتى دخله منها شيء !

قال العباس : إنها لرؤيا مفزعة ، ولابد أن نرتقب شيئًا يحدث ، وأرى أن تكتميها عن الناس ولا تذكريها لأحد .

غير أن العباس كان يثق في صفاء عاتكة ، وقوة استشفافها ، فلم

يطق صبرًا على الكتمان ، فلقي الوليد بن عتبة ـ وكان صديقه ـ فأخبره بما كان ، واستكتمه الحديث ، ولكن الوليد ذكر ما سمع إلى أبيه عتبة ، ولم يطق عتبة صبرًا فروى الحلم إلى سواه ، ولم يأت المساء حتى امتلأت به مكة ، وغدا العباس مصبحًا يطوف بالبيت ، فرأى أبا جهل يتحدث مع نفر من قومه ، فصاح بالعباس أن يلم بالقوم إذا فرغ من طوافه ، وما إن واجه القوم حتى صاح به أبو جهل قائلا: متى وجدت فيكم هذه النبية يا عباس ؟ فقال العباس : وما ذاك ؟

قال أبو جهل متهكمًا : عاتكة التي رأت الصخرة تتفتت فتنتقل ذراتها إلى بيوت مكة ؟ أفما رضيتم يا بني هاشم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟ إننا سننتظر ثلاثة أيام ، فإن يكن ما رأت حقًا فهي صادقة ، وإن كان ما قالت باطلا فأنتم أكذب أهل بيت في العرب .

فسكت العباس ولم يقل شيئًا ، وكانت خواطره تجيش في صدره ثم رأى منعًا للشر أن يكتمها ، ولكن نساء بني هاشم قابلنه فتذكرن له سوء أبى جهل وبذاءة لسانه ، وحركن ثوائره في نفسه ، فعاود الذهاب إلى البيت مرة ثانية عساه يلقاه ، فيتصل الحديث فيسمع منه ما يكره ، فإذا به ينظر إليه مهرولا يخرج من المسجد سريعًا وكأنه لا يريد لقاءه ، فقال في نفسه : لقد علم أني سأجبهه بالشر فآثر الفرار .

والحق أن أبا جهل قد استمع إلى صراخ مزعج ببطن الوادي فتوقع الشر ، وأسرع ليقف على جلية الخبر ، فوجد أبا سفيان قد أرسل ضمضم العقاري ليصرخ ويبكي ، وقد شق رداءه ، ووقف على بعيره جاعلا ظهره إلى رأس البعير كعادة العرب ، حين يذهلهم الخطب، ثم جعل يقول : يا معشر قريش ، اللطيمة ، اللطيمة ـ ويريد بها البعير التي تحمل تجارة العرب ويقودها أبو سفيان ، أموالكم في قافلة ابن حرب ، لقد تعرض لها محمد ، في أصحابه ولن تنجو من يده ، أدركوا أموالكم ، الغوث ، الغوث .

وأخذ أبو جهل يتسمع إلى حديث الناس ، فجاءه إلى سمعه ما يدل على اعتقاد الناس في رؤيا عاتكة ، وأنها تحققت الآن ، فهاج هائجه ، وزاد اضطرامًا حين سمع أحدهم يقول : والله إن أخذ محمد عيرنا فلن تفلح قريش أبدًا ، فقال له الثاني : سينتصر محمد وتصدق رؤيا عاتكة !

فدار في الناس كالمجنون ، وهو يصيح : يا معشر قريش ، أتتركون أموالكم للصابئين ! الموت أهون من هذا ، يا سهيل بن عمر ـ وكان يقف في اتجاهه أترضى بهذا ؟ من أراد مالا فهذا مالي ، تجمعوا يا قوم ! البدار ، البدار .

اشتعلت الحماسة في الصدور ، فتهيأ القوم ، ومن عجز عن الخروج لمرضه أناب عنه سواه ، وقد تزعم أبو جهل قريشًا ، وانطلق الناس إلى المدينة حتى العباس ابن عبد المطلب .

هذا ما كان من أمر مكة ، أما ما كان من أمر المدينة فإليك :

لقد علم رسول الله بخروج القوم ، فجمع أصحابه نافرًا إلى القتال ، وأحضر رايتين ، أعطى عليا واحدة وسعد بن معاذ الأخرى ، وأخذ يستشير من حوله ، فقام أبو بكر فأحسن المقال ، وتبعه عمر فأيد ما قال ، وجاء المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله، امض لما تريد فنحن من ورائك ، ولن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى (برك الغماد) ـ وهو مكان ناء عن المدينة ، ويقال إنه في أقصى الأرض ـ لتابعناك ، فسر النبي بما سمع ، ثم التفت إلى الأنصار فقال : أشيروا على أيها الناس .

فانطلق سعد بن معاذ زعيم الأوس يقول : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : أجل ، فقال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به حق لا شبهة فيه ، وأعطيناك العهود على أن نسمع ونطيع ، فامض بنا يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا ، إننا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

فارتاح الرسول لقول سعد وقال : أبشروا فإن الله عز وجل قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم ، ثم واصل السير حتى نزل قريبًا من (بدر) وركب مع رجل من أصحابه ، فوقف على شيخ من العرب فجعل يسأله عن قريش ، فأعلمه أنهم خرجوا يوم كذا وهم الآن بمكان كذا ، فعرف أن الواقعة ستحين ، وجعل يترصد الأنباء ويأخذ منها ما يزيده معرفة بعدد القوم وعددهم ليكون على أهبة الاستعداد ، وقد ثبت الله فؤاده ، ورآه المسلمون مبتسمًا هادئًا فازدادوا إقبالا على النضال ، وإذا كان الله قد وعد نبيه إحدى الطائفتين ، فإن أبا سفيان قد تلمس الأنباء ، وخاف العاقبة ، فغير طريقه ونجا بالعير ، ولم يبق إلا أن تدور المعركة ، إذ ليس دونها من سبيل .

سار المسلمون حتى نزلوا أدني مكان يقرب من الماء في بدر ، فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله قائلا : يا رسول الله ، أهذا منزل نزلته عن وحى من الله ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ، قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، قال الحباب : ليس هذا بالمنزل المختار ، فانهض حتى تأتي أدني ماء من القوم فننزله ، ثم ندفن عيون الماء الأخرى فلا ينتفع بها الأعداء، ونبنى لك حوضًا نملؤها ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب وهم ظامئون :

فقال ﷺ : لقد أشرت بالرأي ، ونهض إلى حيث أشار الحباب ،

وأمر بالعيون فطمست ، وبنى الحوض وملأه بالماء ، ثم تقدم سعد ابن معاذ فقال : ألا نبني لك عريشًا يا رسول الله لتجلس فيه ، ونترك عنده الركائب خاصة بك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا عليه ، كان ذلك فضلا منه تعالى ورحمة ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بأهل المدينة من المسلمين ممن تخلف عنا ، لأن بعض المؤمنين لم يظنوا أنك ستحارب فتعدوا بيثرب ، وسيكونون عونك إن شاء الله ، فارتاح النبي لقول سعد ، ثم أذن فبنى العريش .

ثانيًا : نرجع إلى قريش ، فنجد المشركين قد أقبلوا حتى نزلوا (الجحفة) وجاءتهم الأنباء تقول إن أبا سفيان قد نجا بالعير ، فقال الكثيرون : لنرجع إذن فقد خرجنا لننقذ أموالنا ، وقد نجت ، فعلام القتال ؟

ولكن أبا جهل صاح : والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، ونمكث ثلاثة أيام ، فننحر الإبل ، ونطعم الطعام ، ونشرب الخمر ، وتغنى القيان بأعذب الألحان ، وتتسامع العرب بأننا تحدينا محمدًا ، وأقمنا نريد لقاءه فلم يشجع .

قال الأخنس بن شريق : لا أوافق على ذلك ، واتجه إلى قومه من بني زهرة فصاح : لقد نجى الله لكم أموالكم ، وأنقذ صاحبكم ، وقد خرجتم لتحفظوا الأرواح وتمنعوا الأموال ، فاحسبوني جبانًا رعديدًا ، وألقوا المعرة إلىّ ، إذ لا ضرورة تدعو إلى إسالة الدماء كما

يريد أبو جهل ، فاستمعت بنو زهرة إليه ولم يشهد بدرًا زهري واحد .

تميز أبو جهل غضبًا لصنيع الأخنس ، ولم يستطيع أن يصنع غير أن يسب ويرمى بالجبن ، ثم ارتحل بالقوم حتى نزل بالعدوة القصوى .

ورأى المشركون أن يتحسسوا الأخبار ، فبعثوا عمير بن وهب ، وقالوا له : ابحث عن عدد المسلمين لنعلم موقفنا منهم ، فجال بفرسه ، ثم رجع يقول : ثلاثمائة يزيدون قليلا أو ينقصون ، ثم جال جولة أخرى ورجع يقول : إنهم بلاء لا يطاق ، قد تعاهدوا على الموت ، ولا ملجأ لهم غير سيوفهم ، ولن يقتل رجل منهم حتى يقتل منكم رجلا ، فإذا أصابوا منكم ثلاثمائة ، فما بقاء لحي من بعدهم ؟

استمع حكيم بن حزيم - وهو من أشراف القوم - إلى ما قال عمير ، فسار حتى أتي عتبة بن ربيعة وصاح به : يا أبا الوليد ، إنك كبير قريش ، وسيدها المطاع فيها ، فهل تصنع لقومك خيرًا يذكرونك به مدى الحياة ؟

قال عتبة مبتسمًا : وما ذاك يا حكيم ، فقال ابن خزام : ترجع بالناس إلى مكة ، وإذا كان المسلمون قد قتلوا عمرو بن الحضرمي فادفع ديته فهو حليفك ، ونتجنب إراقة الدماء ، فقال عتبة ، إنه الرأي يا حكيم ، ولا أجد مدعاة للحرب .

ثم نهض عتبة خطيبًا فقال : يا معشر قريش ، ماذا تصنعون إذا لاقيتم محمدًا وأصحابه فوجدتم وجوه أقاربكم وإخوانكم ، ولئن قتلتموه قتلتم من تأسفون على فقده ، ولئن قتلوكم أسفوا كما تأسفون ، فاتركوا محمدًا وشأنه وخلوا بينه وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فقد استرحتم ، وإن كان غير ذلك فسيعلم أنكم سالمتموه ويحفظها لكم .

ارتاح حكيم لقول عتبة ، ومضى يبلغ أبا جهل ما قال ، فصاح : لقد جبن الرجل حين رأى محمدًا وأصحابه ، والله ما نرجع حتى نفصل الأمر بيننا وبين محمد ، إن عتبة يخاف على ابنه حذيفة لأنه مع محمد ، وجاء القول إلى عتبة ، فقال : سيعلم أبو جهل أينا الجبان ؟

واندفعت الحماسة بالأسود بن عبد الأسد المخزومي - وكان ذا طيش أرعن - فقذف بنفسه إلى معسكر المسلمين ، وصاح : والله لأشربن من الحوض أو لأهدمنه أو لأموت دونه ، فاعترض حمزة ابن عبد المطلب وضربه بسيفه ضربة بترت ساقه ، فأخذ يجر نفسه جرًا وهو يحبو إلى الحوض ، فتبعه حمزة وقضى عليه بضربة ثانية .

ثم خرج عتبة بن ربيعة مع أخيه شيبة وابنه الوليد ودعوا المسلمين للمبارزة ، فتقدم إليهم رهط من الأنصار ، فقالوا : نريد المهاجرين ، فتقدم إليهم حمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبي طالب ، وعبيدة بن الحارث ، أما حمزة فقد قتل شيبة ، وأما عليّ فقد قتل

الوليد ، وأما عبيدة وعتبة فتضاربا وأصيبا معًا ، فكر حمزة وعليّ على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة جريحًا .

ورأى المشركون أول المأساة ، فهاجوا ، واندفع المتحمسون للالتحام ، واشتعلت المعركة بين الفريقين ، جاء في كتاب الجهاد من صحيح مسلم : قال عمر بن الخطاب : (لما كان يوم بدر ، نظر رسول الله إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وعشر رجلا « فاستقبل نبي الله القبلة ، ثم مدّ يده فجعل يهتف بربه : اللهم أنجز ما وعدت ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد في الأرض ، فما زال يهتف به مادًا يديه يستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه ، فألقاه على منكبه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبي الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٩ ، ١٠] .

وقد خفق رسول الله خفقة وهو في العريش ، ثم انتبه مبتسمًا ، فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا الغبار ، ثم خرج رسول الله ﷺ وهو يثب في الدرع ويقول : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر : ٥٤] ، فأخذ

يشجع المسلمين ، ويقول : (والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة) .

ثالثًا : تحمس المسلمون حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو قول الله: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر : ٥٤] ، وعلموا أن النصر دان قريب ، فهجموا على الأعداء هجوم من يثق في وعد الله ، واستحر القتال في معركة بذلت فيها الأرواح رخيصة في ذات الله ، وقد تأكد كل مسلم أن له إحدى الحسنيين : إما النصر وإما الشهادة» .

وكان عمير بن الحمام يأكل من تمرات في يده ، فسمع من يعده بالجنة إذا استشهد ، فصاح فرحًا : أوليس بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ! ثم قذف بالتمرات من يده ، وأخذ سيفه فجعل يقاتل مستبسلا حتى رزق الشهادة .

أما رسول الله فقد تناول حفنة من الحصباء ، وقذف بها في وجوه المشركين وهو يقول : شاهت الوجوه ، ودعا أصحابه إلى الاستبسال، فاستبسلوا وتم النصر ، وحاقت الهزيمة بالأعداء ، وانطلق المسلمون يأسرون المستسلمين ، وكان سيد الأوس سعد ابن معاذ عابسًا يلوح في وجهه الغضب لما يصنع المسلمون من أسر المشركين ، إذ يرى القتل أولى ، فقال له رسول الله : لكأنك يا سعد

تكره ما يصنع القوم ! قال : أجل يا رسول الله ، هذه أول وقعة للشرك ، فكان الإثخان أحبّ إلىّ .

وطاف رسول الله بالقتلى فأمر أن يلتمس أبو جهل ، وكان عبد الله بن مسعود قد طاف بالجرحى ، فسمعه يئن ، في آخر لحظاته ، فوضع رجل على عنقه ، وقال : هل أخزاك الله يا عدوه ؟ قال : وبم أخزاني ؟ أخبرني لمن الدائرة اليوم ؟ قال : لله ورسوله ، ورآه أبو جهل يعتلي صدره ، فقال : لقد ارتقيت مرتقي عظيمًا يا رويعى الغنم ، فاحتز رأسه وجاء به إلى رسول الله ، فكبر المسلمون .

وأمر رسول الله بالقتلى فدفنوا في القليب ، ووقف عليهم قائلا : يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا ! فقال أصحابه : أتكلم قومًا موتى يا رسول الله؟ قال : ما أنتم بأسمع منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا ، ثم قال : يا أهل القليب ، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتموني ، وصدقني الناس ، وأخرجتموني ، وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس .

وسار الرسول حتى قدم المدينة ووراءه الأسرى ، فقال لأصحابه: ما تقولون في هؤلاء ؟ فقال أبو بكر : هم قومك وأهلك فاستبقهم وتريث ولا تعجل ، لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر: يا رسول الله ، كذبوك وأخرجوك ، فقدمهم واضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، انظر واديًا كثير

الحطب ، فأدخلهم فيه ، ثم أضرمه عليهم نارًا ، فسكت رسول الله ولم يجب ، فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال آخرون : يأخذ بقول ابن رواحة ، ثم خرج النبي فقال : إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه ، حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، إذ قال : ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٦] ، ومثلك مثل عيسى قال : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] ، ومثلك يا عمر مثل نوح إذ قال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] ، ومثلك كمثل موسى إذ قال : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] ، ثم ارتضى الفداء ، وعاتبه الله في ذلك حين قال : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٧] [١] .

---

(١) هذا هو المشهور الذائع ، ولكن المؤلف قد عرض الوجهة الأخرى بإشباع في الجزء الثاني من كتاب (من منطلق إسلامي) ص(١٠٤) (سلسلة إسلاميات) .

وانتقل الخبر إلى مكة فكانت كارثة ، ونهض الأقربون إلى فداء الأسرى ! وتم نصر الله وحقت الهزيمة على الكافرين .

ب ـ عبر من غزوة بدر

١ ـ كان رسول الله قائد القوم في بدر ، يصدرون عن أمره ، ولا يختلفون عليه ، وكانوا يتلمسون مواضع إشارته ، وبقيادته الحازمة قاد المسلمين إلى النصر ، أما المشركون فقد خرج بعضهم عن حقد متأصل ، وخرج بعضهم عن خجل وحياء ، ولم يكن أبو جهل قائدًا مسموع الكلمة ، فقد شغبوا عليه كثيرًا ، وانقسم القوم بعد نجاة أبى سفيان بالعير ، فقال بعضهم : نرحل دون قتال ، إذ لا حاجة لنا فيه ، وصمم أبو جهل على الحرب ، ورمى مخالفيه بالجبن، فورمت الأنوف وامتلأت الصدور ، وتصرف كل واحد كما يشاء ، فكان ذلك كله من دواعي الهزيمة .

٢ ـ عبأ رسول الله الجيش الإسلامي ، إذ كانت له مقدمة تسير أمام القسم الأكبر ، وكانت له مؤخرة تسير من ورائه ، وكانت له مجنبات تحمى القوات عن الشمال واليمين ، وقد أمر بإحكام الرمي في أول المعركة ، فلاقى المشركون من رماة النبال شرًا وبيلا ، واندفعوا للمعركة دون تخطيط ، وليس أمامهم دون طريق واحد ، اما المسلمون فانتهجوا مبدئيًا سبيل الكر والفر ، فكان المشاة والفرسان يقاتلون بالسيوف ويطعنون بالرماح ، فإن هجم عليهم الأعداء فروا ليواجهوهم من مكان آخر ، وإن تقاعسوا شدوا

عليهم صابرين ، أما النشابة فقد واصلوا الرمي دون انتظار ، حتى إذا مضى بعض الوقت ثبت المسلمون في صفوف تتدافع ، ورأى عدوهم صدق اللقاء فأخذ يكر قليلا ويفر كثيرًا فيلاحقه النشاب ، وقد وقفت صفوف المسلمين متلاحمة كالبنيان المرصوص ، وتخيروا الموضع الملائم ، فاستدبروا الشمس ولم يستقبلوها ، ولم يزحفوا إلى قريش حتى هجمت عليهم فكان الالتحام .

٣ ـ انتصر المسلمون على أعدائهم نصرًا مؤزرًا ، وكانوا قلة بالنسبة إليهم ، فزادهم ذلك يقينًا ، وقد أحسوا بمسئوليتهم الفادحة أمام الجمع الكثير ، فبذلوا قصارى ما يقدرون عليه من نضال، ومن ورائهم اعتقادهم الراسخ في معونة السماء ، لأنهم جند الله ، ولولا هذا الاعتقاد المبدئي لدبت مشاعر اليأس إلى نفوسهم ، إذ أن نسبة عدوهم العددية إليهم كانت ٣ ـ ١ ، كما أن تفوقه في الأسلحة والذخيرة والخيل مما يجب أن يكون موضع حساب دقيق! فغطت الثقة في النصر على ما يمكن أن ينشب من تخاذل .

٤ ـ كانت غزوة بدر مقدمة راسخة للإعلان عن قوة جديدة تملك الأمر في شبه الجزيرة العربية ، فعرف العرب جميعًا أن بعثًا دينيًا قد أخذ طريقه في السطوع ، وبدأت عواصف الشك في المعتقدات الوثنية تهب على النفوس ، وترتب على ذلك ان اضطر إلى مهادنة المسلمين من كان يتربص بهم الشر ، كما تشجع على الإقبال عليهم من كان يرى فيهم فجرًا لصباح وضيء ، وبذلك

كسبت الدعوة الإسلامية مزيدًا من الأنصار .

٥ ـ توقع المسلمون رد الفعل من قريش ، فما وهنوا وما استكانوا، ودارت الأيام بكرات الانتقام والثأر على نحو ما سنشير إليه ، ولكن الخاتمة النهائية أسفرت عن نصر الله المبين .

*****

ما بعد المعركة

انتهت غزوة بدر بانتصار المسلمين ، وقد استشعروا فرحة سعيدة بنصر الله ، وسجدوا شكرًا لمن أيدهم بعونه ، ولكنهم في ظلال الفرحة لم ينسوا شهداءهم الذين حظوا برضوان الله حين اختارهم لفردوسه ، وهم أربعة عشر بطلا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وضحوا بأنفسهم مختارين .

وجلس فريق منهم يتحدثون عن هؤلاء الذين سبقوهم إلى رحمة الله ، فقال قائل منهم متعجبًا :

لقد كان عبيد بن الحارث بن عبد المطلب ، صديقًا حميمًا لعمير بن الحمام ، قد آخي بينهما رسول الله ﷺ ، وأحدهما قرشي ، والآخر أنصارى ، ومنذ سعدا بهذا الإخاء صارا متلازمين لا يكادان يفترقان ، وها هما ذان يرزقان الشهادة معًا في معركة بدر ! أكانا على موعد في الجنة كما كان من قبل على موعد في يثرب ؟

وقال آخر : ما رأيت كجهادهما الصادق يوم تقدما الصفوف إلى القتال ن لقد كانا متجاورين متلازمين ، ولكن أمرًا فرق بينهما ، إذ استدعى عبيدة ابن الحارث للمبارزة مع حمزة وعلي ! حين تقدم ثلاثة من كرام الأنصار لملاقاة عتبة بن ربيعة ، وابنه الوليد بن عتبة ، وأخيه شيبة بن ربيعة ، فصاحوا بهم : لا نريد منازلة مدني ، نريد

ما بعد المعركة

انتهت غزوة بدر بانتصار المسلمين ، وقد استشعروا فرحة سعيدة بنصر الله ، وسجدوا شكرًا لمن أيدهم بعونه ، ولكنهم في ظلال الفرحة لم ينسوا شهداءهم الذين حظوا برضوان الله حين اختارهم لفردوسه ، وهم أربعة عشر بطلا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وضحوا بأنفسهم مختارين .

وجلس فريق منهم يتحدثون عن هؤلاء الذين سبقوهم إلى رحمة الله ، فقال قائل منهم متعجبًا :

لقد كان عبيد بن الحارث بن عبد المطلب ، صديقًا حميمًا لعمير بن الحمام ، قد آخي بينهما رسول الله ﷺ ، وأحدهما قرشي ، والآخر أنصارى ، ومنذ سعدا بهذا الإخاء صارا متلازمين لا يكادان يفترقان ، وها هما ذان يرزقان الشهادة معًا في معركة بدر ! أكانا على موعد في الجنة كما كان من قبل على موعد في يثرب ؟

وقال آخر : ما رأيت كجهادهما الصادق يوم تقدما الصفوف إلى القتال ن لقد كانا متجاورين متلازمين ، ولكن أمرًا فرق بينهما ، إذ استدعى عبيدة ابن الحارث للمبارزة مع حمزة وعلي ! حين تقدم ثلاثة من كرام الأنصار لملاقاة عتبة بن ربيعة ، وابنه الوليد بن عتبة ، وأخيه شيبة بن ربيعة ، فصاحوا بهم : لا نريد منازلة مدني ، نريد

أكفاءنا من قريش ! فشاء رسول الله ﷺ أن يتقدم للمبارزة ثلاثة من أعز أقاربه ، هم : علي بن أبي طالب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعبيد ابن الحارث ، وحمزة رضي الله عنه عم الرسول ، وعلي وعبيدة ابنا عميه ! فصرع علي وحمزة غريميهما ، وتبادل عبيدة مع خصمه شيبة ابن ربيعة ضربتين ، فجرح عبيدة بضربة أصابت ركبته فأطاحت برجله ، وأسرع علي وحمزة فأجهزا على شيبة ، وحملا عبيدة جريحًا يسيل دمه من ساقه ! ثم جاءه الأجل بعد أن أضجعه صاحباه جوار رسول الله ، وهو بين الحياة والموت ، فكان يسأله : أئذا مت أكون شهيدًا ، فيجيبه نعم ، لقد أديت واجبك ! فيبتسم عبيدة وهو يعاني سكرات الألم ويقول : يا رسول الله ، أما والله لو أدرك أبو طالب عمي ، هذا اليوم لعلم أني أحق منه بقوله :

كذبتم وبيت الله يبزى محمد ولما نطاعـــن دونـه ونقاتل

ونسلمه حتـــى نصرع دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل

لقد كان رغم معاناته يقظ الروح ، يروى الشعر ، ويسأل عن مصيره ، ويفتخر بما أسلف عن عقيدة وإيمان !

هذا حديث استشهاد عبيدة ، فما فعل صاحبه الحميم عمير بن الحمام ؟

لقد تحفز المسلمون للقتال وتقدم رسول الله يحمس الناس ، فأخذ يتلو قول الله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ

﴿ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٤] ، ثم يقول ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يقاتلهم رجل ، فيقتل صابرًا محتسبًا إلا دخل الجنة) ، ويلتفت إلي أصحابه صائحًا : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض!

وهنا تقدم إليه عمير بن الحمام سائلا : يا رسول الله ، أهي جنة عرضها السموات والأرض ؟ فيقول له عليه الصلاة والسلام : نعم ، نعم !

فيصيح عمير : بخ بخ ، فيسأل الرسول : ما يحملك على هذا القول ؟

فيقول مبتهجًا : والله يا رسول الله ما حملني على هذا القول إلا رجاء أن أكون من أهلها !

ثم أخرج عمير تمرات من جيبه وأخذ يأكل منها ، وكأنه استكثر أن ينتظر قليلا حتى يتم طعامه الضئيل فصاح : والله لئن أنا حييت حتى آكل ثمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة !

ثم ألقي التمرات ، وتقدم إلى الميدان ، يضرب ذات اليمين وذات الشمال بسيفه ، هاجمًا على مواقع الخطر الداهم غير هياب ، حتي ترصده من يسمى بخالد بن الأعلم فقتله من خلفه ! فكان أول شهيد من الأنصار .

وسأل سائل : أسيكونان صديقين في دار الجزاء كما كانا صديقين

في المدينة ؟ عبيدة وعمير !!

فسمع من يجيب ! إن صداقة الخلد أحلى مذاقًا ، وأتم نعمة من صداقة هذه الدار الفانية ، فليس في الجنة تزاحم على الرغبات ، وتصادم في الأهواء ، وأرقى منازل الفردوس مما يتاح للشهداء ، فهم في مقعد صدق كريم !

وقدم وافد على القوم فسمعهم يخوضون في حديث الشهداء ، ويتذاكرون المبارزة الباسلة التي قام بها حمزة وعليّ وعبيدة ، فقال : لقد كنت عند رسول الله وعرفت أن الله عز وجل قد أنزل في هذه المبارزة قرآنًا كريمًا تلاه رسول الله علينا ، فقرأ قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [الحج : ١٩ ، ٢٤] .

فجعلوا يحفظون الآيات متأملين .

وكان سواد بن غزية رضي الله عنه يسمع الحديث منذ بدأ ، حتى إذا سكت القوم جعل يهز رأسه أسفًا ، ثم قال : والله لقد تمنيت الشهادة يوم بدر ، ولكنها أبطأت عنى ! لقد وقفت في الصف الأول متحفزًا للقاء ، وكأني تقدمت على زملائي ، فمر بي رسول الله ومعه قدح في يده ، فطعنني بالقدح في بطني قائلا : استو يا سواد ، فدبرت في نفسي أمرًا ، وقلت وكأني جاد : أوجعتني يا رسول الله ، وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقدني !

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه ، وقال : (استقد يا سواد) . فاعتنقه مسرورًا ، وقبلت بدنه الكريم ، فتساءل رسول الله قائلا : ما حملك على هذا ؟

فقلت في فرحة : يا رسول الله ، لقد حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك ؟

ووالله كنت أتمنى أن أرزق الشهادة ، ولعلها تأخرت إلى أجل قريب ! لقد رأيت بعيني مصارع من استشهدوا يوم بدر ، رأيت الصبي عمير بن أبى وقاص وهو يجود بنفسه في السادسة عشرة من عمره ، ورأيت صفوان بن بيضاء ، ومبشر بن عبد المنذر ، كما راعني أن أشهد استبسال معاذ بن عمرو بن الجموح ! لقد كان في طوقه أن يتريث فلا يندفع ، ولكنه مر بخيمة صنعت من الشجر الملتف ، وقد أحاط بها المشركون من كل جانب ، وهم يقولون : أبو الحكم بن هشام ، لا ينبغي أن يوصل إليه ، فعرف أنه أبو جهل ،

وتذكر ما فعل عدو الله بنبي الإسلام ، فصمم على أن يقتله ، وإن قابل الحشد الحاشد من حارسيه ، وهجم بسيفه ، فنزلت الضربة على ساقه فبترتها ، وقاومه عكرمة بن أبى جهل بضربة قدت يده ! ولم يهن معاذ بعد قطعها ، بل استمر يقاتل ، وهي معلقة بجلدة يسحبها معه أنى سار ! ثم حمل المسلمون حملتهم ، وجاء ابن مسعود فرأى أبا جهل يشخب في دمه ، فعلا صدره ، وجعل يجز رقبته ، وأبو جهل يتأوه متعجبًا أن يعلوه من كان يضربه مستهزئًا بمكة !! ولم يدر أن للحساب يومًا غير يسير !

لقد بدأ معاذ وثني معوذ بن عفراء ، وأجهز عبد الله ! وتلك هي العاقبة .

قال قائل : وماذا فعل ابن مسعود برأس أبي جهل ؟

فقال سواد بن غزية : حدثني عبد الله بن مسعود فقال :

كنت أفتش بين القتلى فوجدته بآخر رمق ، فوضعت رجلي على عنقه ، ومن قبل آذاني بمكة ولكزني مرات ، فصحت به : أأخزاك الله يا عدوه ، فقال غاضبًا : وبماذا أخزاني ؟ وهل أنا غير رجل قتلتموه ! ثم سأل : أخبرني لمن الدائرة اليوم ؟ قلت : لله ولرسوله ، وعلوت صدره أحتز رأسه . فقال : لقد ارتقيت مرتقي صعبًا يا رويعى الغنم ! فهزئت به وحملت رأسه إلى رسول الله صائحًا : هذا رأس عدو الله أبى جهل . فقال ﷺ : آلله : لا إله غيره .

على أن حديث عبيدة بن الحارث لم ينقطع ، فقد رجع إليه من قال : لقد مضى شهداؤنا إلى رحمة الله ، ومضت قتلاهم إلى عذابه ، ولكن رجائي في عبيدة كان كبيرًا ، إذ هو ابن عم رسول الله ، أسلم مع السابقين الأولين قبل أن يجتمع الرسول بأصحابه في دار الأرقم، وحين تمت الهجرة ، وحل بالمدينة جعله رسول الله في السنة الأولى قائد السرية الفدائية التي تكونت من ستين فارسًا ، كلهم من المهاجرين ، فنهض متقدمًا حتى بلغ ماء في رابخ ، وواجه المشركين حين أقبلوا في مائتين ، وفيهم أبو سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل ، فدار أول قتال في الإسلام ، ولم يلتحم الفريقان ، بل ترامى القوم بالسهام ، وكان عبيدة يتعرض للموت المنهمر من الأفق دون نكوص ، ومعه الراية البيضاء ، وهي أول لواء عقد في الإسلام ، حتى إذا جاء الظلام فر المشركون ، ورجع عبيدة منتصرًا ، إذ استطاع بستين رجلا أن يهزم مائتين ، وقد سار من المدينة متحملا وعثاء الطريق ، على حين لم تبعد مسافة المشركين عن مكة .

وأذن العصر ، فتوافد القوم على المسجد ، وفي نفوسهم ذكريات عن معركة بدر ، وشهدائها الباسلين ...

*****

غزوة أحد

أ ـ أحداثها البارزة

وقعت كارثة بدر صاعقة على المشركين ، وكان من الخزاعيين من أسرع بالنبأ المروع لأخل مكة ، إذ صاح في أرجائها بأن قتل فلان وفلان ، معددًا أسماء الأشراف من السادة ، فأحدث من الجزع ما تحدثه النار أسقطت في بئر من النفط فانتشر لهيبها في كل منزل ، وقد شك صفوان بن أمية فيما سمع ، إذ لم يكن ليتصور أن أبا جهل وأمية بن خلف وعتبة وشيبة والوليد سيتساقطون هكذا في أول لقاء ، حتى جاء أبو سفيان بن الحارث هاربًا مذعورًا يسرد ما رأى بعيني رأسه ، وكان أبو لهب مريضًا فتحامل على نفسه ليلقى الناس وليسمع ، فجاء إلى أذنه قول ابن الحارث : ما إن لقينا القوم حتى منحناهم أجسادنا يقتلون من يشاءون ، ويأسرون من يشاءون ، فلا تسل بعد عما تأجج من الأسى ، وقد حلف المشركون ألا يبكوا قتلاهم حتى ينالوا ثأرهم من المسلمين ، وقد أصيب الأسود بن المطلب في ثلاثة من أولاده ، وكان يجد في البكاء تنفيسًا لما يشتعل في أطوائه ، ولكنه نزل على مشيئة القوم في الانتظار حتى يشتفوا بالثأر، وقد سمع نائحة بليل تبكى ، فظن أن البكاء قد أبيح ، فقال لغلام له : اذهب وانظر هل أحل النواح ؟ هل بكت قريش قتلاها ، لعلى أبكى ، فإن جوفي قد احترق ، فذهب الغلام وجاء يخبره أنها

امرأة تبكى بعيرًا لها قد ضلّ فانفجر يقول :

أتبكي أن يضـــل لها بعير ويمنعها مـن النوم السهـود

فلا تبكي على بكر ولكن على بدر ، تقاصرت الجدود

وأخذت قريش تبعث الفداء للأسرى مقهورة ذليلة ، وهي تأخذ في الاستعداد كل يوم للثأر ، وحين رجع أبو سفيان بعيره مشى إليه من بقى من أبناء الأشراف ، وقد صاروا رؤساء بعد قتل آبائهم ، مثل عكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية وغيرهما ، فقالوا : إن مال العير لابد أن يرصد لحرب المسلمين ، ولابد أن تجمع من يحالفنا من قبائل كنانة وتهامة لتأخذ بالثأر ، فوافق القوم ، وشرعوا يرسلون الشعراء إلى القبائل المجاورة ، يسألونهم النصرة ويدعونهم إلى القتال معهم ، باذلين ما يريدون من مال ، وقضوا ثلاثة عشر شهرًا في الاستعداد الدائب .

وقد شاءت قريش بعد شهرين ونصف أن تقوم بعمل بارز يرد لها بعض المكانة المندحرة ، فخرج أبو سفيان في مائتي راكب ، وجاءوا إلى اليهود من بني النضير يدعونهم إلى المحالفة في حرب محمد ، فلما كان السحر ، خرج أبو سفيان حتى جاوز ثلاثة أميال من المدينة وقتل رجلا من الأنصار وأشعل النار في بعض المنازل ، وولى هاربًا ، وجاء النبأ إلى المسلمين ، فخرج رسول الله في مائتي رجل من الأنصار والمهاجرين يطلبون القوم ، ولكن الفزع قد ملك

نفوس المشركين فأمعنوا في الهرب وأخذوا يتخففون من أثقالهم فيلقون ما معهم من (السويق) ، فجعل المسلمون يجمعون ما يقذفون دون أن يستطيعوا اللحاق بهم .

وكان فرار أبي سفيان بمن معه هزيمة أخرى ضاعفت الكارثة ، ولكنها دفعت إلى الاستعداد الأكبر ، وجعلت كل قرشي من المشركين يبذل في التأهب قدر ما يستطيع ، وقد رأوا أن من السلامة أن يغيروا طريق الرحلة مهما تكبدوا من المصاعب ، فأخذوا يتنكبون طريق الساحل ، ويأخذون طريق العراق ، ولكن نبأ القافلة قد جاء إلى رسول الله فأرسل بعثًا في مائة راكب بقيادة زيد ابن حارثة ، فواجه القوم ، فملكهم الرعب ، وفروا هاربين وقد تركوا العير وما عليها !

وإذن فقد تحتم القتال تحتمًا لا محيص منه ، لأن التجارة هي مصدر الرزق للسادة من قريش ! وها هو ذا رسول الله يقف أمامهم دونها ، فليست المسألة مسألة ثأر فحسب ، وشرف وعار ، ولكنها مسألة حياة وعيش ، ومن هنا نهضت قريش - قرابة عام - تجمع الجموع وتحشد الحشود حتى تم لها جيش من رجالها وممن والاها من تهامة وكنانة وبنى الهون والأحابيش من بني المصطلق ، ورأت أن تلهب العزائم ، فاصطحب السادة نساءهم وبناتهم كي يدفعنهن إلى الثبات فلا يفروا من الميدان ساعة الهول ، وقد خرجت

في أوائل شوال من السنة الثانية للهجرة ، يقود جيشها أبو سفيان ابن حرب ، يحمل لواءه طلحة ، وعلى ميمنته خالد ، وعلى الميسرة عكرمة ، وعلى الرجالة صفوان بن أمية ، وكان عددهم ثلاثة آلاف مقاتل من بينهم مائتان من الفرسان المهرة كرًا وفرًا على الخيل ، وسبعمائة من الدارعين المسلحين ، ومن ورائهم حشد من العبيد والغلمان لقضاء الحوائج وإعداد ما يتطلبون من فراء وشراب ، وكان من بينهم (وحشي) وهو عبد حبشي يجيد الرمي بالسهام وقد أغراه سيده أن يتربص بحربته لحمزة بن عبد المطلب ليقتله ، فذلك جزاء عتقه ، كذلك حمسته هند بنت عقبة ، وقد وعدته خيرًا كثيرًا إن أخذ بثأرها من حمزة ! وأقبل الجميع حتى نزلوا على شفير الوادي مما يلي المدينة .

سمع الرسول بما كان ، فجمع أصحابه مشاورًا ، وكان من رأيه أن يظل المسلمون بالمدينة فلا ينهضوا في الخلاء لملاقاة الأعداء ، لأن المدينة حصينة وما دخلها عدو فانتصر ، فإذا ولجها المشركون قاتلهم الرجال ورماهم الصبيان والنساء بالحجارة من فوقهم فيندحرون خائبين ، هكذا كان رأى الرسول ، ورأى جماعة من مشيخة الأوس والخزرج ، ولكن نفرًا من ذوى الحماسة لم يزالوا برسول الله يستحثونه على الخروج قائلين : ما غزى قوم في ديارهم إلا ذلوا ، فاستمع إليهم ، ودخل بيته ، ولبس لأمته ، فلما رأوه متهيئًا هكذا ، ندموا ، وقالوا : أكرهنا النبي ولم يكن لنا ذلك ،

وأخذوا يعتذرون هاتفين : اصنع ما أردت يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما كان لنبي لبس لأمته أن يدعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ..

وسار الجيش الإسلامي في ألف من الصحابة حتى إذا كان بين أحد والمدينة تخاذل عبد الله بن أبيّ ، فرجع بثلث الناس ، وقال أشرت عليه ألا يبرح المدينة فخالفني واستمع إلى الصبيان ، والله ما ندري علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس !! فجرى وراءه عبد الله بن عمرو وهو يناشده الرجوع ، ويصيح : يا قوم ، لا تخذلوا نبيكم ، فما استمعوا له .

سار المسلمون حتى نزلوا الشعب من أحد ، وقد دار الرسول بعينه ليهيئ الخطة الواقية ، فجعل ظهر الجيش إلى جبل أحد ، وقال لأصحابه : لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بقتال ، وقلد عبد الله ابن جبير أمر الرماة ، وقال له : ارم الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، ولابد أن تثبت في مكانك لا تنتقل ، سواء كانت الواقعة لنا أو علينا ، ثم دفع النبي لواء المسلمين إلى مصعب بن عمير .

والتقي الناس ودنا بعضهم من بعض ، فجعلت هند بنت عتبة تجمع صاحباتها ليحرضن المشركين ، وأخذن يضربن الدفوف ، وينشدن الأشعار ، وظهرت بطولات رائعة تدل على تضحية بالغة، ومن أمثلتها ما صنع أبو دجانة حين سمع رسول الله يقول : من يأخذ سيفي هذا بحقه ؟ فإنه أسرع يقول : وما حقه يا رسول الله ؟

قال : أن تضرب به العدو حتى ينحني ، فقال أبو دجانة : أنا آخذه بحقه ، فأعطاه إياه ، فلما وقع في كفه ، أخرج عصابته الحمراء فعصب رأسه ، ومشى يتبختر بين الصفين ، فقال رسول الله ﷺ : «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن ، وجعل أبو دجانة لا يقابل مشركًا إلا قتله ، واعترضته امرأة فهمّ أن يقتلها ، ولكنه رفع السيف إكرامًا له أن يقتل به امرأة وهو سيف الرسول .

اشتعلت المعركة وأبلى المسلمون بلاء حسنًا ، وقد قاتل مصعب ابن عمير حتى قتل ، فحمل اللواء علي بن أبى طالب فقاتل واستبسل ولاحت بشائر النصر ، فانخذل المشركون وولوا الأدبار.

وكان على الرماة الذين وقفوا من وراء المسلمين في الجبل أن يلزموا أماكنهم ، ولكن حب الغنيمة دفعهم إلى أن يبرحوا موضعهم ليلحقوا بعض ما يأملون ، ونسوا وصية رسول الله ﷺ ، إذ ألزمهم بالوقوف مهما كانت النتيجة ، ويعلم الله أنهم لم يخالفوا عن إصرار ، ولكنهم توهموا أن المعركة قد انتهت وأن انسحاب المشركين نهائي لا رجعة فيه ، فلم يجدوا فائدة في الوقوف ! وما دروا أن خالد بن الوليد سينتهز الفرصة وسيوالي الهجوم حين يرى انكشاف ظهور المسلمين بعد أن فارق الرماة ! لقد كان خالد يعلم أن نبالهم ذات وقع شديد ، وأنها عطلت هجومًا كان يجب أن يحدث ، فلما وجد المكان خاليًا هجم بكتيبته ، على حين كان كثير من المسلمين قد فارق السلاح !

وكان من الممكن أن تلتئم صفوف المجاهدين في سرعة نشيطة لولا أن مكيدة أخرى قد دبرت بإحكام ، إذ أرجف المرجفون أن رسول الله قد قتل ، فأحدث هذا النبأ هلعًا في النفوس ، وتفرق المسلمون حائرين حتى خلص العدو إلى رسول الله ، ورماه بالحجارة فشج وجهه الكريم ، وجرحت شفته ، وجعل الدم يسيل على وجهه ، وهو يقول : كيف يفلح قوم أسلموا نبيهم ، وهو يدعوهم إلى ربهم ، ودخلت حلقتان حديديتان من المغفر وجنتيه ، ولكن جماعة من المسلمين خفوا إليه وقاتلوا دونه ، ومنهم زياد بن السكن ، إذ استشهد دفاعًا عن نبيه ، وجاءت أم عمارة وهي نسيبة بنت كعب فجعلت تباشر القتال دفاعًا عن رسول الله ، فتذب بالسيف وترمى بالقوس .

وأما أبو دجانة رضي الله عنه فقد انحنى بظهره على رسول الله ليتلقى السهام والنبال كيلا تصل إليه ، وكذلك فعل سعد بن أبى وقاص !

فيالها نفوسًا كريمة ، رأت أن تبذل حياتها فداء لرسول رب العالمين .

وفي هذه الأزمة الحركة ألهم الله كعب بن مالك ، فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أبشروا ، هذا رسول الله ، إنه حي لم يقتل ، وإذ ذاك انكفأ عليه المسلمون من كل مكان ، فأخذ علي بن أبى طالب بيده ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائمًا ،

وعالج أصحابه حلق الحديد في وجنته حتى انتزعوها ، وقد دفع الهوس أبي بن خلف إلى أن يقتحم مكان الرسول ، وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا ، فتناول رسول الله حربته ووجهها إلى عنقه ، فانكفأ من فوق فرسه يتلوى من الألم ، وقد أيقن من الموت مع أن جرحه كان لا يرى ذا خطر ، وكان الناس يقولون له : لم تصب في طائل ، فيقول : كلا ! قتلني محمد ، لقد قال لي في مكة : سأقتلك ، وما أراه يكذب .

وفي هذه الأزمات ، لم يفقد رسول الله كياسته ، إذ نظر إلى أعلى الجبل فوجد المشركين يحتلونه ، فقال : لا ينبغي أن يكونوا في هذا الموضع منا ، فقاتل عمر بن الخطاب قتالا شديدًا مع جماعة من المهاجرين حتى اضطروهم إلى مبارحة الجبل مقهورين .

دبت النشوة في نفوس المشركين فجعلت هند تزغرد ، وترسل الأراجيز الشامتة ، وأشرف أبو سفيان على الجبل ، وصرخ بأعلى صوته : أفي القوم محمد ؟ فسمعه رسول الله ، ونهى القوم أن يجيبوه، فقال : أفي القوم أبو بكر ؟ فنهى القوم أن يجيبوه ، فقال : أفي القوم عمر بن الخطاب ؟ فنهي القوم أن يجيبوه أيضًا ، فابتسم والتفت إلى أصحابه يقول : لو كان هؤلاء في الأحياء لنطقوا ! لكنهم موتى فلم يتمالك عمر بن الخطاب أن صاح : كذبت يا عدو الله ، قد أبقى الله لك من يخزيك .

وأمر رسول الله عليًا أن يتبع المشركين لينظر إذا كانوا قد تركوا الخيل وركبوا الإبل ؟ إذ أنهم لو فعلوا ذلك فمعناه أنهم قد انتهوا من المعركة وخفوا قاصدين مكة ، أم إذا ركبوا الخيل وتركوا الإبل فمعناه أنهم متوجهون إلى المدينة ، ثم قال ﷺ : « لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأناجزنهم ، فخرج علي بن أبي طالب فوجدهم قد ركبوا النياق راحلين .

وحمزة بن عبد المطلب أسد الله ! لقد شغل بال ابن أخيه ، فخرج رسول الله يتحامل على نفسه متلمسًا إياه بين الجرحى ، فوجده طريحًا قد مثلت به قريش ، فبقرت بطنه وجدعت أنفه وأذنيه ! فما مر عليه ﷺ موقف أشد إيلامًا لنفسه مما رأى ! وقال : لولا أن تحزن صفية بنت عبد المطلب ـ أخت حمزة ـ لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير ، ثم التفت إلى أصحابه يقول متأثرًا : لن أصاب بمثلك أبدًا ، وما وقفت موقفًا قط أغيظ لنفسي من هذا الموقف ، ثم أمر به فسجى ببردة وصلى عليه ، وجيء بقتلى المسلمين يوضعون إلى جواره ، فصلى عليهم جميعًا ، وأمر بهم فدفنوا .

وكان من عزاء المصابين في أحبابهم من الشهداء أن نزل قول الله عز وجل :﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ۞ [آل عمران : ١٦٩، ١٧٤] .

كما كان من عزائهم الحاني أن سمعوا رسول الله ﷺ يقول : « أنا شهيد على هؤلاء ، إنه ما من جريح يجرح في سبيل الله إلا وبعثه الله يوم القيامة ، يدمى جرحه ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك ، فطوبى للشهداء » .

والحق أن عوامل الأسى لم تكن لتقف عند المعركة وحدها ، بل امتدت إلى المجتمع المدني ، حين بدأ المنافقون يرجفون باللغو ، ويستمعون إلى شماتة عبد الله ابن أبيّ بن سلول ، إذ أخذ يؤكد سلامة رأيه ويعلق بأن الهزيمة قد كانت حتمية لمخالفة المسلمين وجهته القائلة بعدم الخروج من يثرب ، كان للرجل أنصار ممن يشايعون على النفاق ، فأخذوا يلجون بيوت الشهداء في صورة الحزين ، ثم ينتقلون بالحديث إلى نقد المسلمين ، ومحاولة النيل من

رسول الله ، وفي الناس من يصدقون القول ، وبخاصة إذا كانوا قد نكبوا في عزيز لديهم قد ذهب وجهه عنهم إلى غير عود !

أي عزاء يجديهم في هذه الكارثة إن لم يكن عزاء الإيمان بالله ، وحسن مثوبته للمجاهدين من الشهداء ، وقد نزلت آيات كريمة من سورة آل عمران لتؤكد هذا المعنى ، ولتبرئ جراحًا ينغر بها الحزن نغرات تمض وتوجع ، كأن يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩ ، ١٤٢] .

أما رسول الله فقد كان الطبيب الرائع بمواساته الشافية حين أخذ يطوف بمنازل الشهداء ، شهيدًا إثر شهيد ، وحين قال لأصحابه فيما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس : (لما أصيب إخوانكم يوم أحد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من الذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلتهم ، قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا كيلا يوهنوا في الجهاد

أو ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الآيات : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩]) .

هذا ما كان من أمر الرسول وأصحابه بالمدينة ، أما ما قام به نحو المشركين فإنه آثر أن يخرج في طلبهم مرهبًا إياهم بعد أن جاءه النبأ برحيلهم ليظنوا به البأس ، فأذن مؤذن الجهاد ألا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس ! فاستجاب المسلمون لندائه ، وخرج معهم رسول الله حتى بلغ (حمراء الأسد) وهي من المدينة على بعد ثمانية أيام ، فمر به معبد الخزاعي ، فقال له : يا محمد ، لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن عافاك الله منهم ، وكان الرجل صادق النية فيما قال ، فإنه واصل السير حتى بلغ أبا سفيان ومن معه (بالروحاء) فوجد المشركين يتلاومون أن انسحبوا دون أن يدخلوا المدينة ويستأصلوا المسلمين ، وإن قائلم ليقول : لا محمدًا قتلتم ، ولا أصحابه أسرتم ، ولا أموالهم نهبتم ، ولا نساءهم سبيتم ، فماذا صنعتم !! سمع معبد ذلك فوجد عند المشركين نية للرجوع فقال لأبى سفيان : لقد خرج محمد إلى حمراء الأسد يشتد في طلبكم ، ومعه جمع من المسلمين لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم غيظًا ويتأججون حفيظة ، وقد التف حوله كل من تخلف عن أحد ، وندموا على ما فرطوا في حقه ، وفيهم من الغضب ما لم أر مثله قط ! فدهش أبو سفيان وصاح : ماذا تقول ؟ قال : والله لا ترحل حتى

ترى نواصي الخيل ، فرد أبو سفيان : لقد جمعنا الرأي على الكرة لاستئصالهم ، قال معبد : إني لأنهاك عن ذلك وسنرى ، فنزل الرعب في نفوس قريش وآثروا الانسحاب ، وقام صفوان بن أمية فأكد ضرورة الذهاب إلى مكة كيلا ينقلب الانتصار إلى خذلان .

ب ـ عبر من غزوة أحد

١ ـ في غزوة أحد مجال كبير للاعتبار ، وأبرز ما نشير إليه في موضوع العظة هو ضرورة الامتثال إلى أمر القيادة ، فقد أمر رسول الله ﷺ الرماة ألا يبرحوا أماكنهم في أعلى الجبل مهما اضطرب الموقف، إذ يعلم أنهم يمثلون مركز الثقل الحقيقي في المعركة ، إذ يرمون مهامهم القاتلة فتعوق المهاجمين ولكن الضعف الإنساني قد دفع هؤلاء إلى مبارحة الجبل ، توهمًا منهم أن المعركة قد انتهت وأن الساعة ساعة الغنائم والأسلاب ، فليسارعوا ليأخذوا بنصيبهم مما ترك المشركون ، ولو علموا أنهم سيفتحون باب الهزيمة ما ولوا مسرعين .

٢ ـ كانت بوادر الخلاف ظاهرة بارزة في مبدأ الغزوة ، إذ تعددت الآراء حول مغادرة المدينة أو الانتظار فيها ، وكان من رأى الرسول أن ينتظر ، ولكنه خضع لمشورة الأكثرية ، فغضب من لم يستجب لرأيهم ، وانسحب ثلث الجيش وراء عبد الله بن أبيّ ! على حين كان الرأي جميعًا متحدًا يوم بدر ، فلم تتعدد الآراء ، ولم ينسحب أحد ، لأن رأيه لم ينفذ ، ولسنا بذلك نبرر مسلك ابن أبيّ في انسحابه ، لأنه

قد أخطأ خطئًا نعرف بواعثه الحاقدة في نفسه البغيضة ، ولكننا نقول: إنه وجد الفرصة سانحة للتنفيس عن كيده فاهتبلها .

٣ ـ للإشاعات الكاذبة أثرها السيئ في نتائج الحرب ، إذ أن هذا الشيطان الماكر الذي أذاع أن رسول الله ﷺ قد لقي مصرعه كان ذا هدف واضح ، حيث أراد أن يشتت الشمل المجتمع وأن يوحى للمسلمين أنهم فقدوا نبيهم الذي جاءهم برسالة السماء ، فلا جدوى من الحرب بعد رحيله ، وقد أحدث هذا الخبر الكاذب صدى أليمًا جعل نفوس المجاهدين تتراخي وتهن ، على حين شد من أزر المشركين ، فبعث فيهم من الحمية ما جرءوا به على كل موقع من مواقع المعركة ، ووصل أحدهم إلى رسول الله ؛ وهو يحمل سيفه ، ظانًا أنه في الرمق الأخير ، ولابد أن يجهز عليه ، فأراد الله له أن يصرع مندحرًا ، ذلك و أبيّ بن خلف .

٤ ـ انتكاس بعض النفوس إلى حمأة الشك والتردد مما يوهن العزائم ساعة الروع ، فقد استمع المسلمون إلى أراجيف من شهد المعركة من المنافقين ، فأخذوا يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ! وهي محاولة مغرضة للتشكيك في الدعوة الإسلامية نفسها ! إذ لو كانت دعوة السماء ما انهزم أصحابها ! ولكن الله عز وجل قد حسم الأمر حين قال : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى

صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران:١٥٤] .

٥ ـ المسلم الصادق صادق في كل موقف ، ولن تمنعه عوامل التثبيط والخذلان مهما تكاثفت ، فقد التف حول رسول الله من فداه بنفسه وروحه ، ومن ظهر زهره مجنًا واقيًا من السهام ! حتى النساء ، فقد وقفت نسيبة تدفع بالسيف كما يدفع الرجال ، وذلك يدل في وضوح على أن صاحب الإيمان القوي لا تنال منه الزعازع وأن المتردد الخائر في حاجة إلى مزيد من اليقين يدرأ به عواصف الشكوك ! هذا التردد سبب حقيقي للتنازع والفشل ، وقد أومأ القرآن إليه حين قال الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

وجواب « إذا » محذوف تقديره : كانت الهزيمة والانحدار ...

تلك هي بعض العبر من غزوة أحد ، وفيها بلاغ .

*****

من حديث الشهداء

جلست كوكبة من الصحابة في مسجد قباء يتحدثون عن أشجانهم الدامية ، بعد أحد ، ولكن الكلمات لا تنطلق كما تعودت أن تسرع ، فاللفظ مقتضب ، والإشارة تغني عن العبارة ، وإن أحدهم ليبدأ الحديث ثم يقطعه فجأة . وأقبل عليهم (خباب بن الأرت) وقد قرأ ما في نفوسهم من الأسى ، فتفرّس في الوجوه قليلا ، ثم أخذ مجلسه بينهم كمن يريد أن يتحدث ، فصاح أحدهم : ما وراءك يا خباب !

فرد خباب في ثبات حازم كمن يريد أن ينقل القوم من حال إلى حال ، لقد نزل جبريل بفصل الخطاب ، جئتكم من عند رسول الله، وقد وعيت ما نزل عليه ، وفيه عظة واعتبار .

تطلعت العيون ، وأرهفت الآذان ، وأخذ خباب يقرأ قول الرحمن الرحيم : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ

وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٤ ـ ١٧١] .

ثم سكت قليلا ، فسمع من يقول : ولماذا نستمرئ الحزن على قوم ليسوا أمواتًا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله !؟

فأجابه آخر : نحن لا نحزن حزن اليائس القانط ، إذ لا ييأس من رحمة الله مؤمن ، ولكنها الذكرى تعتادنا ، ولا نملك أن ندفعها.

قال خباب : أما الذكرى فمن يستطيع دفعها ، لقد جئت إليكم ، وخيال مصعب بن عمير رضي الله عنه لا يبرح عيني ! لعهدى به في مكة من أنبل فتيان قريش ، وأوفرها مالا ، وأزهرها شبابًا ، وأجملها

ملبسًا ، وأرفهها طعامًا ، ثم إني رأيته في مشهده الأخير ، وعليه كفن لا يكاد يستره ، إذا شددته إلى الأعلى كشف قدميه ، وإذا شددته إلى الأسفل كشف رأسه ، !! أفيبرح هذا المشهد عينى !!

قال ذلك ونظر في وجوه القوم ، فرأى ما يغشاها من الألم ، فاستدرك يقول : تلك كانت لحظة ووري فيها التراب فصار ممن يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ...

وهنا تطلع أسيد بن خضير في وجه خباب وخاطبه قائلا : إذا كان طيف مصعب بن عمير لا يزال يراوح عينيك فإن طيف سعد ابن الربيع ماثل أمامي الآن ! لقد كان أحد النقباء في ليلة العقبة ، وكانت الفرحة تملأ نفسه حين قدم رسول الله إلى المدينة فسارع بزمام ناقته يقودها ويود أن يكرمه الله بنزول رسوله لديه ، ولكن لله مشيئة لا يعلمها أحد ، ثم جاءت معركة بدر فكان سابقًا غير لاحق، هذا كله شيء ، وما رأيته منه يوم أحد شيء آخر ، لقد نكصنا على الأعقاب حين حانت الفرقة المؤسفة ، ولكنه كان ممن صبر وجالد ، فرمى بنفسه في الأتون المشتعل ورآه رسول الله ﷺ وقد تعاورته السهام من كل مكان ، فأشفق عليه ، وما برح يتبع شخصه بعينه حتى توارى في غبار المعمعة ، ثم انتهى الأمر .

واجتمعنا إلى نبي الله فكان أول ما قال : اذهبوا فابحثوا عن سعد ابن الربيع فذهبت وذهب غيري ، حتى عثر عليه أبيّ بن كعب وهو يجود بنفسه ، فناداني فاتجهت إليه فسمعت أبيًا يقول له : إن رسول

الله أمرني أن أقرئك السلام ، وأن أنظر أفي الأحياء أنت أم الأموات، فقال سعد في آخر لحظاه : لقد طعنت كثيرًا حتى أنفذت مقاتلي حين اخترقتها الطعنات ، فأبلغ رسول الله ﷺ مني السلام ، وقل له إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته ، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذر لكم عند الله إن يخلص أحد إلى نبيكم وفيكم عين تطرف ، ثم أخذ يكرر هذا القول كأنه يؤكد عليّ أن أقوم بالتبليغ ، فكان آخر جملة قالها : يا أبيّ ، اقرأ على قومي مني السلام، وقل لهم : الله الله فيما عاهدتم عليه رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، فوالله ما لكم عند الله عذر إن قتل رسول الله ومنكم أحد يعيش ! ثم أسلم الروح .

قال أسيد : لقد كان الموقف مؤثرًا فما استطعت أن أرد عليه ، وها هو ذا طيفه يمثل أمام عيني فما يريم !

ران السكون على الجالسين ، وكأنهم يغرقون في شجون تتلاطم ، حتى قطع الحديث سيد الأوس سعد بن معاذ ، فالتفت إلى صديقه أسيد يقول : يا أسيد ، ذكرت عن سعد بن الربيع ما رأيت ، فدعنى أصف ما شاهدت من أنس بن النضر في ساعة الهول .

فقال خباب : أنس بن النضر ، ومن ينسى أنس بن النضر ؟

فأسرع سعد بن معاذ يقول : أعرف أنس بن النضر منذ يوم بدر ، لقد تخلف عن المعركة ، إذ لم يتح له أن يشارك في بلائها ، فغمره همّ

ملك عليه أقطاره ، كنا مبتهجين بالنصر ، يهنئ بعضنا بعضًا ، وهو معتزل في كسر بيته ، فإذا بارحه وشاهده أحد في الطريق ، جعل يشكو له حرمانه من الجهاد ، ويرفع يديه إلى السماء قائلا : اللهم بدرًا أخرى ، اللهم بدرًا أخرى .

ثم واصل اعتزاله ذويه ، فجعلوا يتساءلون : ما بال أنس لا يتصل بنا كعادته ، ونقلوا حديثه إلى رسول الله وهو يعلم عنه حرارة الإيمان ، وطهارة الضمير ، فاستدعاه سائلا : مالك يا أنس ؟

فصاح أنس في ألم : يا رسول الله ، غبت عن أول قتال لنا مع المشركين ، ولئن أشهدني الله معركة أخرى ليرين الله ما أصنع .

فابتسم رسول الله وقال : أما وقد نويت .

ثم جاءت موقعة أحد ، فانطلق أنس في طليعة المجاهدين ، وفرح فرحًا شديدًا بما شاهد من بشائر النصر ، فزاد استبسالا وحمية، ثم أفزعه أن ينصرف القوم إلى الغنائم ، وتنقلب المعركة إلى غير ما يحب ، فاتجه إلىَّ فزعًا وصاح بي : يا سعد ، يا سيد الأوس : ألست ترى !! ثم صاح في وجهي : يا سعد ، الجنة ورب النضر إني لأجد ريحها من أحد ! ويزداد غضبه حين يرى من يفر من الميدان فيصيح منفعلا : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع قومي .

ثم يلتفت إلى المشركين فيصيح : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع هؤلاء ! ثم يهجم على صفوف المشركين وهم كثرة كاثرة ، فيضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال ، وتتعاوره الضربات المتقابلة من

كل صوب ، فلا يكاد يبقى من جسمه شيء .

ثم تنتهي المعركة ، ويتفقد المسلمون جثث القتلى فلا يجدون أثرًا ما لأنس بن النضر ، فيتساءلون : أنجا من القتل ؟ وكيف ، وقد اقتحم الصفوف وحده ؟ أفرَّ هاربًا ؟ وكيف وقد عاهد الله ورسوله أن يمسح ما ظنه خطيئته حين تخلف يوم بدر ؟ ورأيناه بعيوننا يقتحم الميدان ! ثم جاءت أخته والهة تتفحص القتلى ، فرأت شبحًا ذهبت معالم وجهه ، وتفرق جلده متناثرًا ، وصبغ دمه الأرض ، ولم تبق إلا بنانة تعرفها ، فهي وحدها التي تدل عليه ، فصاحت مذعورة : هذه إصبع أنس ! وإذن فهذا الجسد الممزق جسده ، وهذا الجلد المتناثر جلده ، وهذا الدم الذي صبغ الأرض قد انثال من عروقه ! .. يا لأنس ! لقد عاهد الله ورسوله فصدق ما عاهد عليه ! لقد مثل المشركون بجثته غيظًا فما تركوا بها موضعًا ينبئ عنه! وما عليه ! وقد طارت روحه إلى بارئها ! فكان ممن يستبشرون بنعمة من الله وفضل !

صاح خباب : يا قوم لقد تطرح بنا الحديث ، وبدا علينا الحزن ، وإن النساء لأصبر منا وأجلد ! لقد رأيت بعيني وسمعت !

قال أسيد : وماذا رأيت وسمعت ؟

قال خباب : لقد جاءت السميراء بنت قيس تستطلع الأنباء ، وكان ولداها النعمان وسليم من صرعى الشهداء ، فلم تذهب إلى الجثث المتراكمة ، بل لم تسأل عن ولديها ، ولكنها كانت تتلهف

صائحة : أخبروني ، ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها : هو بخير والحمد لله ، فقالت : أروني وجهه الكريم ، فلما شهدته قالت : الحمد لله ، كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله ، ثم انتقلت إلى المعركة فشاهدت ولديها صريعين ، فقالت : الحمد لله ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ﴾ [الأحزاب : ٢٥] ، وحملت الشهيدين على ناقتها ورجعت إلى المدينة .

قالت عائشة : لقد شاهدتها فحدثتها مواسية ، فقالت : كيف أحزن ، وقد استشهد ولداى ، وبقي رسول الله !!

قال سعد : آن لنا لأن نسكت ، فليس بعد حديث السميراء بنت قيس كلام !

*****

دسائس وحقود

لم تظهر حقود أعداء الدعوة الإسلامية بعد غزوة بدر ، كما ظهرت واضحة سافرة بعد غزوة أحد ، لأن الانتصار غير الانكسار، والناس يصفقون للناجح ظاهرًا وهم يضمرون له البغض باطنًا ، فإذا كبا ذات مرة تكشفت الوجوه على حقيقتها ، كما اتضح الموقف بعد أحد .

كان اليهود بالمدينة يشاطرون المنافقين أحقادهم ، وإن اختلف سبيل الفريقين ، فاليهودي متمسك بدينه يراه سبيله الأوحد ، والمنافق يظهر الإسلام ويبطن الكفر ، ومع اختلاف المنحى فبين الفريقين ائتلاف على الشحناء ، يتقابلون فيتصافحون ، ويبدى كل لصاحبه حقيقة شعوره المناهض للإسلام ، ويتعاهد الجميع على الإيقاع بالمسلمين متى تحين الفرصة ، وقد خيل إليهم أنها حانت بعد غزوة أحد ، فافتضحت سرائر الحاقدين افتضاحًا لا مرية فيه ، وسنلم بحديث المنافقين فيما بعد ممثلا في شخصية رأس النفاق عبد الله بن أبيّ بن سلول ، إذ جمع حوله نفرًا من طرازه الحاقد ، ليكونوا إلبًا على رسول الله ﷺ ، وقد كشف الله نياتهم فباءوا بالخسران .

أما اليهود فما صدقوا المسلمين في يوم ! لقد عاهدهم رسول الله ﷺ حين هاجر إلى المدينة ، فقرر حرية الرأي وحرية العقيدة وحرمة الحياة وحرمة المال ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم،

وأن من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم ، ولكنهم ما فتئوا يدسون الدسائس ويحاولون الوقيعة بين الأوس والخزرج ، ثم جعلوا يثيرون الجدال الديني في قضايا تتعلق بموسى وعيسى والحكم بالتوراة ، ولكن الرسول كان يجادل بالحسنى ، ويدفع بالتي هي أحسن ، آملا في أن تطرد الأحوال بالمدينة على سنن هادئ لا تعتوره القلاقل ، فلما جاءت غزوة بدر ، وأنعم الله على المسلمين بالنصر لم يستطع اليهود إخفاء حقودهم ، وجعلوا يقولون : (لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لو لاقيناك محاربين لتعلمن أننا نحن الناس) .

وقد دعا رسول الله رؤساءهم ، فحذرهم عاقبة البغي ، وذكرهم بما تعاهدوا عليه من قبل ، ولكنهم أظهروا التعالي وجعلوا يهونون من شأن القوة الإسلامية ، ويقولون : إن مشركي مكة حين انهزموا لا يمثلون قوة ذات شوكة ، فشاء الله عز وجل أن ينزل على رسوله: « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين » ، فكانت الآية صريحة في وجوب معالنة اليهود بالعداء ، إذ لابد من عمل حاسم يحول دون شرهم المتربص بالمؤمنين ، فنبذ الرسول إلى بني قينقاع عهدهم ، وأنذرهم بالحرب ، فاعتصموا بحصونهم ، وحاصرهم المسلمون خمسة عشر يومًا فلم يصل إليهم شيء من الشراب والطعام ، وكانوا يظنون أن أبناء دينهم من بني قريظة وبني النضير سيقفون معهم ! بل كانوا يظنون أن حلفاءهم

من الأنصار سيكونون معهم ، ولكن حليفهم (عبادة بن الصامت) تبرأ من شرهم وواجههم بالقطيعة ، أما حليفهم (عبد الله بن أبيّ) فقد عجز عن إنقاذهم بعد أن حاول ترضيه المسلمين فلم يصادف القبول .

وحين امتد الحصار ، وضاق بهم العيش ، سألوا رسول الله أن يخلى سبيلهم ، فيخرجوا من المدينة مع النساء والأولاد ويتركوا المال والسلاح ، فوافق رسول الله ﷺ وأمهلهم ثلاثة أيام ، فتم ارتحالهم إلى (أذرعات) بالشام مكرهين .

أولاً : وكان بنو النضير يقاسمون إخوانهم عداء المسلمين ، ولكنهم كانوا ذوى حذر ، فتدبروا الأمر ، وعلموا أن الرسول في موضع القوة بعد انتصاره في بدر ، وأن محاولة التحرش به وخيمة العاقبة ، ولابد أن تعود على أصحابها بالخذلان ، وقد صدق حدسهم حين رأوا بني قينقاع ينزحون عن المدينة ، وقد تركوا الديار والسلاح والأموال ، ولكنهم استشعروا أسفًا شديدًا لما حاق بهم ، وجعلوا يتحينون الفرصة حتى حانت بعد غزوة أحد ، حين انكسر المسلمون في الميدان ، وعادوا إلى المدينة يحاولون تضميد الجراح ، هنا عقدوا النية على التآمر ، وهم أضعف من أن يقابلوا المسلمين وجهًا لوجه ، فليلجئوا إلى الغدر ، وليعملوا الحيلة في قتل رسول الله ، وقد ظنوا أحلامهم سهلة التحقيق حين قدم إليهم رسول الله يسألهم الإسهام في دية رجلين من بني عامر ، فقالوا :

نرضى ونعين ، وجعل بعضهم يخلو إلى بعض متهامسين ، فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام غدرًا ظاهرًا ؛ وكيدًا يحاك ، وقد ألهمه الله أن يعرف همسهم بالفتك به غيلة ، إذ يسقطون صخرة فوق رأسه ، وقد جلس مستندًا إلى الجدار ، فخرج معجلا ، واستبطأ المسلمون رجوعه فقاموا في طلبه ، فأعلمهم بما أدرك ، وكانوا حلفاء محمد بن مسلمة ، فدعاه الرسول ليعلن إليهم وقوفه على مكيدتهم ، ويأمرهم بالارتحال عن المدينة ، فقالوا له : أنت حليفنا ، فكيف تخذلنا ؟ فقال في حسم : لقد تغيرت القلوب ، ومحا الإسلام العهود ، وجاء عبد الله بن أبيّ ليقول لهم : لا تخرجوا فإن معي ألفين من الرجال يقدرون على حمايتكم ، فانتظروا ما سيصنع ، فلم يفعل شيئًا ، فعرفوا أن الرجل ضعيف ذليل .

وحين تأزم الموقف جاءوا إلى كبيرهم (حيى بن أخطب) فقالوا له : اقبل هذا الذي قاله محمد ، قبل أن تقبل ما هو شر منه ، فقال حيى متعجبًا : وما ذلك الشر ؟ فأجابوا : أخذ الأموال ، وسبى الذرية ، وقتل الرجال ، فأبى واستكبر ، وصمم على أن يقيم ، وكأنه كان ينتظر وعد ابن أبىّ ، ومعونة بني قريظة ، وما درى أنهما منه الآن بمكان سحيق .

ثم زحف إليهم جيش المسلمين ، وحاصرهم ست ليال ، فتحصنوا منه في الحصون ، فأمر بقطع النخيل وإحراقه ، فنادوه : يا محمد ، ما بالك تقطع النخيل ، فنزل قول الله : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن

لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥].

ثم استحكم بهم اليأس، فرأوا أنه لا منجاة إلا بالجلاء، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم، ويكفّ عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من الأموال إلا السلاح، فاستجاب الرسول، وحملوا بيوتهم معهم، فمنهم من توجه إلى خيبر، ومنهم من توجه إلى الشام، وفيهم نزل قول الله عز وجل في سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢، ٤].

ها هم أولاء بنو النضير، أما بنو قريظة فحديثهم عن قريب.

ثانيًا: تحرشت القبائل حول المدينة بالمسلمين، فإن من هذه الجموع من كانوا يحسون الخطر على أنفسهم من قيام قوة متماسكة

بالمدينة ، تقيم العدل وتحمى الأمن ، وتنصر الضعيف ، إذ أن ذلك مما يعوق سطوها الآثم على قوافل التجار ، ونشرها الرعب بين الربوع ، ومن هذه الجموع من حالفت قريشًا على مكيدة رسول الله لقاء جزاء مادي ، وقد جاءتها رسل مكة بالسلاح والمال لتجعل منها أعوانًا ينصرون ، حين تقع الوقائع التالية ، لأن قريشًا لن يهدأ لها بال حتى يفنى المسلمون ، وتعود سيطرتها الروحية على الوافدين إلى الحرم والنازحين منه ، ولكن ماذا تصنع القبائل على تباعد ديارها ، وتفرق أتباعها ، وقد عزّ الاتحاد في ملأ متنافر تقوم حياته على النهب الخادع ، والخطف السريع !

لابد أن يعملوا المكيدة في هزيمة المسلمين ، ما دامت المواجهة متعذرة الآن ، ولابد أن تسمع قريش بما دبروا من كيد ، وما أسالوا من دم ، لتركن إليهم في الأزمات باذلة عن سعة ، واثقة عن برهان، وها هو ذا رهط من قبيلتي عضل والقاره يفدون على رسول الله ﷺ بالمدينة ، يتظاهرون باعتناق الإسلام ، ويطلبون جماعة من المسلمين تقوم بينهم ، لترشدهم إلى مبادئ الدين الجديد ، عبادة وسلوكًا ، فيقرئونهم القرآن ويسمعونهم الحديث ويعلمونهم الشريعة .

وقد استجاب النبي ﷺ إلى ما أرادوا ، فبعث معهم ستة من أصحابه بقيادة مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، فساروا بالقوم من المدينة حتى إذا نزلوا على ماء لهذيل بين مكة وعسفان في ناحية الحجاز ، غدروا بالمسلمين ، واستصرخوا عليهم هذيلا ، فدهش

المسلمون لما رأوا ، وأخذوا يسألون عما جد ، فقال اللؤماء : إنا لا نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نبيعكم لأهل مكة فحسب لنكسب المال ، ولكم العهد والميثاق ألا نمسّ دماءكم ، فقال مرثد بن أبى مرثد : لن يكون لمشرك عهد ، وتبعه رجلان من أصحابه ، وقاتلوا القوم حتى سقطوا شهداء ، ومال الثلاثة الآخرون إلى الحياة ، فأعطوا أيديهم مأسورين ، وخرج بهم القوم إلى مكة ليبيعوهم هناك، وقد استطاع أحدهم أن يفك يده من الأغلال وأن يفرَّ في الصحراء ، فتابعوه رميًا بالحجارة والسهام حتى استشهد .

أما الثاني وهو خبيب بن عدى فقد اشتراه بعض المرزوئين في بدر ليقتلوه ثأرًا لمن فقدوه ، وخرجوا به من الحرم ليقتلوه ، فقال : ذروني أصلِّ ركعتين ، ثم قال : لولا أن يقولوا جزع من الموت لزدت ، فدهش القوم لرجل يطلب الصلاة في آخر لحظاته ، فلما انتهى منها التفت إلى القوم وقال في ثقة : اللهم احصهم عددًا ، اللهم اقتلهم بددًا ، ولا تبق منهم أحدًا ، وعلا صوته ببيتين كان قد أعدهما من قبل وهما :

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك علـــى أوصـــال شلو ممزع

ثم استقبل الموت في رضًا واطمئنان .

وجاء دور الثالث وهو زيد بن الدثنة ، فكان من نصيبه أن

يشتريه صفوان بن أمية بن خلف ، وأراد أن يكون القتل على ملأ من الناس ، فخرج به إلى التنعيم ، وجمع سادة قريش ، وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب ، ليروا ثأر صفوان لأبيه ! ولك أن تعجب لقوم يحسبون أن من اشترى أسيرًا لا يملك لنفسه دفعًا أمام قوة محاصريه فله أن يثأر منه بجرم لم يرتكبه ! ولو كان زيد هو قاتل أمية لكان لهم وجهة نظر في أخذ الثأر منه ، أما وإنه لا يزيد عن فرد من أفراد المسلمين ، فكيف يبلغ شفاء من نفس صفوان ؟ وكيف يعد نفسه مستريحًا لأنه أخذ بالثأر !! مهما يكن من شيء لقد أقدم زيد على الشهادة مستريح الخاطر ، هادئ الضمير ، وقد رأى أبو سفيان رباطة جأشه في آخر لحظاته ، فتقدم يسأله : أتحبّ يا زيد أن يكون محمد الآن مكانك تضرب عنقه ، وأنت آمن في أهلك ؟

فقال زيد دون تردد : والله ما أحب أن محمدًا تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس بين أهلي .

فقلب أبو سفيان كفيه وقال دهشًا : ما رأيت قومًا يحبون قائدهم كما يحب هؤلاء محمدًا .

هذا ما كان من أمر هذيل حين غدرت بضيوفها ، أما ما كان من أمر بنى عامر بن صعصعة فإليك :

لقد قدم أبو براء عامر بن مالك ، وكان بطلا سيدًا يدعى بين قومه بملاعب الأسنة ، على رسول الله ﷺ بالمدينة ، ومعه هدية قد

أعدها ، فقال رسول الله : إنا يا عامر لا نقبل هدية من مشرك ، فاسلم إذا أردت قبول هديتك ، وأخذ يعرض عليه مبادئ الدين الجديد ، فتردد ولم يبد ميلا للإسلام ولا كراهة له ، غير أنه سأل رسول الله فقال : يا محمد ، إن أمرك هذا الذي تدعو إليه حسن جميل ، فلو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد ، تدعوهم إلى أمرك ، فإني لأرجو أن يستجيبوا لك .

فقال رسول الله ﷺ : إني لأخشى عليهم .

قال أبو براء : أنا جار لهم فابعثهم ليدعوا إلى أمرك .

فبعث رسول الله المنذر بن عمرو في أربعين رجلا من الصحابة ، وقد آثر رسول الله أن يكثر عدد المسلمين ليتمكنوا من هداية أهل نجد ، بما يبذلون من جهد ، فهو يعلم أن القوم ذوو تعصب للجاهلية ، وفيهم حفاظ وشكيمة ، ولابد أن يستمعوا طويلا إلى كتاب الله ، وأن يجدوا من كثرة المسلمين من يستطيعون الصبر على جموحهم إذا جمحوا ، ومن يحاولون رياضتهم ، حتى يؤوبوا إلى الحق ، هذا ما عناه رسول الله حين اختار أربعين رجلا من المسلمين ليعهدوا القوم دون أن يقتصر على عدد يسير .

وقد سار القوم حتى نزلوا (بئر معونة) ، فقال بعضهم لبعض : أيكم يقوم بتبليغ رسالة الإسلام إلى أهل هذا الماء ؟ فقال حرام بن ملحان : أنا ، وخرج حتى أتى منتدى القوم وقال : يا أهل بئر

معونة ، إنى رسول محمد إليكم ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، فآمنوا به تسعدوا .

فخرج إليه عامر بن الطفيل ، وكان أحمق ذا طيش وغطرسة ، ومعه رمحه ، فضرب به جنبه حتى خرج من الشق الآخر ! هكذا دون نقاش ! فقال الشهيد في آخر كلماته : الله أكبر ، فزت ورب الكعبة ! واتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه واستعانوا عليهم بنفر من سليم وكأنهم يزحفون لجيش مهاجم ، لا لأربعين من الضيوف الآمنين ، فأحاطوا بهم ، ولما رآهم المسلمون لم يأخذهم الهلع ، بل اخترطوا سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم غير كعب بن زيد، وجاء الخبر إلى المسلمين فحزنوا أبلغ الحزن ، وعرفت ملامح الأسى في وجوههم وشق الأمر على رسول الله فدعا على الغادرين متألمًا .

يقول الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه (حياة محمد) ، ص(٢٩٩) :

(وجد محمد ﷺ لقتلى بئر معونة أشد الوجد ، وحزن من أجلهم أعمق الحزن ، وقال : هذا عمل أبى براء ، لقد كنت لهذا كارهًا متخوفًا ، وشق على أبى براء إخفاء عامر بن الطفيل إياه ، حتى ذهب ابنه ربيعة فطعن عامرًا بالرمح انتقامًا لأبيه ، وبلغ من حزنه عليه السلام أنه ظل شهرًا كاملا يدعو الله بعد أداء فريضة الفجر

لينتقم لهم من قتلتهم ، وتأثر المسلمون جميعًا لهذه الكارثة التي أصابت إخوانهم في الدين ، وإن آمنوا بأنهم جميعًا قد استشهدوا ، وبأنهم جميعًا لهم في الجنة) .

ثالثًا : لم تكن قريش بمعزل عما يصيب المسلمين من هذه الكوارث ، ويرى بعض الكاتبين أنها من وراء مأساة بئر معونة ، إذ راسلت عامر بن الطفيل وأغرته ، على أنها قد هلعت لما نزل باليهود، إذ كانوا بعد هجرة الرسول إلى المدينة من أخلص أنصارها، وكان التزاور متصلا بين الجانين ، أو لم يقدم كعب بن الأشرف اليهودي على مكة بعد بدر مواسيًا ومشجعًا على الثأر ، أو لم يتصل حيى بن أخطب بأبى سفيان وصفوان بن أمية مشجعًا ، وكأن المشركين قد صاروا إخوانهم ، فهم موضع التناصر والموالاة؟

ثم إن المسلمين قد غنموا أرض اليهود وديارهم بالمدينة ، فأصبحوا ملاكًا حقيقيين ، بعد أن كانوا أضيافًا ينزلون على الرحب والسعة لدى الأنصار ، وفي هذا من التمكن الأدبي والمادي ما يزعج أعداءهم بمكة ، وينغص كثيرًا من نفوسهم ، بل إن ما استشعروه من البهجة بعد أحد قد أخذ أثره يزول شيئًا فشيئًا حين واتتهم الأنباء بتجلد المسلمين وباستعادة ما فقدوه بعد أحد من بواعث الراحة والاطمئنان ؛ إن أبا سفيان بن حرب قد توعد المسلمين ، في ختام المعركة ، بالعودة في العام القادم ، إذ وقف في

الملأ يقول : يوم بيوم بدر ، والموعد العام المقبل ، ولابد له أن ينفذ وعده ليبدو في صورة المنتصر الذي يملك إعلان الحرب أو إمهالها، ولئن تناسى وعده لتكونن دلالة هذا التناسي واضحة مفهومة ، فإن معنى ذلك أن قريشًا تخشى اللقاء ، وأنها ما كادت تصدق أنها انتصرت في أحد ، حتى أدركتها الوساوس الجازعة حذرًا من يوم مقبل يذكرهم بمأساتهم في بدر !

هذا ما أدركه أبو سفيان تمام الإدراك ، وهذا ما دفع به إلى أن يرسل نعيم بن مسعود إلى المدينة ليعلن للمسلمين أن قريشًا قد جمعت جيشًا لا قبل للمسلمين به لتستأصلهم استئصالا يمحو أثرهم من الحياة ، وكان يظن أنه بذلك سيلقي الرعب في قلوبهم ، ويجعلهم يحذرون مقدمه ، فينكمشون بين لابتي المدينة دون امتداد! وكان العام عام جدب لم تثمر فيه الأرض شيئًا ذا بال ، فظن أبو سفيان في ذلك ما يزيد من هول إنذاره ، وكأنه اكتفى برسالة نعيم عن القيام بعمل تنفيذي ينجز به ما وعد يوم أحد ، معتقدًا أنه قد أوهن النفوس وفتّ في الأعضاء .

ولكن رسول الله ﷺ قد أخذ للأمر أهبته ، فأمر المسلمين أن يتأهبوا للقاء المشركين في الموعد الذي ضربه أبو سفيان ، وخرج إلى بدر بعد أن استعمل عبد الله بن عبد الله بن أبى واليًا عليها ، وفوجئت قريش بالنبأ ، فأحدث لديها من البلبلة والفزع ما لم تكن

تتوقع ، وتشاور المشركون ما عسى أن يصنعوا بعد أن تهيأ المسلمون للقتال تنفيذًا لموعد أبرم !

ثم خرجت قريش متخاذلة في جيش عدته ألفا رجل ، خرجوا مترددين ، ليسوا على قلب رجل واحد ، ففريق منهم يقول : لابد من اللقاء كيلا يظن بنا العرب جبنًا عن النضال ، ولتبقى مكانتنا التي اكتسبت بعد أحد مكينة لا تتزعزع ، وفريق آخر يرى أن العام عام جدب وقحط ، وأن ما لدي قريش من الذخائر المادية والحوافز المعنوية لا يضمن الانتصار ، ولئن يرجع الناس دون قتال أهون أثرًا من أن يصطدموا بالمسلمين ، ثم تدور عليهم دائرة رهيبة تعيد عليهم حسرة بدر ! وقد تملكت قادتهم حيرة بائسة في الطريق، فكانوا لا يسيرون بعض الأمد حتى تشغلهم الهواجس فيؤثروا النكول ، وكان أبو سفيان ممن عصفت بنفسه الزعازع ، فلم يكن القائد الواثق الذي يطرح من نفوس أتباعه كل شك ، بل كان المتحير التائه الذي لا يدرى ما عسى أن يصنع ، ثم أدركه القلق الجازع ، فأراد أن يستريح منه ، وجمع الناس خطيبًا فقال : يا معشر قريش ، تعلمون أن العام عام جدب ، وأن النفوس قلقة غير مستريحة ، وإني راجع فارجعوا ، ثم ثنى لجام دابته ومشى القهقرى، فتبعه الناس وكأنهم تخلصوا من شر وبئ .

أقام المسلمون ببدر ثمانية أيام ينتظرون الذين تحدث عنهم نعيم ابن مسعود بما يبعث القلق والفزع ، فجاءته الأنباء أن قريشًا قد

نكصت على عقيبها ، وأن الله قد أراح أولياءه من أعدائهم ، فأحدثت في النفوس استبشارًا وارتياحًا ، ونزل قول الله عز وجل منبئًا عن هذا الشعور الطيب : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٣، ١٧٥] .

على أن قبائل غطفان في نجد لم تكن ذات إلمام بتخاذل المشركين عن القتال ، فأخذت تجمع جموعها لمنازلة المسلمين ، وعرف الرسول ﷺ حقيقة ما يدبر ، فبادرهم باللقاء وخرج في أربعمائة من رجاله حتى نزل (ذات الرقاع) ، فشاهدت غطفان مقدمة الجيش ، فظنت أن العدد هائل ، وأن هزيمتهم محققة ، وكان بنو محارب وبنو ثعلبة من كبار المتحمسين للقتال ، ولكن الرعب قد استولى عليهم حين عرفوا مقدم المسلمين ، فتفرقوا عن مساكنهم مذعورين ، تاركين نساءهم ومتاعهم ، وأقام الرسول منتظرًا من يقاتله من هؤلاء المتربصين ، فما وجد غير الفراغ ، فرجع إلى المدينة شاكرًا ربه.

وكذلك صنع مع من كانوا يغيرون على القوافل ، فوجه

الرسولﷺ جيشه إلى (دومة الجندل) وهي واحة على الحدود بين الحجاز والشام ، كانت متجمعًا لعصابات إرهابية تتحرش بالمسالمين ، فما كادت تسمع به حتى أدركها الهلع ! وفي هذا العمل الحاسم ما يدل على أن جيش المسلمين أصبح ذا نفوذ قوى يرهب به الأقرباء والبعداء معًا من ذوى العداء للإسلام !

ولا شك أن قريشًا قد سمعت بمسيرة المسلمين إلى ذات الرقاع ثم إلى دومة الجندل ، فأدركت أن الخصم عنيد وأنها لا طاقة لها به إذا اتجهت وحدها لنضاله فلابد أن تحشد من ورائها كافة القبائل في شبه جزيرة العرب ، ولا تدرى أسيطول انتظارها حتى تستطيع أن تجمع الحشود ، أم أن الموعد قريب .

*****

غزوة الأحزاب

أ ـ أحداث المعركة

كانت أنباء بدر الآخرة مما تردد في القبائل العربية ، ومما كان مبعث ألم لليهود ، حيث كانوا يعقدون آمالا كبيرة على إنكسار المسلمين أمام قريش ، وقد توهم بنو النضير أن جلاءهم عن المدينة لن يطول ، وأن هزيمة المسلمين المنتظرة ستتيح لهم أن يكروا راجعين ، فلما أبطأت قريش عن المسير إلى غزو المدينة رأى زعماء اليهود أن يقوموا بدور الإثارة المشجعة ، فنشط حيىّ بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وكنانة بن أبى الحقيق إلى الذهاب إلى مكة كي يدفعوا المشركين إلى حرب المسلمين ، وقالوا إن بني النضير يستعدون للذهاب معكم إلى المدينة ، وأن علينا أن نجمع القبائل المعادية لمحمد وأصحابه ، كي يكون الجيش كبيرًا يسحق المسلمين سحقًا لا قيامة بعد لهم ، وأن كل تأخر عن هذا القصد مما يؤكد رسوخ المسلمين في بلد لم يكونوا من أهله .

وقد ترددت قريش في أن تستجيب ، وحسبت للمعركة ألف حساب ، ولكن تعهد اليهود بجمع القبائل المعادية ، وبتأليب بني قريظة داخل المدينة على المسلمين ، جعلهم أمام فرصة يجب أن تغتنم ، فماذا يستطيع المسلمون أن يصنعوه حين يجتمع اليهود وقريش وقيس عيلان وبنو مرة وبنو فزارة وأشجع وسليم وسعد

وأسد وجميع من ينتمي إلى غطفان ، وعددهم يجاوز عشرة آلاف مقاتل ؟!! لقد هزم المسلمون يوم أحد أمام قريش وحدها ! فماذا عسى يصنعون حين يدهمهم هذا الحشد الكثيف من الخارج ، وحين ينقض عليهم اليهود من قريظة من الداخل فيقعون بين المطرقة والسندان ؟

وقد تعجب المشركون من استبسال اليهود في الدعوة إلى قتال المسلمين ، وأخذوا يسألونهم عن حقيقة دين محمد ، وعن دعوته إلى التوحيد ومحاربة الوثنية ، فقال قائل المشركين لمن ذهبوا إلى مكة كي يؤلبوا قريشًا على الإسلام : يا معشر اليهود ، إنكم أهل الكتاب وأهل العلم والمعرفة ، فما رأيكم فيما يدعو إليه نبي المسلمين من التوحيد ؟ وما نحن عليه من عبادة الأوثان ؟

وأمام الغرض الأعمى اندفع اليهود - وهم أهل توحيد - إلى تأييد عبادة الأصنام وتسفيه عبادة الإله الواحد !! وقال قائلهم : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه ، والذين يدافعون عن اليهود في هذه الإجابة يقولون إنهم كانوا دهاة حين عقدوا الموازنة بين الشرك والإسلام فحسب ، ولم يمتدوا بها إلى الموازنة بين الإسلام من ناحية ، واليهودية من ناحية ثانية ، وهذا رد مغالط ، لأن الإسلام كما يعلم اليهود دين توحيد ، ومحاولة تأييد الشرك وإعلائه عليه هدم صريح لما أقرته اليهودية من التوحيد ، وآمنت به ، وهذا ما عناه القرآن حين رد على هذا الموقف المنكر ، فقال الله

عز وجل في كتابه الكريم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥١ ، ٥٢] .

وما كادت قريش تستجيب لهذا الاحتشاد الشامل ، حتى نشط اليهود إلى لقاء مشايخ غطفان ، فدعوهم إلى حرب المسلمين ، وأخبروهم بما أعدت قريش من حشود المقاتلة ، وما زالوا بهم يوعدون ويمنون ، حتى استجابوا لهم ، وخرجت قريش تحت رياسة أبى سفيان ، وخرجت غطفان تحت قيادة الحارث بن عوف ، وعيينة بن حصن ، ومسعر بن رخيلة ، وتجمع يهود بني النضير ومن والاهم من يهود بني قينقاع حتى بلغوا عشرة آلاف مقاتل ، وجاء الأمر إلى رسول الله ، فكان كعادته ثابت الجأش ، قوي العزم، فجمع أصحابه للتشاور ، وقد استقر الرأى على البقاء في المدينة ، وعدم مبارحتها ، إذ ماذا يستطيعون أن يفعلوه إذا بارحوا المدينة إلى فضاء شاسع أمام هذا الطوفان الزاحف ؟

وقد ألهم الله سلمان الفارسي أن يشير على المسلمين بضرورة حفر خندق حول المدينة ليكون حائلا أمام هجوم الأعداء ، ولم يكن الأمر سهلا في ذاته ، لأنه يستدعي من التعاون والجهد والعمل العضلي المتصل ما يستنفذ الجهد الكبير ، ورأى الرسول أن مشورة

سلمان جديرة بالتنفيذ ، لأن المدينة محصنة بآطامها وآكامها إلا من ناحية واحدة ، فإذا قام الخندق فاصلا ، فإن المهاجمين سيتوقفون ، وبدأ العمل المتصل الكادح ، حيث فرغ المسلمون جميعًا لإتمامه ، وفي مقدمتهم رسول الله وأبو بكر وعمر ، وكان الصحابة يرتجزون بأبيات قالها عبد الله بن رواحة ليسهلوا مهمة التنفيذ في سرعة لا تعرف الإبطاء ، وحين يسيل العرق من وجوههم ويميلون إلى الراحة ينظرون فيجدون رسول الله يحمل التراب بنفسه فلا يجدون مفرًا من العمل المتصل الكادح حتى شمل الخندق شمال المدينة وهو الناحية المكشوفة للمهاجمين .

وقد اعترضتهم صخرة عاتية في الأرض ضعفوا عن تفتيتها ، فقال رسول الله : دعوني أضربها ، وقال بسم الله ، وضربها فأضاءت بشرار كثيف تطاير منها ، فقال رسول الله : الله أكبر ، هذه قصور الشام ورب الكعبة ، ثم كرر الضربة فتطاير الشرار ، فقال رسول الله : هذه قصور فارس ورب الكعبة ، وكان في السامعين نفر من المنافقين ، فأخذوا يتعجبون ، وحين خلا بعضهم إلى بعض أخذوا يقولون في تهكم : إن محمدًا يعد أصحابه بلاد قيصر في الشام، وبلاد كسرى في فارس ، وهو محاصر بالمدينة ، ونحن معه لا نكاد نأمن على نفوسنا ! وقد شاء الله أن يعيش أكثرهم حتى يرى صدق الوعد ، ولكن البصائر المدخولة والقلوب العليلة لا يستطيع أصحابها أن يكتموا أحقاد النفوس .

كان الموقف رهيبًا مخيفًا ، وكان أكبر خوف المسلمين أن يتعاون يهود بني قريظة مع المهاجمين ، فتضيع جدوى الخندق ، لأنهم بذلك يسهلون للأعداء أن يقتحموا المدينة من ناحيتهم ، وكان في بني قريظة حذر يدفعهم إلى النكوص ، ورعاية المعاهدة القائمة بينهم وبين المسلمين ، بأن يكونوا معهم إذا هوجمت المدينة فلا يعاونوا أعداءهم ، وقد رأوا بعيونهم ما وقع لبني قينقاع وبني النضير ، حين خانوا الله ورسوله وقاموا بما أوجب جلاءهم عن المدينة ! ولكن حيىّ بن أخطب لم ييأس من استمالتهم ، وإذا كان قد قدر على استمالة غطفان ووعدها أن يعطيها ثلث ثمار خيبر ، وهم بعد لا يشاركونه عقيدته ، أفييأس من استمالة اليهود ، وهم معه في معتقد واحد ، وعواطفهم الدفينة نحو محمد تتحد مع عواطفهم دون اختلاف ؟!

لقد ذهب حيىّ بن أخطب آملا ، حتى أتي كعب بن أسيد سيد بني قريظة ، فلما سمع به كعب أغلق الباب دونه مستعيذًا من شره ، إذ يعرف أنه هو الذي جنى على قومه ، حين دفعهم إلى مناوءة محمد، فتم جلاؤهم مقهورين ، ولكن ابن أخطب أخذ ينادى بأعلى صوته : يا كعب ، افتح لي حصنك ، فصاح به كعب : ويحك يا حيى، إنك رجل مشئوم ، وإني قد عاهدت محمدًا فلست بناقض ما بينى وبينه ، ولم أجد من المسلمين غير الوفاء ، فعاد حيى يقول : لقد جئتك يا كعب ، بفخر الدهر ، جئتك بقادة قريش ؛ وبسادتها

وأهلها جميعًا ، وجئتك بغطفان ، وما ضمت من البطون والأفخاذ، وقد عاهدوني جميعًا على ألا يبرحوا المدينة حتى يستأصلوا المسلمين، فعاد كعب يقول : أمل ضائع ، فدعني يا حيى ، فأنا قد عاهدت محمدًا ولن أخلف عهدي فصاح حيى : لئن رجعت قريش وغطفان فسأنضم إليك مع قومي ولن نتركك ، ومعك حلفاؤك وحلفائي ، وانهال اليهود على كعب يزينون له الاستجابة إلى صاحبه ، حتى استطاع حيى بن أخطب أن يدفع بني قريظة إلى نقض العهد والانضمام إلى المهاجمين !

علم رسول الله بما كان من أمر حيى مع بني قريظة ، وأراد أن يستوثق حذرًا فبعث زعيمي الأوس والخزرج (سعد بن معاذ وسعد بن عبادة) مع عبد الله ابن رواحة وخوات بن جبير ، ليتحسسوا الأمر فيعرفوا حقيقة القوم عن يقين ، وقال لهم في كياسة : إذا عرفتم غدرهم ، فلا تظهروا القول على الملأ كيلا يفزع الناس ، ولكن ألحنوا إليّ لحنا أعرف به حقيقة ما كان ، فانطلق القوم إلى اليهود فوجدوهم يسبون المسلمين ، ويقولون : من رسول الله هذا؟ لا عهد بيننا وبينه ، فتحمس سعد بن عبادة لشتمهم كما شتموا المسلمين ، فقال له ابن معاذ : دعهم فالأمر بيننا قد زاد عن المشاتمة، وجاءوا إلى رسول الله مع الملأ من قومه ، فكنوا ولم يصرحوا ، فكظم الرسول غيظه ، واستعد للموقف .

ولم يلبث غدر بني قريظة أن شاع وامتد حتى علمه المسلمون جميعًا ، فكانت فرصة مهيأة لأن تتضح السرائر المدخولة لدى المنافقين ، فجعلوا يتهكمون بالإسلام ، ويقول قائلهم : كان محمد يوم الخندق يعدنا كنوز كسرى وقيصر وهو لا يأمن على نفسه اليوم، وأخذوا يتلمسون الأعذار للانسحاب من مواجهة المشركين خلف الخندق ، فجعلوا يقولون إن بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، إن يريدون إلا فرارًا ، وكان الموقف في غاية الخطورة ، لأن المدينة بعد غدر بني قريظة لم تعد بالقلعة الحصينة ، ولابد من قهر الجموع الزاحفة بحيلة توهن العزائم المجتمعة ، وتقل من قوة الطوفان المتدفع .

لقد كان الخندق عملا رائعًا حقًا دهش له المشركون ، حين حال دونهم ودون اقتحام المدينة ، فقد ظنوا أن الطريق ممهد للوثوب ، وهاهم أولاء يقضون بضعًا وعشرين ليلة دونه ولا همّ لهم إلا التراشق بالنبال وإحكام الحصار ! كانوا يظنون أن المسألة مسألة يوم وليلة ، ولكن البلاء قد طال ، فتململ القوم ، وأراد رسول الله أن يخذل عنه ، فبعث إلى رؤساء غطفان يدعوهم إلى الانسحاب على أن يعطى لهم ثلث ثمار المدينة ! هو يعلم أن القوم أصحاب انتهاز وكسب لا أرباب عقيدة ومبدأ ، وقد استمالهم حيىّ بن أخطب حين عرض عليهم ثلث ثمار خيبر ، فإذا عرفوا أنهم سيغنمون ثلث ثمار المدينة ، فهم في هذه الحالة لن يخسروا شيئًا ، بل

إنهم سيأمنون على أنفسهم أن يموت الكثير منهم في ساحة الحرب ، إذا ابتدت المعركة وواجهوا المسلمين وجهًا لوجه ! وأي منهم يستطيع أن يضمن لنفسه البقاء ؟ والنبال تترامي من الأعلى ، والرماح مشرعة ، والسيوف مجردة .

هذا ما نواه الرسول وبعث به إلى القوم ، ولكن سعد بن معاذ رأى أن يبدى رأيه فيما أراده محمد ﷺ ، فتقدم يسأله في أدب : أهذا شيء أمرك به الله ! أم أمر تصنعه لنا ؟ فقال الرسول صادقًا : هو أمر أصنعه لكم ، لأني رأيت العرب قد رمتكم جميعًا عن قوس واحدة فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم ، فقال سعد : يا رسول الله ، لقد كنا وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وكانوا لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة واحدة ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك ننزل إليهم ونعطيهم أموالنا ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله : لك ما شئت ، ورجع عما اعتزم ! .

تشوق المشركون للقتال ، وعز عليهم أن يكتفوا بالنبال دون الالتحام ، وأخذوا يلتمسون مكانًا ضيقًا من الخندق ليقتحموه ، فاستطاع عمر بن ودّ مع جماعة من قومه أن يقفز بفرسه إلى معسكر المسلمين وجعل ينادى : من يبارز ؟ فتلكأ المسلمون رهبة منه ، إذ كان بطلا معلمًا جرت أحاديث شجاعته مجرى المثل في قبائل العرب، وقد تخلف من المعركة يوم بدر ، فأخذت قريش تعيره

وتقول : ماذا انتفعنا بك ؟ وأنت ترمى بنفسك لتقاتل مع القبائل النائية دون أن تكون ساعدًا لقومك ، وتهالكت النساء على ذمه ، فهن يعيرنه أن ترك أعباء قريش ، وجعل نفسه فرسًا يركبه سواه ! لقد كان التشبيه مؤلمًا لنفسه ! وممن ! من نساء الحي اللائي لا يملك لهن دفعًا أو منازلة ، فأراد أن يثبت مكانته في مكة وأن يقود معركة النصر إلى حيث تدوى الألسنة بذكره دويًا يغفر له ما تقاعس عنه في يومي بدر وأحد ! وقد اقتحم الخندق لينازل الأبطال فيصرعهم عن اليمين والشمال ، ودعا للنزال فأحدث قلقًا وحيرة ، ولكن عليّ ابن أبى طالب رضي الله عنه كان فارس الموقف ، فاخترط سيفه وهمَّ بمنازلته ، فقال له الرسول ﷺ : إنه عمرو بن ودّ يا عليّ ، فقال: وأنا عليّ يا رسول الله :

إذا ما همّ أقعده أخـوه وزاد إلى اللقاء جوى فقاما

ورأى عمرو بن ودّ شابًا فتيًا يعمد إلى منازلته ، فقال له : تنح أنت، فما أريد أن أقتلك ، فقال له عليّ : ولكنى أحبّ أن أقتلك ، فحمى عمرو ، ونزل عن فرسه وعقره ، ثم أقبل على عليّ مصاولا ، فأحكم عليّ الضربة إليه ، فجاءته قاتلة ، وهوى يتخبط في دمه ! وذعر المشركون ففرُّوا .

وفي هذه الظلمة الدامسة انبثق نور صغير يؤذن بأمل مشرق ، إذ جاء نعيم بن مسعود إلى رسول الله ﷺ وقال له : لقد أسلمت يا رسول الله دون أن يعلم أحد شيئًا عن إسلامي ، وأريد أن أنفع

المسلمين بما أقوم به من احتيال ، فقال له الرسول : أنت فرد واحد! وإذا استطعت أن تخذل عنا فافعل .

فقام من فوره إلى بني قريظة وقال لسيدهم ومن معه : تعلمون أني صديقكم وصاحب مشورتكم ، وقد أوقعتم أنفسكم في ورطة كارثة حين خنتم عهد محمد ، إذ لا آمن عليكم أن يسأم القوم الانتظار أمام الخندق بعد أن عز عليهم اقتحامه ، وقد تجرأ عمرو ابن ودّ فلاقى أسوأ المصير ، فماذا تصنعون إذا انسحب القوم خيفة من برد الشتاء وهبوب الريح وتركوكم للمسلمين وجهًا لوجه ؟ قالوا : وبماذا تشير ؟ قال : أرى أن تحتاطوا لنفوسكم فتطلبوا من قريش رهائن من وجوههم يكونون لديكم في حصونكم فلا يستطيعون أن يبرحوا دون أن يحموهم ويحموكم معهم ! فقالوا : أشرت بالرأى .

ثم توجه من فوره إلى قريش فقابل أبا سفيان وقال له ومن معه : قد عرفتم صداقتي لكم وفراقي لمحمد وبغضي إياه ، وقد بلغني أمر خطير ، رأيت أن أحمل سره إليكم نصيحة وإشفاقًا ، فاكتموا عنى ، قالوا : نفعل ، قال : علمت أن يهود بني قريظة قد ندموا ندمًا شديدًا على ما أبدوه من شقاق محمد ، وقد أرسلوا يقولون له : إنا ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم نعطيك إياهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك

عليهم حتى ينهزموا راجعين ، فأرسل إليهم موافقًا ، فإن جاءوا إليكم يطلبون الرهائن فلا تدفعوا إليهم فردًا واحدًا .

ثم جاء إلى غطفان وقال : يا معشر القوم ، أنتم أصلى وعشيرتي وأحب الناس إلى ، وما أظنكم تتهموني ، قالوا : صدقت ، قال : فاكتموا عني ، وحكى لهم مثل ما حكى لقريش ، فارتاعوا ، وأخذوا يتصلون بقريش مستفسرين ، فأسرع أبو سفيان بمراسلة بنى قريظة يقول : لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر فأسرعوا معنا إلى حومة القتال كي نفرغ من أمر محمد ، قالوا : على أن تعطونا رهائن من رجالكم تكون تحت أيدينا ، فإننا نخشى إذا طحنتكم الحرب أن تضيقوا بها ، وتنصرفوا عنا إلى بلادكم ، ويخلوا المسلمون لنا ، ومحمد في بلدنا ولا طاقة لنا وحدنا بمنازلته .

ومضت الرسل بذلك إلى قريش وغطفان ، فتأكدوا من صواب ما نطق به نعيم بن مسعود ، وردوا عليهم قائلين : والله لا ندفع لكم رجلا واحدًا من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا ، فقالت بنو قريظة : إن ما ذكر نعيم بن مسعود لحق ، ما يريد القوم إلا أن نقاتل عنهم ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن دارت الدائرة عليهم رجعوا إلى بلادهم وتركونا !

هنا تفرق الرأي ، وبات المشركون من قريش وغطفان على قلق : لقد كانوا يظنون بني قريظة سيخلون لهم الطريق إلى اقتحام المدينة ، وها هم أولاء قد عاونوا محمدًا من جديد ! إن الحرب ستطول في

غير جدوى ، والزمن زمن شتاء قارص مهلك ، ولهم في كل يوم ضحايا أهلكها البرد ، ولم تستطع الخيام أن تدفع من غائلته شيئًا ، وشاء الله أن تهب الريح شديدة عاتية مكتسحة ، فجعلت تكفأ القدور ، وتخلع الخيام ! وجعل القوم يلتمسون الملجأ للدفء فلا يجدون !

فضاق المشركون ، وصاح أبو سفيان : يا معشر قريش ، لستم والله بدار مقام ، لقد هلكت الإبل والخيل ، وأخلفنا بنو قريظة ما وعدوا من تهيئة الطريق للاقتحام ، وبلغنا عنهم ما نكره ، ولقينا من شدة الريح والمطر ما ترون ، حيث لا تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا تستمسك خيمة ، ولابد أن نرحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول ففك عقاله وانطلق ، فنهض من خلفه القوم ، وكأنهم رأوا فرجًا من ضيق ، ورأت غطفان انسحاب قريش ، فنظرت الوجوه إلى الوجوه وتساءلت عن جدوى الانتظار ، فلم تجد نفعًا فيه ، فآثروا الانسحاب خائبين .

لقد أنقذ الله المسلمين بمنه وفضله ، ونزل قول الله مؤكدًا نعمته الجزيلة على أوليائه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ

بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب : ٩ ، ١٠] .

ولم يكن بد من الذهاب إلى بني قريظة ليلقوا عاقبة غدرهم ، إذ لولا مكيدة نعيم بن مسعود لفتحوا أبواب المدينة للمشركين فتحيق الكارثة ، وقد قال ﷺ لأصحابه : من كان منكم سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة وتقدم عليّ بن أبي طالب فحمل راية المسلمين ، وصار من خلفه الناس ولحقهم رسول الله ﷺ ، فنزلوا على بئر لهم ، وأخذوا في حصارهم خمسًا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، فلما أيقنوا بالهلاك لجأوا إلى التسليم ، وقد حكم فيهم حليفهم سعد بن معاذ حكمًا ينتهي باستئصال الرجال وسبى الذراري ، والنساء ، وكان معهم حيى بن أخطب ، فجيء به ، وقد جمعت يداه إلى حبل في عنقه ، وكان وقحًا شرسًا ، فبدأ رسول الله ﷺ بالمواجهة الحاقدة ، وقال له في غل أسود : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، فقد بذلت قصارى ما أستطيع في إهلاكك ومن معك ، ولكنه من يخذل الله يخذل ، وهو قول صادق يكشف عن أبعد ما يترامى به الحقد متغلغلا في أخفى مسارب النفس ، وقد عبر عنه جبل بن جوال التغلبي حين قال :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يخذل

لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها وقلقل يبغي العز كل مقلقل

وسنتبع هذا الباب بتحليل كاشف لموقف سعد بن معاذ حين

حكم بالاستئصال على بني قريظة ، جاعلين من سيرته الطاهرة مثلا عاليًا للمحارب الصادق ، والمؤمن المثالي النزيه رضي الله عنه .

ب ـ من عبر المعركة ونتائجها

١ ـ محت هذه المعركة كل أثر لهزيمة أحد ، وأعادت للمسلمين هيبتهم الشديدة في نفوس العرب كافة ، وأكدت كل التأكيد أن نجم الإسلام في صعود ، وأن لا سبيل إلى مقاومته ، لأن جموع القبائل التي زاد عددها عن عشرة آلاف مقاتل قد فرت هاربة تتلمس النجاة ! وكان لهذا الاعتقاد أثره ، حيث انهالت القبائل المجاورة تتلمس الود ، وتسأل الرسول أن يمن عليها بالعفو عما سلف من هنات .

٢ ـ هيأت السبيل إلى القيام ببعض السرايا الناجحة ، فغنم المسلمون كثيرًا من خير الله ، ولم تكن الغنيمة مأربًا مقصودًا لذاته ، ولكنها كانت دليل انتصار تؤكده الأيام ، وتعلنه الوقائع والأحداث .

٣ ـ كان هبوب الريح الشديدة واقتلاعها للخيام ذات الأوتاد الثابتة ونزول المطر على هيئة لم تعهد من قبل بالمدينة ، مما أوحى للنفوس الشاكة أن الأمر أمر الله ، وأن محمدًا رسول صادق يبلغ عن ربه ، وأن لا فائدة في مقاومته وعلى كل من لا تطاوعه نفسه أن ينقاد إليه أن يخلى له وجه الطريق فلا يعترض .

٤ ـ أثبتت معركة الخندق أن الإسلام أصيل في نفوس معتنقيه ، حيث لم يعتنقوه عن شك متردد ولكن عن يقين جازم ، لأن ثبات المسلمين في ساعة الهول أمام حشود متراصة على بضع خطوات ، مما يؤكد أنهم يعتقدون أن قوة خفية تؤيدهم ، وأن الله يقف معهم في كل نازلة .

٥ ـ يقول الكاتب الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي من مقال تحليلي عن معركة الخندق بمجلة الأزهر (محرم سنة ١٣٦٠) ببعض التصرف :

(إن ثبات المسلمين ـ وهم من بيئات شتى ـ يدل على مبلغ الرباط الاجتماعي الذي يضمهم ، إذ أن المسلمين من أهل يثرب كانوا من الأوس والخزرج ، وقد عاشوا في تناحر متنابذ ، ولم يتوقع أهل يثرب ولا أحد ممن شاهد حروبهم الدامية أن يصبحوا في يوم من الأيام هدفًا لمجموعة كبيرة من قبائل العرب يقومون بمناهضتها ، وإن ثباتهم في تلك النازلة يدل على قوة ما أحدثه الإسلام من تلاحم بين الإخوة المسلمين) .

٦ ـ كان للمشورة الحسنة أثرها الطيب في فشل الأعداء ، لأن سرعة الأخذ برأي (سلمان الفارسي) يوضح فائدة المشورة ، ويدل على أن العقلاء يقدرون الرأي الناجح أيًا كان مصدره ، ومهما كلفهم من العناء ، الذي يصبح يسيرًا هينًا إذا قيس بما سيحققه من

انتصار ، وقد ظل حفر الخندق مثلا يحتذي في كثير من الوقائع ، قبل أن تتغير ظروف القتال ، ويكشف العلم عن طائراته وقذائفه التي تترامي عبر الأميال .

*****

البطل الشهيد سعد بن معاذ

ليس من الغريب أن يندفع غلاة المستشرقين في تجريح سيد الأوس (سعد بن معاذ) حين أصدر حكمه العادل باستئصال بني قريظة ، إذ خانوا الله ورسوله وتآمروا بالمسلمين ، فحالفوا قريشًا على حرب محمد ، ناقضين عهودهم الوثيقة ، ومعلنين دفائن أحقادهم الغائرة ! ثم صدق الله وعده فرد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا ، وحان أوان القصاص ، فارتضوا سعد بن معاذ حكمًا ، فجزاهم الله بما اقترفوا من العقوق والعذر أعدل الجزاء !

ليس من الغريب أن يندفع غلاة المستشرقين في ذلك عن غرض جائر وهوى مريض ، إنما الغريب حقًا أن يستمع إليهم بعض عقلائنا المسلمين من كبار رجال القانون ، فيروا في حكم سعد مغالاة كبيرة ، ولكنهم يحاولون تهوينها في نظرهم بعض الشيء حين يقولون : إن زمان سعد غير زماننا ، وما يعد الآن مغالاة خطيرة في القرن العشرين لم يكن ليوصف بذلك في القرن السادس الميلادي حين صدر هذا الحكم ، فلكل عصر قوانينه وملابساته !! ولا أدري كيف يقولون ذلك وقد درسوا القوانين المعاصرة دراسة نافذة ، وكان في مقدرتهم أن يطبقوها على قضية بني قريظة ليروا أن قوانين القرن العشرين لا تختلف في شيء عما أصدره سعد بن معاذ، ولكن أقوال ذوى الغرض من المستشرقين قد خدعت رجالنا عن

عقولهم ، فنسوا ما يحفظون ، وتجاهلوا ما يعلمون ! وسنضطر هنا إلى مخاطبتهم بلغتهم القانونية فنقول :

لقد كان بين الرسول ﷺ وبين يهود بني قريظة معاهدة تحفظ حقوق الفريقين ، وتقضى على كل فريق أن ينصر الآخر إذا واجه خطرًا في حرب ، ولكنهم تآمروا عليه ، فانضموا إلى أعدائه ، وأوقعوه بين شقى الرحى في المدينة ، مصطليًا بنيران أعدائه المشركين من جهة واعتداء حلفائه اليهود في ساعة العسرة من جهة ثانية ، فاقترفوا بذلك الغدر الشنع ثلاث جرائم :

١ ـ رفع السلاح ضد سلطان المدينة مع الأجنبي المعتدي .

٢ ـ دس الدسائس لدى العدو ضد المسلمين .

٣ ـ تسهيل دخول العدو للبلاد .

وقانون العقوبات المصري ، وهو أقرب قانون يعرفه من يؤاخذون سعدًا من رجالنا القانونيين ، يجعل الإعدام عقوبة كل جريمة من الجرائم الثلاث ، وينص على ذلك في المواد ٧٧، ٧٨ ، ٧٩ عقوبات ! وهذه هي نصوصه على الترتيب :

مادة (٧٧) يعاقب بالإعدام كل مصري رفع السلاح على مصري أو التحق على وجه بعمل في القوات المسلحة لدولة تحارب مصر .

مادة (٧٨) كل من ألقى الدسائس إلى دولة أجنبية أو إلى أحد مأموريها أو إلى أي شخص يعمل لمصلحتها أو تخابر معها أو معه

بقصد استعدائها على مصر أو تمكينها من العدوان عليها ، يعاقب بالإعدام ، سواء تحقق الغرض أم لم يتحقق .

مادة (٧٩) يعاقب بالإعدام كل من سهل دخول العدو إلى البلاد أو سلمه مدنًا أو حصونًا أو منشآت أو مواقع أو موانى أو سفنًا أو طائرات مما يستعمل في الدفاع عن البلاد مما أعد لذلك ، أو نقل إليه أخبارًا أو أرشده أو حرض الجنود على الانضمام إليه ، أو أثار الفتن والشائعات ، أو نحو ذلك .

فقانون القرن العشرين صريح في إدانة بني قريظة ، حيث ارتكبوا جميع ما تستحق جريمة واحدة منه الإعدام ! وسنعرض لخيانتهم بالتفصيل ، حين نوجز سيرة سعد ، ليعلم القارئ المنصف كم تجني عليه أعداء الإسلام ، إذ وصفوه بالوحشية والقسوة والغدر ، وكم تنكب بعض رجالنا من القانونيين سبيل الإنصاف حين زعموا أن حكمه القضائي لا يوائم أحكام القرن العشرين ! وقد فاتهم أن يحيطوا بالقضية من أطرافها ليروا شططهم البعيد ! أما الرجل فيظل صادق ومسلم صريح ! وسنكتفي من تاريخه الرائع بما كان منه بعد أن أشرق في قلبه نور الإسلام ؛ فبلغ به الحظوة السعيدة ودخل منه أبهاء التاريخ .

لم يعتنق سعد الإسلام عفوًا ، ولكنه فكر وقدر ، وحاور وجادل، وقد عارض في اعتناقه قبل أن يدرك حقيقته ـ مثله في ذلك مثل الفاروق عمر سواء بسواء ـ وحين أشرق الإيمان على روحه

شعر كأنه انتقل إلى أوج زاهر مشرق ينأى عن ظلمات الوثنية وحنادس الشرك ، وقاد قومه إلى المجد التالد والعز الأبدي فأصبح الأوس في المدينة يسالمون إخوانهم من الخزرج ، وكلهم فرح بالقرآن ، مبتهج بمحمد ، مؤاخ للمهاجرين ، معاهد ربه على أن يحمي الدعوة الجديدة بروحه ودمه ، وقد صدق الأنصار ما عاهدوا الله عليه ، فكانوا درع الإسلام وحصنه الركين .

وجاء الامتحان الأول في بدر ، فقد خرجت قريش بجموعها الكثيفة لتدرك طائفة تظنها مستضعفة ذليلة ، وقد نفخ الغرور أوداج المشركين ، فتساقوا الخمور ودقوا الطبول وشرعوا الأسنة ، وإن الثقة لتملأ نفوسهم فتريهم مصارع المسلمين قبل أن يبرحوا أمكنتهم وتقللهم في أعينهم ليقضي الله أمرًا كان مفعولا ، وقد أخذ رسول الله ﷺ الأهبة وجمع أنصاره حوله يتشاورون فيما يواجهون به القوم من قوة وعتاد ، وقد شع الإيمان القوي على لسان سعد حين أعلن للرسول استعداد الأنصار للجهاد في سبيل الله دون تباطؤ أو تخاذل ، وأرسل كلمة مؤمنة لا تزال تجلجل في أذن التاريخ، فتعرض بطولة هذا الفدائي المؤمن الذي تهتف جوارحه من أعماقه : (امض بنا يا رسول الله حيث تريد ؛ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء) !!

وكانت هذه الصيحة الخالدة كفيلة بتوجيه الأنصار إلى الجهاد وإذكاء الحمية المؤمنة في القلوب ، واضح أن معاهدتهم مع رسول الله حين قدم إلى المدينة لم تكن تحتم عليهم أن يحاربوا معه أعداءه خارج يثرب ، ولكنها توجب الدفاع عنه في نطاقها إذا تعرض لمن يغزوه بين ديارهم ، فجاءت كلمة سعد شرطًا آخر يجيز لمحمد ﷺ أن يلقي خصومه في أي ميدان يريد ، ولو كان الأنصار - وعلى رأسهم سعد - ممن يترددون في الإيمان لحظة واحدة ، لأقصروا عن متابعة الرسول متعللين بما أخذوا به أنفسهم من شروط ، ولكن الإخلاص للمبدأ والتفاني في العقيدة ، كلاهما ينبذ النصوص الضيقة فلا يتعلل في التخاذل عن الحق بحروف وكلمات .

ولم يكن سعد يجاهد في بدر ببأسه وحده ، ولكن عقله من فوقه يرسم الخطة ويدير المعركة ، وقد اقترح على الرسول أن يبني له عريشًا خاصًا به كي لا يتعرض إلى سهم غادر أو رمية آثمة ، وعضد رأيه بأن القيادة محتاجة إلى سياج خاص لتتمكن من إدارة المعركة بعيدة عن الزعازع في ظرف عاصف تغشاه النذر وتتهدده الخطوب ، وقد أجاب محمد ما اقترح عليه .

ووقف سعد أمام العريش يدفع عنه بنفسه ويقول لرسول الله مطمئنًا : لو دارت الدائرة على الأنصار ففي المدينة من إخوانهم من يأخذون مكانهم زيادًا عن الإسلام !!

وقد صدق الله وعده وانكسر الشرك انكسارًا ، فطأطأت له الرقاب ونكست من أجله الجباه ، ونظر سعد فرأى كتائب الأسر تتلاحق وعفو رسول الله يفيض ، فعرف الغضب في وجهه ، إذ كان على رأي عمر ممن يودون أن يقوم السيف بدوره في رقاب ظالمة معتدية ، لم يكفها أن فر المسلمون من مكة حتى دفع الغرور أصحابها إلى مهاجمتهم بالمدينة واستئصالهم في غير ديارهم .

ولكن الرسول يطمئن سعدًا ، فيعود إلى صفائه ، معتقدًا أن هناك من يرجحه في النظر والتدبير .

توالت الوقائع بعد بدر في أحد والخندق ، فأما أحد فقد قام في حلبتها سعد بواجبه ، فناضل وجالد وتلقى الهزيمة في النهاية بعزيمة ماضية وإيمان حصين ، وأما غزوة الخندق فقد كان سيد الأوس بها بطلا مرموقًا تتوقف النتائج الحاسمة على كفاحه وجلاده .

وقد راعه أن يغدر حلفاؤه من يهود بني قريظة بعهودهم فيخونوا الإسلام في مأزق ضائق وينضموا إلى المشركين ليوقعوا المسلمين بين المطرقة والسندان !!

وكانت هذه الخيانة الرهيبة محنة قاسية تصب ويلاتها المحرقة على الجيش الإسلامي ، فابتلى المسلمون وزلزلوا زلزالا شديدًا ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وقد أظهر الذين في

قلوبهم مرض من المنافقين ضغائنهم السوداء ، فارتابوا في الإسلام وقالوا : ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا ، ثم استأذنوا في الانسحاب ، متمسكين بأوهى الخيوط ومعتذرين بأفضح التعلات!!

وفي هذه الغمرة الغاشية ثبت سعد ثبات الصناديد ، واستشعر مددًا حافلا من السماء يباركه ويؤازره دون أن تميل به الظنون إلى يأس وقنوط ، بل زادته الرهبة إيمانًا بالحق ويقينًا بنصرة الإسلام ، فحين عرض رسول الله ﷺ على غطفان أن تأخذ ثلث ثمار المدينة وتنفض يدها من الحرب راجعة أدراجها ثانية ، فتتفرق كلمة المشركين ويدرأ الإسلام بعض الخطر عن كيانه ، حين عرض ذلك لم يقبل سعد بن معاذ أن يذيق أعداءه خير بلاده وقال : (يا رسول الله ، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطعمون منا ثمرة إلا قرى أو بيعًا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام نعطيهم أموالنا ونهديهم خيرنا ، والله ما لنا بهذا من حاجة ، ووالله لا نعطيهم إلا السيف حتي يحكم الله بيننا وبينهم) .

وهذا قول يصدر عن حمية وأنفة ، وقد أدرك الرسول صدق صاحبه وإخلاصه فنزل على رأيه ورفض الصلح مع غطفان ، وفي استماع محمد إلى رأى سعد تقدير للجندي المخلص وإعزاز لمن يتمسكون بالحق من الأباة المناضلين ، ثم هو في الوقت نفسه مثل

رفيع للقادة الذين يتطلعون إلى النصر في أحرج أوقاتهم ، إذ عليهم أن يتدبروا الأمور ، فلا ينفردوا بأمر دون استشارة وتمحيص ، فتتحد الكلمة وتتجمع القلوب .

وقد انجلت الغواشي الحالكة عن المسلمين بسلام ، وعادوا إلى المدينة ظافرين بعد أن أظهر الله نعمته على عباده بالظفر والانتصار ، وقد أصيب سعد أثناء المعركة بسهم حاد هز من كيانه وزعزع من بأسه ، فحمل إلى خيمة قريبة ليسعف بالعلاج ، وكان إذا ضعضعه الألم يصيح داعيًا : اللهم لا تمتني حتى أشتفى من بني قريظة !! إذ أن هؤلاء الغادرين قد آسفوه بخيانتهم الأثيمة ، فما راعوا إلا ولا ذمة ، وكان سعد مع قومه من الأوس قد شفع لديهم بادئ ذي بدء ليرجعوا عن غدرهم الفاضح ، فما راقبوا الله في حلف أو ميثاق ، حتى إذا انكشفت الغمة قبعوا في حصونهم يترقبون ما تتمخض عنه الحوادث .

وطبيعي أن يعجل المسلمون بعقاب هؤلاء الخونة عقابًا رادعًا ، فاتجهوا إليهم على الفور وحاصروهم في ديارهم خمسًا وعشرين ليلة أججت القلق والحسرة في ضلوعهم ، فعرضوا شروطًا للجلاء كما فعل بني قينقاع ، وأملوا أن يتقبلها الرسول بقبول حسن ، وقد اتجهت أنظارهم إلى حلفائهم من الأوس ليكونوا شفعاءهم لدى محمد ، ورسول الله يدرك نفسيات قومه فيضع الشيء في موضعه ، إذ يختار سعد بن معاذ ليكون فصلا قاطعًا ينزل الفريقان على رأيه ،

وسعد من هو شدة حمية وقوة إيمان ، وقد قدر الموقف تقدير من شاهد كروبه ومآزقه ، وعرف النذر المستطيرة التي تراءت في الأفق، فأوشكت أن تطيح بالعصبة المؤمنة لولا عناية السماء وثورة الريح .

وقد هم بعض أصحابه أن يزينون له الإحسان في مواليه ويجنحون به إلى السلام والفداء ، فماذا فعل عند ذاك ؟

لقد حكم بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء !! وأمر الرسول بتنفيذ الحكم ، فخندق الخنادق لدي سوق المدينة ثم أخرج اليهود إرسالا إليها طائفة بعد طائفة ، فضربت أعناقهم ، ولاقوا أسوأ مصير على أفظع خيانة توجه إلى معاهد لم يأمن حلفاءه فيأتيه الروع من مأمنه الحصين .

وقد كانت صرامة هذه العقوبة مدعاة للتقول على الإسلام دون عدالة وإنصاف ، فالمسلمون لم يتجنوا على بني قريظة باستئصالهم المبيد ، لأنهم متهمون بالخيانة العظمى ، وقد ثبتت تهمتهم ثبوتًا قامت دلائله وفدحت نتائجه ، وهذه الخيانة الخطيرة ليس لها في جميع الشرائع غير الإعدام السريع .

ولم يكن اليهود أسرى حرب فيميل بهم إلى الشفقة ، ولكنهم شر من الأعداء ، إذ بيتوا الغدر لأناس يأمنونهم ويخصونهم بحقوق الجار وواجبات الذمام .

وموقفهم هنا يختلف اختلافًا واضحًا عن موقف بني قينقاع وبني النضير ، فالأولون قد أبدوا البغضاء من أفواههم ، وأشاعوا الريب والشكوك ، ورأوا في الدعاية المغرضة سلاحًا لا تفل ، والآخرون قد ائتمروا على قتل الرسول وتحالفوا مع بعض المنافقين على المناجزة دون أن تتيح لهم الفرص طريقًا يصلون منه إلى التنفيذ.

وهؤلاء وأولئك أهون خطبًا من الذين سلوا السيوف ووقفوا في صفوف العدو وأوقعوا الهلع في قلوب يحيط بها الروع من كل ناحية، فتعادل الكفتين بينهما طيش لا يقره إنصاف .

وقد جلا بنو قينقاع وبنو النضير عن المدينة ، فكانوا مثار القلق والفتنة ، ومبعث الضيق للمسلمين ، فهم الذين ألبوا الأحزاب وجمعوا القبائل مع المشركين ليوم الخندق ، فأعطوا بمؤامرتهم المزعجة محمدًا درسًا حاسمًا يحتم استئصال شأفتهم وتتبع أفاعيلهم في كل مكمن ، ليطفئ لهبًا يستعر إذا هبت عليه الريح ، وقد تحقق الدرس مبدئيًا في يهود بني قريظة ، وظهرت نتائجه الحاسمة في خيبر حيث تعرض اليهود على يد محمد لزلزال رهيب !!

والذين يستهولون حكم سعد على حلفائه يجهلون أن التوراة التي يدين بها هؤلاء اليهود توجبه وتفرضه ، فهو حكم يعلمونه من نصوصهم ويشيدون بعدالته في أطوائهم ، وما على المسلمين ملامة إذا قضوا بحكم يعترف به أعداؤهم دون أن يجدوا وجهًا للنقض والاستئناف .

وقد جاء بالإصحاح العشرين من سفر التثنية : (وإن لم تسالمك أي قرية بل حاربتك فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف) .

ويقول الزعيم الهندي الكبير مولاي محمد علي ، تعليقًا على هذا النص في كتابه « محمد رسول الله » : (لقد كان القاضي من اختيارهم وكان الحكم مطابقًا كل المطابقة لشريعتهم ، فماذا يمكن أن يعاب في ذلك على النبي !) .

وهذا تعليق تؤيده ونستشهد به ، ولكننا نخالف المؤلف الكبير حين ذكر أن يهود بني قريظة لو تركوا أمرهم للنبي دون سعد لقضى عليهم بما قضى على يهود بني قينقاع وبني النضير ؛ نخالفه في ذلك ، لأن الرسول لا يسوى في الحكم بين جريمتين متباعدتين تقف إحداهما عندًا لهم ، وتتجاوزه الأخرى إلى التنفيذ والمناجزة ، ومالنا نبعد وأمامنا قول الرسول لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات ! .

وإذا كانت الموازنة الدقيقة تكشف عن معادن الرجال ، وتبين الفروق الواضحة بين الطيب والخبيث ، فإن موقف سعد من أحلافه يهود بني قريظة يبرز مدى إيمانه الراسخ إذا قورن بموقف عبد الله بن أبيّ من أحلافه يهود بني قينقاع حين اضطربت عليهم الأمور وتكشفت للرسول ضغائن السود !! فقد جاء رأس النفاق

إلى رسول الله وهو يصيح : (أحسن إلى موالىّ ، أحسن إلى موالىّ) ، فأبطأ عنه الرسول ، فلجأ إلى التشهير ورفع صوته متشنجًا كأنه يدافع عن حق صريح ، ودفعه سوء الأدب فوضع يده في جيب محمد في صخب مفتعل وهو يقول : (لا أرسلك حتى تحسن إلى موالى ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع تحصدهم في ليلة واحدة !! وقد منعوني من الأحمر والأسود ، وإني والله لأخشى الدوائر !!) والدوائر التي كان يخشاها رأس النفاق ليست بالتي تصيب محمدًا بأذى كما أراد عبد الله بن أبيّ أن يفهم عنه الرسول ، ولكنه كان يعتقد أن اليهود شوكة أليمة في جنب المسلمين فإذا خلص الجو من كيدهم الوبئ دارت على النفاق دوائره ورجحت كفة الإسلام ، وذلك ما يؤرق ابن أبيّ ويضنيه ، ولو صدقت نواياه نحو المسلمين لأظهر من الغيرة على الحق بعض ما أظهره سعد بن معاذ ، فياطول ما بين الرجلين من أبعاد .

وما عتم سيد الأوس أن انفجر جرحه فلقى الشهادة مستبشرًا فائزًا ، وكان لنعيه دوى عاصف في قلوب المسلمين فهم يتحسرون على ابن سبع وثلاثين وقد اكتملت له أسباب السيادة في ريق العمر وربيع الشباب ، فرفع قومه وحمى عقيدته وأخلص لدينه ، وقد وقف الرسول ﷺ على قبره فتغير وجهه الكريم أسفًا ثم كبر ثلاثًا فكبر خلفه المسلمين حتى ارتج البقيع ، فسئل عن ذلك ، فقيل : يا رسول الله ، رأينا لوجهك تغيرًا ثم سبحت ، فقال : تضايق على

صابحكم قبره وضمه ضمة لو نجا منها أحد لنجا سعد ثم قال : (هنيئًا لك أبا عمر ، جزاك الله خيرًا من سيد قوم ، فقد أنجزت ما وعدت ، ولينجز الله وعده فيك) .

وذهب محمد إلى بيته وإذا جبريل ينتظره ليسأله : من رجل من أمتك مات الليلة فاستبشر بموته أهل السماء !!

لقد كان سيعد الأوس الزعيم الشاب (سعد بن معاذ) .

*****

صلح الحديبية

١ ـ الأحداث

مضت ست سنوات على المسلمين بالمدينة بين مدّ وجزر في معارك الأعداء ، ولكن معركة الأحزاب كانت ذات أثر نفسي لدى المسلمين ، إذ أكدت لهم أن الإسلام في نمو مطرد ، وهو ما كان يعتقده رسول الله ﷺ ، ثقة في ربه ، ويقينًا في رسالته ، وقد شاهد رؤيا كريمة ، تدل على أن المسلمين سيدخلون المسجد الحرام آمنين مطمئنين ، فأعلنها في المدينة ، وفرح المسلمين فرحًا شديدًا بهذه الرؤيا ، وعزموا على الحج إلى بيت الله سالمين ، يسوقون الهدى ، وليسوا محاربين يبغون القتال .

خرج رسول الله إلى مكة مع أصحابه ، وقد أعلن للناس جميعًا أنه يريد الحج لا الحرب ، ودعا الأعراب من حول المدينة إلى مصاحبته ليعرف المشركون أن المسلمين وغير المسلمين قد جاءوا لغرض ديني ، يشترك فيه العرب جميعًا ، مسلمين وغير مسلمين ، فيكون هؤلاء الذين شاركوا المسلمين شهداء على ما تصنع قريش ، قوم لا يبغون ضرًا بأحد ! . وقد استجاب القليل إلى دعوة الرسول، فصحبوا الجماعة الناشطة إلى بيت الله ، وتخلف الكثيرون خيفة أن يقع القوم في مأزق حين تنشط قريش فتعلن الحرب بغيًا على القاصرين ، ولم يصرحوا بنيتهم للرسول ، ولكن ذهبوا إلى

تعليل آخر فقالوا له : شغلتنا أموالنا وأهلنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وقد كشف الله عن نياتهم حين قال في محكم كتابه: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح : ١٢] .

سار الرسول إلى مكة مع أصحابه من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم من العرب ، وقد وضعوا السلاح في القراب ، وساقوا الهدى وأحرموا بالعمرة ليعرف الناس جميعًا أن الرحلة رحلة عبادة وطاعة ، لا رحلة حرب ودماء ، وأن البيت الحرام مقصود من الناس جميعًا ، والمسلمون أولى بقصده إذ هو قبلتهم لدى الصلاة .

وأحست قريش بما اعتزم الرسول ، فهاج هائجها وبعثوا بشر بن سفيان إلى محمد ﷺ يحاول أن يثني من عزمه ، فصوَّر له قريشًا بصورة من يستعد للنزال في حماسة وحمية ، وقال إنهم أعدوا الرماح وشحذوا السيوف وركبوا الخيل ، وقادوا النياق ، وتأهبوا للقاء ونزلوا بذي طوى وقد تعاهدوا على ألا تدخل مكة عليهم أبدًا ، وقد ترأس خالد بن الوليد جيوش المدافعين ونزل بكراع الغميم .

قال ﷺ : يا ويح قريش ، لقد أكلمتهم الحرب ، فماذا عليهم لو خلوا ما بيني وبين العرب ، فإن أصابوني فهو ذلك الذي أرادوه ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا

قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به ، حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة عن صفحة العنق ، وكنى الرسول بقوله هذا عن الموت ، كأنه قال : حتى يظهره الله أو أموت .

ثم فكر رسول الله في أقرب عمل يمنع التلاحم بين جماعة المسلمين وجيش خالد ، فسأل عن رجل خبير بالدروب ما بين مكة والمدينة كي يصحب المسلمين عن طريق آخر فلا يصطدموا بمن تحرشوا بهم من الأعداء ، فخف إليه رجل من قبيلة أسلم ، وقاد المسلمين من طريق وعر كبدهم مشاق كثيرة ، ثم خرجوا منه بعد أن تعبوا وجهدوا ، فأمرهم الرسول أن يسلكوا ذات اليمين ، وساروا على بركة الله ، حتى إذا جاءوا مكانًا يقال له (ثنية المرار) وقفت ناقة رسول الله به ، فصاح بعض الناس : لقد حرنت الناقة وامتنعت عن السير ، فقال رسول الله في ثقة : بل حبسها حابس الفيل عن مكة ، وهذا الرد يدل على ثقة الرسول في نفسه من ناحية، وعلى تعظيمه البلد الحرام من ناحية ثانية ، فلو كان المتحدث شخصًا وصوليًا لأخفى حقيقة رأيه في نفسه ، لأن مجرد ذكر معركة الفيل ينذر بالفشل والهزيمة ، ولكن القائد الصادق يريد أن يصرح بأن البلد الحرام له مكانته عند ربه ! وأنه سيبذل كل جهد كي يرعى هذه الحرمة ، وعلى أصحابه أن يتريثوا فلا يتحدثوا بغير ما يدل على التعظيم والتوقير ، ثم دار الرسول بعينه في وجوه أصحابه وقال

متابعًا خطته في السلام : « والذي بعثني بالحق لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » .

نزل الرسول بمكان خلده التاريخ فيما بعد هذا الحادث وهو المسمى بالحديبية ، وما كاد يستقر في موضعه حتى وفد عليه بديل بن ورقاء الخزاعي ، وكان من الصادقين مع رسول الله ، فقال له : لقد تركت قريشًا يشحذون الحراب للقائك وقد أجمعوا على صدك عن الدخول إجماعًا لا اختلاف فيه ، فأخذ الرسول يشرح له حقيقة مقصده ، ويؤكد أنه جاء معتمرًا لا محاربًا ، وأن على قريش أن تفهم ذلك وتعيه ، فارتحل بديل بن ورقاء إلى قريش ليبلغهم ما سمع من الرسول ، وكان فيهم من ذوي السفاهة من تجرأ على بديل بالإفحاش ، ولكن ذوى الرأي استمعوا إليه مفكرين ، ثم قالوا : لن يدخلها علينا عنوة ، فتتسامع العرب بقوته ، وبضعفنا فنصبح أمثولة ، ونلاقي يومًا أعظم مصيبة من يوم بدر .

ودارت الرسل بين الفريقين ، ومن أظهر هؤلاء سيد الأحابيش (الحليس بن علقمة) ، وكان رجل تقوى وخشية ، فقدم على رسول الله ورأى الهدى يسيل في الوادي وسمع أصوات التكبير والتلبية ، فرجع إلى قريش دون أن يخاطب الرسول ليتحدث إليها عما رآه وليعلن أنه شاهد الهدى وسمع التلبية والتكبير ، ولكن قريشًا قالت له إنك أعرابي لا علم لك بالقاصد ، فغضب الحليس وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا

عاقدناكم ، أيمنع عن بيت الله من جاء معظمًا له ومكرمًا ، والذي نفس الحليس بيده لتتركن محمدًا وما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد عليكم ، فتخاذلت قريش وقالت : كف عنا يا حليس ، حتى نأتي ما يرضيك .

ثم رأت قريش أن تستعين بسيد الطائف (عروة بن مسعود الثقفي) فقال لهم : إنكم يا معشر قريش لا تستمعون في توقير لمن يأتي إليكم بأمر محمد بأن أن شاهده ، وأنا سيد القوم ، وأحذر أن أذهب وأصدر رأيًا ، بعد أن أرى وأسمع ، ثم لا يكون منكم الإصغاء ، قالوا كلا : ما أنت عندنا بمتهم .

وقد خرج عروة إلى رسول الله ، وكان في نفسه عزة وكبرياء ، لمكانته من قومه في ثقيف ، فقال لرسول الله مبدئًا : أجمعت يا محمد أو شاب الناس ثم جئت إلى أصلك وعشيرتك لتقتحم على قريش منازلها ، لقد لبسوا جلود النمور وعاهدوا أنفسهم ألا تدخلها عنوة، وأيم الله لكأني بأصحابك قد انكشفوا عنك غدًا وتركوك ! فقال أبو بكر متعجبًا : أنحن ننكشف عن رسول الله . ثم جعل يكلم رسول الله ويضع يده على لحيته ، فأخذ المغيرة بن شعبة يقرع يده حين يمدها إلى لحية الرسول ، ويقول له : أكفف يدك ، ثم دار بعينه بين المسلمين فوجد حبًا وطاعة وامتثالا ، وجدهم يأتمرون في خشية ، وإذا توضأ كادوا يتهالكون على ماء وضوئه ، وإذا تكلموا عنده خفضوا أصواتهم معظمين ، وما يكادون يرفعون النظر إلى

وجهه تكريمًا وتبجيلاً : فرجع إلى قريش فأخبرها بما رأى وعاين ، وقال : يا معشر القوم ، لقد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه ، فما رأيت مثل محمد في أصحابه ، لقد رأيت قومًا لن يسلموه إليكم أبدًا ، فانظروا إلى أمركم !

فكر رسول الله بعد رحيل عروة ، وكأنه خشي ألا يقوم بأداء صحيح لما شاهد ، لأنه لم يفصح عن نواياه ، بل ارتحل دون أن يصدر رأيًا ، فرأي أن يبعث عمر بن الخطاب إلى قريش كي يستطيع أن يعرض عليهم موقف المسلمين المسالم ، ولكن عمر قال : يا رسول الله ، لقد عاديت القوم وليس بمكة أحد من بني عدى يمنعني ! وإني لأدلك على عثمان بن عفان فهو أعز مني لدى قريش.

فاستجاب رسول الله لقول عمر ودعا عثمان وأرسله إلى مكة ليخبر القوم في جلاء ساطع أن رسول الله لم يأت مكة محاربًا وإنما جاء لتعظيم البيت ، فاتجه عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص فأجاره حتى بلغ رسالة النبي فاستمعوا إليه وقالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل ، فقال : كلا لن أطوف حتى يطوف رسول الله ، فاحتبسته قريش لديها ، وجاء الخبر إلى المسلمين أن عثمان قد قتل ! فقال رسول الله غاضبًا : لا بد من القتال ، ودعا الناس إلى البيعة تحت الشجرة ، فلبوا ، ثم علم أن الخبر عن عثمان باطل غير صحيح .

كانت قريش تخشى عاقبة الالتحام ، فهي تعرف أن المسلمين أولو بأس ، وأن العرب قد اجتمعوا على تعظيم البيت ، ووجوب زيارته ، فإذا منعت المسلمين حقهم في الاعتمار ، فقد أهدرت حق البيت قبل أن تهدر حق المسلمين ، ولن تجد من يعذرها في هذا التصدي الظالم لمن جاءوا مسالمين يقودون الهدي ، ولم يجيئوا محاربين ، وقد وصلتها الأنباء عن بيعة الرضوان ، فزادت من هلعها، ورأت أن توفد أحد وجوهها - وهو سهيل بن عمرو - إلى رسول الله ، كي يحسما الموقف على نحو يريح قريشًا ويرضي المسلمين .

ودار نقاش طويل أظهر ما يتمتع به الرسول ﷺ من حزم وصبر، إذ مال إلى السلام لقاء شروط دونت في وثيقة الصلح ، إذ دعا رسول الله علي بن أبي طالب ، فقال له : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم، فكتبها ، ثم قال : اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال رسول الله ﷺ : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

واصطلحا على أن تقوم هدنة بين الفريقين مدتها عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتي محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشًا من أصحاب

محمد لا يردونه ، وأن الصلح معقود على الوفاء والالتزام ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش دخل فيه . وعلى المسلمين أن يرجعوا عامهم هذا ويحجوا في العام القادم ، وقد انضمت خزاعة إلى عهد المسلمين وانضمت بنو بكر إلى عهد قريش !

كان الصلح في ظاهره مرهقًا للمسلمين ، فقابلوه بالنقد ، وجهر عمر بن الخطاب كعهده برأيه الصريح ، فجاء إلى رسول الله يقول : يا رسول الله ، ألست برسول الله ؟ قال : بلي ، قال : أولسنا بالمسلمين ، قال : بلي ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلي ، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ فقال ﷺ : أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعني !

كان قول عمر معبرًا عن رأي الكثيرين ، لأن إرجاء الحج إلى العام القادم قد وقع موقعًا أليمًا في نفوس نفر من الناس ، وقالوا إن رسول الله ﷺ قد رأي الرؤيا ، لتدخلن المسجد احرام إن شاء الله آمنين ، محلقي الرؤوس ومقصرين ؟ فكيف نرجع دون دخول ؟ والرد واضح ، لأن الرؤيا أخبرت بدخول البيت ولم تحدد يومًا بعينه أو عامًا بعينه ، فإذا أرجيء الحج إلى العام القادم فهو ما أوحت به الرؤيا الصادقة ، أما أن يتعهد المسلمون برد المسلم الوافد على المدينة دون أن يتعهد المشركون برد الوافد على مكة من المسلمين ، فهذا ما كان موضع الملاحظة أيضًا .

ولكن رسول الله كان أبعد نظرًا حين عرف أن المسلم المقيم بالمدينة لن يرجع إلى مكة إطلاقًا بعد أن أشرب قلبه الإيمان ، أما المسلم الوافد إلى المدينة فهو ذا إيمان راسخ ، إذ لم يدفعه دافع إلى هجرة مكة غير صميم إيمانه الذي لا يتزعزع ، فلئن ووجه بالصد ، فلن يؤثر ذلك شيئًا في إيمانه ، لأنه يعلم أن الشرط قائم ، والوفاء بالعهد مما يجب مراعاته ، وليس في صده ما يشير إلى بعده عن الانتماء إلى المسلمين !

وإذا كان فيه مشقة ما ، فقد ظهر من منطق الأحداث أن الله قد جعل من بعد عسر يسرًا ، وأن امتناع الرسول عن قبول الوافدين جعلهم لا يرجعون إلى مكة ، بل توجهوا إلى ساحل البحر ليكونوا فريقًا فدائيًا يعوق تجارة قريش [١] وهذا ما صنعه أبو جندل بن سهيل بن عمرو حين رأي عزم الرسول على تنفيذ المعاهدة ، فاستعان بالله ، وضم إلى نفسه فريقًا من ذوي هواه وحاصر قريشًا على الساحل ، على نحو ما سنفصله تمام التفصيل في الموضوع التالي، إذ هو جدير أن يختص بمقال يشرح كل غامض ، حتي نقضي على كل هاجسة تتردد في النفوس !

لقد كانت اعتراضات عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات اختلاف في نفوس المسلمين ! حتى إن رسول الله ﷺ حين فرغ من

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في الفصل التالي .

كتاب الصلح نادي أصحابه ودعاهم أن ينحروا وأن يحلقوا ، فلم يستجب أحد ما ، وهذه أول مرة في تاريخ الدعوة الإسلامية يبطىء فيها المسلمون عن الإسراع إلى تلبية الرسول ، فدخل رسول الله غاضبًا إلى زوجته أم سلمة وذكر لها ما يقابل به من الاعتراض ؛ فألهمها الله عز وجل أن تقول : اخرج ، ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر ، وتدعو حالقك ، فقام رسول الله فلم يكلم أحدًا من أصحابه حتي نحر بدنته وحلق رأسه ، فلما رأي المسلمون ذلك ، قاموا فنحروا وحلقوا ، وفيهم من قصر ولم يحلق ، فقال رسول الله : يرحم الله المحلقين ، فنادي الناس في قلق : والمقصرين يا رسول الله، قال : والمقصرين .

ثم تنادوا بالرحيل إلى المدينة ، وفي بعض النفوس شك وحيرة ، ولم يلبث أن نزل القرآن فأزال كل هاجس ، حيث قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١ ، ٥].

فتساءل المسلمون : أهو فتح أم صلح ؟ فعرفوا أن الله قد جعله فتحًا لما يعلم من كبير جدواه ، وأيقنوا أنهم أمام مستقبل يبشر بالفوز، وإذا كان الوعد قد أبطأ عامًا فما أسرع ما يمر العام ثم ينهض المسلمون في عمرة القضاء إلى زيارة البيت ، وسيجدون الطريق معبدًا سهلا ، فالهدنة قائمة ، وقريش بعيدة عن مكان الطواف والسعي ، والأمر أمرهم في الذهاب والمجيء ، وإذ ذاك يتحقق قول الله تعالي :﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ٢٧] ، وصدق الله .

ب ـ ما يؤخذ من الصلح

١ ـ كان هذا الصلح فاتحة خير على المسلمين ، إذ وضعت الحرب أوزارها بين الفريقين ، فعلم الناس أن قريشًا لن تحارب ، وكان العرب واليهود والمنافقون من أعداء الدعوة ، يعتمدون على إثارتها، ويبذلون قصارى جهودهم في تعكير الصفو ، واتساع الشقاق ، وها هم أولاء حائرون : لا يدرون مكانًا جديدًا للصيد ، كي يوقدوا نار الحرب فتأكل المسلمين .

٢ ـ اعترفت قريش بإبرام الصلح أن للمسلمين كيانًا خاصًا ، وأنهم يقفون منها موقف النظير من النظير ، فليسوا مراقًا هاجروا

بليل ، ولكنهم أصحاب دين وعقيدة ، وأولو مذهب يدافعون عنه، ولهم منهجهم المستقل ، وقوتهم المرهوبة .

٣ ـ اتسع مجال العمل أمام المسلمين كي ينشروا الدعوة الإسلامية على أوسع نطاق ، فبعد أن كان المسلمون ينحجزون في المدينة دون امتداد إلى الجهات الأربع ، صار من حقهم أن يتصلوا بالقبائل على أوسع نطاق ، وأن يشرحوا مباديء الإسلام ، وأن يدعوا العرب كافة إلى الإخاء والحرية والمساواة ، وهذا ما تم على نحو رائع ، إذ دخل الناس في دين الله أفواجًا ، وآية ذلك أن جيش المسلمين يوم الحديبية لم يجاوز ألفًا وستمائة رجل ! أما جيش المسلمين يوم فتح مكة فقد جاوز عشرة آلاف ! وما تدفقت هذه الجموع على الإسلام إلا بعد أن اتصل الدعاة بهم في أرباض الجزيرة العربية ، وهم آمنون على أنفسهم بعد توقيع الهدنة بين الإسلام وأعدائه في مكة .

٤ ـ وجه المسلمون اهتمامهم إلى أعدائهم من اليهود ، إذ أنهم جرثومة الشر الأولى في تأريث الأحقاد وتهييج الضغائن وإذا أمكن قمعهم في أرباضهم النائية عن يثرب فقد استراح المسلمون من شر أكيد .

٥ ـ تفرغت الجماعة إلى مراسلة الملوك والأمراء لدعوتهم إلى دين الله ، فجاءت رسل الإسلام إلى هرقل وكسرى ومن تبعهما من الولاة ، وأصبح للدولة الإسلامية بالمدينة شأنها السياسي الذي

يجب أن يكون في تقدير الناس جميعًا ، وماذا عسى أن يصنع اليهود والمنافقون وقد أصبحوا أمام مد جائش يزيل الحجب ، ويقتحم الأسداد .

*****

فرقة فدائية

حين هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة مع أصحابه تخلف عنه من المؤمنين فريق أهل مكة ، إذ قامت حوائل كثيرة دون الهجرة أمام نفر من المستضعفين تغلب عليهم ذووهم بما لا يستطيعون دفعه من الأغلال والقيود ، وقد تسنح الفرصة لبعضهم أن ينشط من قيده في غفلة الحرس فيلحق بالمدينة فارًا بإيمانه ! ولكن البعض الآخر ظلَّ يعاني من العذاب ما أعان الله عليه بجميل الصبر وعظيم الاحتمال ، وكان هؤلاء المكبلون في الأغلال يحيون على أمل في نجاة قريبة أو بعيدة تتاح لهم في بعض الغفلات ، فمهما كرثهم الخطب وتعاظمهم الانتقام فإن ظلمات الليل ستتشقق لهم عن فجر مضيء؟!

هكذا ظلوا في قيودهم يتعذبون ويأملون ! وقد تذهب خواطرهم إلى المدينة ، فيتصورون رسول الله ناهضًا بين صحابته ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويهديهم الصراط القويم ، فيغبطونهم على ما أتيح لهم من رضوان !

وكانت أحاسيسهم في مكة تتجاوب مع أحاسيس إخوانهم في المدينة ، فإذا حزنت قريش لمصيبتها في بدر ، فإن هؤلاء من بينهم لا يكتمون فرحتهم المضيئة ترتسم بها وجوههم ارتسامًا يغيظ المشركين ، فيضاعفون عذابهم متشددين !

وإذا كانت الواقعة في أحد مدعاة زهو لقريش فإن عيون هؤلاء تفيض بالدمع حزنًا على ما كان !

وهكذا ظلت هذه الجماعة تعيش بأجسامها في مكة بينما تسبح خواطرها في المدينة ، ولها أمل في اللقاء يقرب أمده أو يطول ، حتي جاء يوم الحديبية ، فتوالت الأنباء أن محمدًا ﷺ قد قدم في صحابته ليزور البيت العتيق ، ونشط المشركون وراء حماستهم الغاضبة يمنعون عدوهم أن يدخل عليهم بلدًا هاجر منه بليل ثم يعدون السلاح لمعركة يرونها وشيكة الوقوع ! وهؤلاء المستضعفون في القيود تأتيهم الأنباء ، فيحلمون برؤية الرسول ﷺ ، ويودون لو تمَّ اللقاء الحبيب في مكة ، ثم يتسامعون عن مفاوضة تقوم بين الفريقين ، فيسعدهم أن تعترف قريش برسول الله ، فيعقدون معه المعاهدة بعد أن كانوا يرونه مارقًا لا سبيل إلى التفاوض معه ، ولا حيلة فيه غير القتال ! إنه لنصر يوشك أن يتحقق ! وإن السماء لتبشر بصفاء قريب !

وقد كان أبو جندل بن سهيل بن عمرو أحد هؤلاء الذين كبلتهم الأغلال الظالمة ، فظل حبيسًا في حجرة مظلمة يئن في أثقاله ، إذ تعاظم أباه أن يسلم فتاه ، ورأي ذلك سبة فادحة يمضى حديثها في الملأ من قريش فتجلله عار الحياة ! وقد أقبل على تعذيبه وإعناته ليرفع رأسه في قومه مسكتًا نداء الأبوة ، ومشيحًا عن هتاف الدم ، كيلا يقول قائل له إن ابنك قد صبأ !

وشاءت الأقدار أن يكون الوالد الغاضب مبعوث قريش إلى رسول الله يوم الحديبية ، يتزعم وفدها المفاوض ، ويضع بنود المعاهدة ، فيمحو بعض الألفاظ ليثبت غيرها ، ويدفعه التعنت إلى إملاء شروط مجحفة يتقبلها الرسول وراء نظر قصى ، وتقدير بعيد ، جل أن يصل إليه سواه من علية الصحابة وأكابر المسلمين ، وحسبك أن تعلم أن عمر رضي الله عنه كان أول من اعترض على المعاهدة ، فسعي إلى الرسول ﷺ يناقشه الرأي ويهتف به : علام نعطي الدنية في ديننا ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ فيجيب الرسول ﷺ في هدوء المتأمل ، ولطف المتسامح : أنا عبد الله ورسوله ولن يضيعني !

أجل ، كان أبو جندل بن سهيل أحد هؤلاء الذين كبلتهم الأغلال ، وقد وجد في رحيل والده إلى الحديبية ومغادرته المنزل أمدًا غير قصير منفذًا للفرار ، فاجتهد حتى نزع قيده ، وسار يطوى الرمال عدوًا إلى الحديبية حتى وفد على رسول الله ﷺ معلنًا إسلامه!

ويالها مفاجأة مذهلة أن يجلس سهيل بن عمرو مع رسول الله ممثلا لكفار مكة ، وزعيمًا لجماعة قريش ! ثم يفتح عينه ليرى نجله أبا جندل يحاول أن يعتصم بمحمد ﷺ معلنًا إسلامه بمرأى منه ومسمع !!

لقد كان من شروط المعاهدة الظالمة أن يرد رسول الله إلى مكة كل

من وفد إلى المدينة مسلمًا لله ! وألا يرد المشركون إلى رسول الله أحدًا ممن يأتي من المدينة إلى مكة !

وهذا ما جعل سهيلا يبتسم في وجه ابنه ابتسامة الماكر المغيظ ، ثم يقول له في سخرية : هيهات ! لن ينفعك إسلامك وسترجع معي إلى مكة تنفيذًا لما وضعته الشروط !

وينظر أبو جندل إلى رسول الله حائرًا دهشًا ، فيصمت الإنسان العظيم دون قول ! فيدرك الشاب المؤمن أن الأمر جد ! وأنه وقع في مأساة !

لقد كان أبو جندل رضي الله عنه يحلم بالفرار من مكة مؤقنًا أنه إن أفلت إلى المدينة فلن تستطيع قوي الأرض أن ترده عنها ، كما أفلت إخوان له من قبل شاركوه المحنة ثم تكشف ليلها عنهم بعد الرحيل ، وها هو ذا يرى الحلم يتبدد في عينه ، وكأنه استيقظ منه على صراخ مزعج ، يأخذ عليه أقطار حسه ، ويكاد يدفعه إلى هوة تنفرج تحت قدميه ، وأي هوة أظلم وأقسى من العودة إلى ديار الشرك ، والرجعة إلى الأغلال والقيود ، ورؤية الشامتين الهازئين ممن يبتسمون للهجرة الخائبة ، والعودة الحزينة ! ذلك ما لا تطيقه نفس مؤمن ذاق في ماضيه ما ذاق ! ثم رجع ليذوق .

على أن الحيلة قد ساعدته حين أعملها في سيره مفكرًا مدبرًا ، فقد أنس غفلة من أبيه ، وأطلق قدميه في البراح الواسع يضرب

ذات الشمال وذات اليمين بمنجاة مما سيعترضه من صعاب ، ولم يكد يلتقط أنفاسه ، حتى وجد نفسه أمام أخيه في المحنة أبي بصير عتبة بن أسيد بن جارية ، يهيم في التيه الواسع هيامه ، ويضرب في الفضاء على غير طريق ، فتلاقي الغريبان المسلمان تلاقي المودة الصافية في مأزق يتطلب النصير ، وتسمع أبو جندل إلى صديقه عتبة ، فعرف أنه فر بدينه من قيود مكة وأغلالها كما فر ، وقد قابل الرسول ﷺ واستمع إليه ، وعرف من شروط الحديبية ما أرق جفنه وأطال همه ، إذ لا مناص من الوفاء بالعهد ، والرجوع ثانية من حيث جاء ! وكيف وأنى ؟! إن الرسول ليعلن إليه في أسف أن رسولي بني زهرة قدما لاستصحابه إلى مكة وفاء بالشرط ، وأنه ﷺ لا يملك أن يحتجزه فينقض عهدًا أبرمه !

فأيقن عتبة أن الرجوع أمر محتوم ، ونظر إلى الملأ من الصحابة وعينه تفيض دمعًا ، وقلبه ينفطر حزنًا ، وقد أدركه في الطريق ما أدرك أبا جندل من وحدة الهاجس ، واتفاق الخاطر ، إلا أنه كان أجرأ وأحمى ، فقد تودد لرفيقيه في الطريق ، وأظهر الإذعان المستسلم حتي أيقنا أنه قد صبأ عن الإسلام وأن موقف الرسول منه قد باعد بين قلبه ودينه الجديد بعدًا لا إسلام بعده ! فنزعا قيوده وتركاه يسافر كأحدهما حرًا دون غل ، فحانت له فرصة حاسمة اخترط بها سيفه وضرب به أعتي الرفيقين شكيمة وأقواهما بأسًا ، فخر يتشحط في دمعه ، على حين فر الآخر هائجًا مضطربًا ، يخاف

أن تدور الدائرة عليه ، ثم ارتد عتبة ثانية إلى المدينة ليعلن لرسول الله ﷺ أنه نفذ شرطه ، إذ رجع مع الرجلين ، وقد انتصر لنفسه في الطريق ، ونظر محمد ﷺ إلى بأسه المتقد ، ورجولته الحية فأطلق كلمته الرائعة المأثورة عنه : « يا له مسعر حرب لو كان معه رجال»، وكأن هذه العبارة القوية قد فتحت أفقًا عريضًا ينبسط أمام عيني عتبة ، فصمم على أن يجمع حوله الرجال من أمثاله ، وأن يكون مسعر حرب تدوى وقائعه الفدائية في ذات الله ! وها هو ذا يقابل أبا جندل ليرسم معه طريق الفداء ، فهل كانت كلمة رسول الله إيذانًا بلقائهما في هذه المهمة الجديدة ليبتدئا إحكام خطة ناجحة تنقذ زملاءهما من المستضعفين ؟!

إنهما بإيمانهما الراسخ ليعرفان أن محمدًا لا ينطق عن الهوي في شيء، وأن كلمته تلك ذخيرة نفيسة هائلة تقوم مقام السلام المحتشد والعدة الهائلة ! فما لهما لا يذهبان إلى طريق القوافل القرشية في الوادي الأفيح بذوي المروة ليكونا فرقة تقطع الطريق على قوافل هؤلاء الطغاة ! وما لإخوانهما من المستضعفين لا ينضمون إليها بدل أن يذهبوا إلى المدينة ثم يرتدوا محزونين .

إنهما ليحتالان حتي يرسلا بعض الأعراب إلى مكة بخبرهما الهائل كي يفد إليهما من يريد الإسلام ! وإن الأيام لتمر وكل ساعة تفد عليهما بالنصراء من شباب مكة وبواسل غفار وجهينة وأسلم

وخزاعة ، ممن آثروا الجهاد في سبيل الله ، فتكونت الكتيبة الفدائية في أسرع وقت ينتظر ، ثم نهضت تتعقب قوافل المشركين على سيف البحر بين مكة والشام ، فتغنم جميع ما تترصده مغانم تضم التجارة الواسعة والزاد الأوفر والمال الجم وما يتبع ذلك من سلاح الحراسة وإبل الرحلة ، وخيول الطليعة .

وتطير الأنباء إلى قريش فيعجزها أن تضرب في المهامة لمطاردة شباب فدائي يعتصم في مخارم الجبال ، وغيراث الكهوف ، ثم يثب الوثبة فيبطش بما أمامه عن عقيدة دينية وغضبة إسلامية ، ماذا يصنعون مع هؤلاء ؟ إنهم يكتبون إلى رسول الله في أمرهم ، فيخبرهم أنه عند شروطه المفروضة لا يقبل أحدًا ممن يفد عليه من مكة ! وأن معاهدتهم الجائرة هي التي أتاحت لهذا النفر الباسل أن يشن الحرب بذي المروة على سيف البحر بعيدًا عن سيطرة رسول الله !

ويتسمع عمر رضي الله عنه إلى حديث القوم ، فيدرك أنه تسرع مع رسول الله حين أعلن احتجاجه على المعاهدة ، ويدرك أن عيني القائد العظيم كانت تستشف الغيب لتقرأ سطوره من كتاب مفتوح! وتجيء الأنباء سارة ظافرة إلى المدينة بوقائع الفدائية ونجاح غاراتهم الباطشة ، فتقابل بحمد الله والثناء على المجاهدين الأشاوس في مغتربهم النازح ، وتتناقل الألسنة المبتهجة شعرًا رائعًا

لأبي جندل يقول فيه :

أبلغ قريشًا من أبي جندل أني بذي المروة بالساحل
في معشر يخفق إيمانهم بالبيض فيها والقنا الذابل
يأبون أن تبقي لهم رحلة من بعد إسلامهم الواصل
أو يجعل الله لهم مخرجًا والحق لا يغلب الباطل

وإذا ابتهجت الألسنة المؤمنة في المدينة بقول أبي جندل ، فقد ارتاعت له نفوس حاقدة بمكة ، فأرسلوا سعاتهم إلى رسول الله يعلنون إليه أنهم تنازلوا عن شرط الحديبية ، وأنه له ﷺ أن يضم إليه بالمدينة كل من يريد أن يسلم ! ويسألون بالرحم أن يدعو إليه أصحاب ذي المروة . فيبتسم القائد الظافر ويكتب كتابه إلى أبي بصير عتبة بن أسيد طالبًا أن يباكره بالعود السريع ! ويشاء الله أن يأتي الكتاب إلى البطل الفدائي أبي بصير وهو يجود نفسه إثر معركة حامية أدمته جراحها فيكون آخر ما يرى ويسمع ، وإذ ذاك يحتضن الكتاب مقبلا ، ثم يغفو إغفاءة الأبد ، وفي يده منه أثر عزيز ! ويبكيه أصحابه أحر بكاء ثم يرجعون إلى المدينة بقيادة أبي جندل امتثالًا لأمر رسول الله ! فيلقاهم الصحابة مكبرين مهللين ليتبوءوا مقاعد الشرف بين الأبطال في الدنيا ، وما عند الله خير وأبقي ، ثم يستذكرون وقائعهم الفدائية ، فيدوي في آذانهم قول رسول الله عن أبي بصير يا له مسعر حرب لو كان معه رجال !

معركة خيبر

(أ) أحداثها

رأي رسول الله ﷺ بعد معاهدة قريش أن يحسم الأمر مع اليهود ، فهم جرثومة الشر التي لا تني تفتك بجسم الدعوة الإسلامية ، وما انبعثت قلاقل المسلمين منذ الهجرة إلا بكيد هؤلاء، وإذا كانوا قد جلوا عن يثرب مضطرين فإن الحقد يدفعهم إلى بذل الجهود المضنية كي يرجعوا إليها ظافرين ، وقد أخذوا حذرهم كل الحذر فأقاموا في خيبر أمنع الحصون الشاهقة ، كي يعتصموا بها يوم ترجف الراجفة عليهم عن قريب .

وكان في نية رسول الله أن يكتفي بإبعادهم عن المدينة دون أن يتكلف المسير مائة ميل فأكثر مع جيشه لغزوهم في حصون خيبر ، وقد ألف بعض الكاتبين في السيرة أن يتخطوا الحلقة الأولى في معركة خيبر ، إذ يذكرون بادىء ذى بدء أن الرسول توجه إليهم بعد معاهدة قريش مباشرة دون اتصال سياسي يحسم الشر لينتقم من شرورهم ، ولو فعل ذلك رسول الله لكان صاحب حق ، لأنه يريد أن ينتقم لنفسه ، ولكنه ـ وهو نبى الخير ـ آثر الحسنى ، فبعث عبد الله بن رواحة في ثلاثين رجلا من الصحابة إلى زعيمهم (أسير ابن رزام) يدعوه إلى السلم ، والمعاهدة على الصفاء ، وقال المسلمون له : هل نحن آمنون على أنفسنا حتى نعرض عليك ما

جئنا إليه ؟ قال : نعم ، فعرضوا عليه أن يترك ما ترامي إلى سمع المسلمين من عمله الجاهد على إشعال الحرب وتأريث العداوة بين القبائل والإسلام ، وله أن يقدم على رسول الله بالمدينة زائرًا فمعاهدًا ، وسيلاقي ما يلاقي الضيف من احترام ، فاستجاب للأمر استجابة يحار الإنسان في تفسيرها ، لأنه جمع ثلاثين من أصحابه وتوجه مع المسلمين إلى المدينة ، ثم بدا غدره المنكر في مقدمة الرحلة ، إذ انتهز غفلة من ابن رواحة وحاول أن يهوي على رأسه بالسيف ، لولا أن انتبه عبد الله فسارع إلى سيفه وهوى عليه فأصاب ساقه فانكسرت وسقط عن بعيره !

وموضع الحيرة أننا لا ندري أكان (أسير بن رزام) صادق النية حين سار مع عبد الله ثم بدا الغدر له فجأة ، أو أنه عزم على المكيدة وآثر أن يأخذ عبد الله ومن معه على غرة بعد أن يأمنوا القوم وتقر السيوف في الأعماد فيقضوا على المسالمين حاصدين ، كلا الأمرين محتمل ، ولكن الذي لا شك فيه أن الله قد أبطل كيده ، ونجا المسلمون ليعلنوا إلى المسلمين ما كان ، وليقرر رسول الله حرب خيبر مفاجئًا دون إمهال قبل أن يجمعوا العدة ، لأنه لا يخفي عليهم أنهم واجهوا أضيافهم بالشر غدرًا دون وفاء وأن الانتقام له ساعة ستحين .

خرج رسول الله في ألف وستمائة من أصحابه في شهر المحرم من السنة السابعة وقد طمع من حول المدينة من الأعراب أن يصحبوا

الجيش ثقة في الغنيمة ، لا حبًا في الإسلام . ولكن الرسول فهم دخائلهم ، فقال : لن يخرج معي أحد للغنيمة وحدها تنفيذًا لقول الله : ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الفتح : ١٥] .

وكان بين غطفان واليهود عهد على المناصرة في القتال ، فرأى رسول الله أن يستريح بجيشه في مكان يقال له : (الرحيج) ، ودوى المسلمون بالتكبير ، فذعرت غطفان ، وخافت أن يكون الرسول قد قصدهم تأديبًا لهم لمهاجمتهم المدينة يوم الأحزاب ، واستشعروا الهول الراعب ، ولكنهم علموا أن خيبر هي الهدف ، فاطمأنوا وآثروا الانزواء .

والحق أن خيبر لم تلق العنان عن طوع ، بل كانت معركة المسلمين بها مع اليهود قاسية وعنيدة ، لأن الأعداء كان يعتصمون بالحصون الشاهقة ، إذ كان لهم مجموعات من المساكن المتداخلة ، كل مجموعة ذات حصن منيع ، وكل حصن ينضم إلى أخيه في كنف سور ممتد محيط يشمل ثلاثة حصون ، بحيث وجد الرسول نفسه أمام جبهات ثلاث ، لأن الأسوار الناهضة ثلاثة ، يضم كل سور ثلاثة حصون ، تنهض بقلاعها المنيعة وأبراجها العالية ، فنزل

المسلمون بادئين بحصن من حصون النطاة .

وكان الحباب بن المنذر ـ كعهده يوم بدر ـ صاحب بصر باختيار الموقع الملائم ، فأخذ يسأل الرسول : أهذا منزل لا محيد عنه ؟ أم أنها الحرب والمكيدة ، فقال الرسول : لم أؤمر بهذا المكان ولكنها الحرب، فقال الحباب : يا رسول الله ، إن يهود النطاة ذوو بصر بالرمي ، وهم يرتفعون علينا في أعلى الحصون ، وسيقومون بإرسال النبال والسهام علينا دون حاجز ، وهم في الأعلى ونحن في الأسفل، فلا بد أن نتحول إلى مكان لا تبلغه السهام ، فتبع الرسول مشورته ، وأعمى الله أمر المسلمين على خيبر فلم يشعروا أنهم يحاصرونهم ليلا ، إذ ما طلع الصباح حتى حملوا فؤوسهم ومحاريثهم واتجهوا إلى مزارعهم كما اعتادوا ، فصدمهم الواقع صدمة مرعبة ، وصاحوا : محمد والخميس ! فصاحت الجيوش الغازية : الله أكبر ، هلكت خيبر ، ثم أسرعوا يوصدون الحصون ، وقد استعدوا لمقاومة طويلة في حسابهم ، لأنهم يدخرون بداخل الحصون ما هم في حاجة إليه من الطعام والشراب ، فإذا طال الأمد بهم وبالمسلمين ، فعندهم الزاد والمؤونة ، وليس مع المسلمين ما يكفي بضعة أيام ، فيضطرون مرغمين إلى الانسحاب ، ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الحشر : ٢] .

وكان في نية الرسول أن يعجل بالقوم ، فبدأ يقطع الشجر حول الحصون ليظن القوم أن ثمارهم ستستأصل جميعها ، فينزلوا للقتال أو يستجيبوا للمصافاة ويذعنوا للسلام ، ولكنهم لم يعبأوا بقطع النخيل ، اتكالا على ما يدخرونه داخل الحصون ، فأشار رسول الله بتوقف القطع ، وبدأ معركة حصار ينذر بالبطء ، إذ مضى أكثر من سبعة أيام دون عمل حاسم غير التراشق بالسهام ، فلما كانت الليلة الثامنة قال رسول الله ﷺ : سأعطي الراية غدًا رجلا يحب الله ورسوله ويحبانه ، فبات المهاجرون والأنصار وكل مسلم يتمني أن يكون صاحب الراية المشار إليه فيعلم أن الله يحبه ، حتى قال عمر ابن الخطاب : ما تمنيت الإمارة إلا ليلة خيبر ، فلما كان الغد دعا رسول الله ابن عمه على بن أبي طالب ، وأعطاه الراية . وكان بطل اليهود (مرحب) قد هم على النزال ، وله شهرة بالشجاعة ، فوقف أمام حصن (ناعم) ودعا إلى المبارزة ، ومعه سيفان اثنان ولامتان اثنتان ، إرهابًا وتخويفًا ، وقد استند إلى باب الحصن ، وفيه يقول القائل :

ولم أر قبل مرحب من كمى بثنيّ في الوغى سيفًا ولاما

ولم يجبن على عن لقائه ، بل تذكر موقفه يوم الخندق مع عمرو بن ود ، وكان أكثر منه شجاعة ، وأبعد صيتًا ، فتقدم إلى غريمه واثقًا ، ودارت معركة رهيبة ، فسقط فيها مجن مرحب ، فخلع باب الحصن في سرعة وتترس به ! والذي يخلع الباب في لحظة ويرفعه في لحظة

ويرفعه في يده ، إنسان قوي بلغ من القوة شيئًا ذا بال .

وكان جديرًا بذلك أن يرهب منافسه ، ولكن عليًا رضي الله عنه تقدم واثقًا بالفوز ، وأخذ يداوره حتى أصاب منه مقتلا نافذًا فهوى يتخبط في دمه ، وتشجع المسلمون من خلفه ، فاقتحموا الحصن بعد أن نزع بابه ، ونازلهم اليهود منازلة شديدة حتى كادوا يردونهم على أعقابهم ، لولا أن ثبت الحباب بن المنذر ، فدعا المسلمين إلى الكرة ثانية ، وبدأ بنفسه ، فزحف بهم إلى الحصن ، وظن القوم أن مددًا قد تتابع من المدينة لإسعاف المسلمين ، فأدركهم الهلع ، وسيطر المسلمون على الحصن حيث تتبعوهم في كل منعطف ، ووجدوا من الزاد شيئًا كثيرًا بداخله ، تمرًا وسمنًا وزيتًا وعسلا وشعيرًا ، وكانوا على أبواب مجاعة مؤلمة ، إذ نفذ زادهم في أيام الحصار ، فكان الاستيلاء على الحصن باعث رزق وفير ، على أن الأمر لم يقتصر على الزاد وحده ، بل كان موردًا للذخيرة الحربية الكثيفة ، إذ عثر المسلمون على حفر كثيرة داخل الحصن تمتلىء بالدروع والسيوف وآلات الحرب المختلفة ، ومن بينها (المنجنيق) ، فكان ذلك باعث عزم وثاب أنعش الروح المعنوية ، وبشر المسلمين بقرب النصر الحاسم الذي ظهرت بوادره الكاشفة ! فقد كانوا ذوى جوع فشبعوا ، وكانوا يفتقرون إلى السلام فغنموا منه أكثر مما كانوا يحتاجون ! على أن حصن (ناعم) هذا لم يكن غير حصن واحد سيليه حصون أخرى ، ولكنه ضاعف

روح القتال لدى الغزاة ، إذ أطمعهم في نظائره وأمدهم باطمئنان أكيد .

واتجه المسلمون إلى حصن (الزبير) بعد سقوط حصن (ناعم)، وقد امتاز هذا الحصن بمناعته الشديدة ، لأنه ينهض فوق قمة عالية وحوله هضاب تترامي ، فالوصول إليه عسير ، لذلك ظل المسلمون أمامه ثلاثة أيام لا يستطيعون أن يصنعوا شيئًا ، حتى علموا أن جدولا من وراء الحصن يشق طريقه بين الهضاب الوعرة ليسر لهم الشراب ، فحاولوا البحث عنه حتى عثروا عليه ، فأمر الرسول بتحويل مائه عن طريقهم ، فتعب اليهود لذلك ، وشق عليهم أن يموتوا من الظمأ ، فخرجوا ليقاتلوا مستبسلين ، ويقول الرواة : إنهم جالدوا أبلغ قتال فما استطاعوا أن يدفعوا عنه ، وحين وقع في أيدي المسلمين أصبحت مستعمرة النطاة جميعها في حوزتهم، وفر من استطاعوا الفرار إلى ما بقي من الحصون ليكونوا عونًا لزملائهم هناك .

وتقدم المسلمون إلى حصن (أبى) وهو الآخر قد شيد على قمة جبل ، وقد ثبت أصحابه ثباتًا رائعًا ، ولولا أن أبا دجانة رضي الله عنه قذف بنفسه إلى الداخل في وثبة فدائية فأوقع الذعر بمن ظنوه يسوق مددًا كبيرًا ، ولولا أن المسلمين تشجعوا من خلفه فتابعوه لطال أمد الحصار ، ولكنهم فرغوا منه لينتقلوا إلى حصن (البرئ) وهو حصن جمع فلول الهاربين منحازين إلى إخوانهم هناك ، وقد

تسلقوا الأسوار وحملوا السهام وواصلوا الرمي ، حتى كاد رسول الله أن يصاب ، وعلق النبل بسهامه ! ولم يجد المسلمون مفرًا من نصب المنجنيق ، ليردوا على حملة السهام المتدفقة كالغيث ، ففوجىء اليهود بأداتهم الحربية ترميهم ، وتقذف في قلوبهم الرعب، فأسلموا الحصن وفروا هاربين .

وتتابعت المعركة ، فسقط حصن (القموص) على يد علي بن أبي طالب بعد جهد شاق دام عشرين ليلة ، ولم يبق غير حصنين فقط هما حصنا الوطيح والسلالم ، فآثر أصحابهم السلامة ، ونزل زعيم القوم (كنانة بن الربيع) فصالح رسول الله على حقن الدماء والخروج من أرض خيبر ، فوافق ، ولكنهم تذللوا متصاغرين وطلبوا البقاء على أن يزرعوا الأرض ، فهم أدرى بها وأخبر ، وأن يعطوا المسلمين نصف ثمارها ، وتبعهم يهود فدك ، فتصالحوا على مثل ما تم مع إخوانهم ، وكذلك يهود وادى القرى ، إذ مالوا إلى الصلح بعد محاصرة وقتال ، أما يهود تيماء فلم يقاتلوا ، وارتضوا بالجزية ! وهكذا سكن أمر اليهود بعد اضطراب ، ولم يصبحوا ذوى أثر حاسم في الجزيرة العربية ، إذ ووجهوا بما لا يدفعون .

وكانت معاملة الرسول ليهود خيبر تختلف عن معاملته لبني قينقاع وبني النضير ! إذ صمم على جلاء الآخرين ، وارتضى أن يقيم يهود خيبر وفدك وأم القرى ببلادهم ليباشروا الزراعة ، ويأمنوا شطط الاغتراب ، ويقول بعض المؤرخين في تعليل ذلك :

إن أمر بني النضير وبني قينقاع يختلف عن أمر يهود خيبر ، لأن الفريق الأول مقيم بالمدينة ، يطالع الأسرار ويؤلف وكرًا خبيثًا من أوكار التجسس ، وقد عاهدهم الرسول صادقًا ، ليقيم وشائج المعروف بينهم وبينه ، فما ارتضوا باب المصافاة ، ولجوا في العناد حاقدين ، فكان لا بد من الجلاء ، أما يهود خيبر فبعداء لا يطلعون على سر ، ولا يؤلفون وكرًا للدسائس بعد هزيمتهم ، إذ لم يبق من زعمائهم من ينهض للوقيعة وقد عاينوا الموت عن يقين ، ولا قبل لهم بعد أن انهارت الحصون بمقاومة المسلمين ، فإذا تركوا حينئذ في خيبر فلا ضير ! على أنهم أهل زراعة وسيقومون باستثمار الأرض مناصفة فيكسبون ويكسب المسلمون ! ولو تحقق جلاؤهم لظلت الأرض بورًا لا تجد من يتعهدها بالزرع ، ولن يفيد المسلمون حينئذ منها شيئًا ، فكان من الأوفق أن يتركوا للزراعة بعد أن قلت شوكتهم واستكانوا طائعين .

وطبيعي أن تنطوي بعض النفوس على الشر ، لأن من هؤلاء المنهزمين من فقد في المعركة أعز الناس لديه من أب أو ابن أو زوج، وقد عمدت يهودية حاقدة هي زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم زعيم اليهود إلى شاة مسمومة فقدمتها إلى رسول الله ، فأكل منها ، وأدرك ما بها من الغدر ، فجعل يلفظ ما أكل ، ولم تزل بواعث السم تدفع العلة إلى جسمه الطاهر حتى لقي ربه ، وقد عفا عنها ، فلم يهتم بمؤاخذتها مع اعترافها الصريح ! ولو كان غير

رسول الله لبادر بالانتقام ، وقد تعمدت قتله وآذته في جسمه أبلغ الإيذاء ، ولكنه رسول الله .

ب ـ نتائج المعركة

١ ـ غنم المسلمون من خيبر مغانم كثيرة ، عوضت كثيرًا مما فقدوه ، وعاونت على نهوض الدولة الناشئة ، وقد قسم الرسول الغنائم على النحو الذي فرضه القرآن ، وكانت هذه الغنائم هي الفتح القريب الذي عناه الله في قوله : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح : ١٨، ١٩] .

٢ ـ أمن المسلمون شر اليهود نهائيًا ، وكانوا من أقوى بواعث الاضطراب ، لأنهم يفوقون المشركين ومن حول المدينة ومن بها من المنافقين كيدًا ووقيعة وإمعانًا في الدس ، فإذا فرغ منهم المسلمون فقد اجتنبوا أشق ما يترصدهم من تهديد ، وقد قضت هذه الغزوة عليهم قضاء نهائيًا في أقاليم الحجاز .

٣ ـ فزعت قريش لما سمعت ، وقد جاءها الأمر أولا على نقيض ما تم في مبدئه ، إذ ذهب إليهم من يعلن لهم هزيمة المسلمين ، فاستطاروا فرحًا ، وأخذوا يشمتون بالعباس بن عبد المطلب وبني هاشم ومن بقي بمكة من مستضعفي المسلمين ، فلما بان وجه الحق انكفأوا إلى بيوتهم آسفين .

٤ - تفرغ رسول الله إلى مكاتبة الملوك ، واستقبال الوفود ، وإيضاح شريعة الحق ، على نحو لا تزعزعه القلائل أمدًا غير قصير، وذلك كسب كبير .

*****

قصة الحجاج السلمي

رجعت قريش بعد صلح الحديبية غير مستريحة لشأنها مع رسول الله ، فقد تأكدت أن نبي الإسلام في منعة من المسلمين ، وأن أمره إلى ازدياد ، وهو بعد أحد ، يسير من نصر إلى نصر ، فما قام في وجهه أحد ، حتى الجموع الغفيرة التي احتشدت يوم الأحزاب ، وضمت شتى القبائل المتنافرة التي لم تجمعها غير عداوة محمد ، هذه الجموع قد هلعت وفزعت حين رأت الريح والبرق ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا شيئًا .

لذلك ظلت تتحسس الأنباء عسى الأيام تسعفها ببعض ما تريد، وقد جاءها العباس بن مرداس السلمي يعلن في فرحة ـ ولم يكن قد أسلم بعد ـ أن محمدًا قد ذهب لقتال خيبر ، وأنه لن يفلت من الهلاك ، حين خاطر بنفسه وبجيشه ، فاعتسف الصحراء إلى حصونهم المنيعة ، وآطامهم العالية ، وقد أعدوا السلام المبيد ، وبعثوا في شراء المجانيق والدروع والنصال والسيوف ، وفيهم قائدهم (مرحب) ذو البأس ، ولن يؤوب المسلمين بغير الخيبة المحققة ، إذ ظنوا في أنفسهم القوة أمام خيبر ، وهم شراذم مستهلكون .

ما كاد العباس بن مرداس يذيع ذلك ، حتى دبت الفرحة في

قلوب المشركين ولعب الشيطان بعقولهم ، فتأكدوا أن الهزيمة واقعة بالمسلمين ، وفيهم من تحمس للرهان حين قال العباس بن مرداس: من شاء راهنته على أن محمدًا لن يفلت من القوم ، فقال صفوان بن أمية ، ونوفل بن معاوية : نحن معك يا عباس ! وقام حويطب بن عبد العزى مع ملإ من بني هاشم يعلنون أنهم يراهنون واثقين بنصر محمد ، وانعقد الرهان على مائة بعير يدفعها حويطب وحزبه إن انهزم رسول الله ، ويدفع مثلها العباس وصفوان ونوفل إذا انتصر ! وتحمس القوم ينتظرون نتائج المعركة في قلق ، وكأنهم معركة مكة لا معركة خيبر ، وحين طال الأمد على المنتظرين بعض الوقت أخذوا يرسلون الطلائع ، ليسألوا من يعتسف الطريق من القبائل الراحلة هل سمعوا شيئًا عن أمر خيبر ، وكل فريق من المتراهنين يحسب حسابًا وينتظر يومًا مشهودًا .

علم الحجاج بن علاط السلمي بما كان من أمر الرهان ، وكان قد نوي الإسلام عن قلب صادق ، ويقين حازم ، وهو تاجر ثرى ، له أمواله وجواهره لدى القرشيين بمكة ، فانضم إلى الجيش الإسلامي بخيبر حتى واتاه الله النصر ، فتقدم إلى رسول الله قائلا : يا نبي الله ، لقد تزوجت امرأة بمكة ، لديها ودائعي الكثيرة ، وللكفار من المشركين هناك تربص بي إذا أسلمت حيث يمتنعون عن سداد ديونهم ، وهي من الكثرة بحيث يحزنني أن ينتهبها الأعداء ، أفتأذن لي أن آتي مكة ، وهم يتربصون النبأ هناك ،

فأعلمهم كذبًا بانهزام المسلمين ، وأجمع أموالى بحجة أني سأتاجر فيما يعرض من غنائم المسلمين ، وأعود إليهم بالغنيمة ، والخير والرخاء ! أفتأذن لي يا رسول الله ؟ وهم يجهلون أني مسلم ، فأحتال لنفسي وأرجع بالمال ، وقد عرف الرسول فيه صدق القول ، فأذن له أن يقول ما يشاء حتى يعود .

وطار الحجاج حتى أتى مكة ، فوجد أهلها على مثل الجمر ترقبًا لنتيجة خيبر ، فصاح بالقوم يعلن هزيمة المسلمين ، ويزيد فيقول : إن يهود خيبر قد أسرت محمدًا ، ولم تشأ أن تقتله حتى تفد به أسيرًا إلى مكة ، فتسلمه إليكم حيث شرد أمنكم ، وقتل وجوهكم .

ثم قال الحجاج : لم يلق محمد وأصحابه قومًا يحسنون القتال كما لقي من أهل خيبر ، لقد ساروا في العرب يجمعون الجموع حتى رصدوا له عشرة آلاف بطل مدججين بالسلاح ، ويصممون على النصر ، آخذين بثأر بني قريظة والنضير ، وقينقاع ! وقد حفظوا كرامتكم إذ قدروا أن تكونوا قتلته نكاية فيه ، وما هي إلا أيام يفرغ فيها القوم من أمرهم ، ويأتون إليكم بالأسير !! وهأنذا قد بشرتكم، فأعينوني على جمع مالي لأصيب من غنائم محمد قبل أن تسبقني التجار إلى ما هناك .

ثم انكفأ إلى داره ، فقابل زوجته ، وكانت شرسة عنيدة تكره المسلمين كراهة مفرطة ، لأن والدها سادن الكعبة وخادم الأصنام، وقد جاء الإسلام ليحطم الشرك ويمحق الأوثان ، فكيف ترجو

نصر محمد ، والحجاج يعلم أنها لو عرفت إسلامه لمنعته أن يأخذ ما لديها من الجواهر والحلى ، ولأظهرت أمره في الناس ، فقال لها : يا أم شيبة ، أريد أن أدلج إلى خيبر قبل أن يسبقني التجار إلى شراء الغنائم ، فهاتي كل ما عندك ، فسأربح أعظم ربح ، ولك أن أضع في يدك حين أعود جميع ما أملك فأنت ذخري وأهلي ، فنهضت نشيطة تقدم كل ما تحرز ، وتستعجله أن ينهض سريعًا كيلا يتقدم سواه .

فشا الأمر في مكة ، وأظهر المسلمون انكسارًا أليمًا ، وسمع العباس بن عبد المطلب بما كان ، فجعل يقوم ويقعد متألمًا ، وقد حضر إليه الناس بين كافر شامت ، ومسلم يظهر الكفر ويبطن الإسلام ، فأظهر التجلد ، ولزم جانب الحزم في إظهار نفسه على طبيعته دون تغير ، ثم دعا أحد أعوانه ، فقال له : اذهب إلى الحجاج فقل له يقول لك العباس : الله أرأف بمحمد وصحابته أن يحدث ما ذكرت وأن يكون الذي جئت به حقًا ، فنكس الحجاج رأسه وقال للغلام : اقرأ على أبي الفضل السلام ، وليخل لى في بعض بيوته لأعلمه بما يسر ، فطار الغلام وكأنه يسابق الريح ، وقال : أبشر يا أبا الفضل ، فوثب العباس من فوره ، وأعتق غلامه وكان يسمي أبا زبيبة ، ثم قال : لله علىَّ عتق عشر رقاب من بعد ! فلما حانت الظهيرة قدم الحجاج على العباس ، فقال له : لتكتمن الأمر يومًا وليلة حتى أكون في مأمن من القوم بعد الرحيل ، مطمئنًا على حياتي

ومالي ، فإني أسلمت ، وقد احتلت لأجمع المال من قوم نكداء وامرأة شرسة ، لقد تركت رسول الله وقد جرت السهام بنصره ففتح خيبر ، وانتثل ما فيها ، وعرس بصفية بنت حيى بن أخطب ، وقد صدقتك الحديث ثم ودعه معانقًا .

انتظر العباس حتى أكد أن الرحلة قد بعدت بالحجاج ، وليس في طوق قريش أن يلحقوه ، فتزيى بأجمل ملبس ، وحمل عصاه ، وتخلق بخلوق ، ثم أقبل يخطر حتى أتى دار الحجاج بن علاط ، فقرع الباب ، فقالت زوجته شامتة : هيا أبا الفضل تفضل ، لا يحزنك الله ، لقد شق علينا ما بلغك ، فقال العباس في تؤدة : لن يحزنني الله أبدًا ، لم ينزل بمحمد إلا ما يسر ويزين ، فقد فتح الله عليه خيبر ، واصطفى بنت رئيسها زوجة لنفسه ، وقد أسلم زوجك، وأخذ ماله ، فإذا كان لك رغبة في الإسلام فالحقي به !

فوجمت أم شيبة ، وسألت في فزع : من أخبرك يا ابن العم ! قال العباس : أخبرني بنفسه ، وما جاء إلا ليحرز ماله ويسير ، ثم انطلق في أكمل لباسه ، وأجمل زينته إلى المسجد ، فلما رآه المشركون تغامزوا متضاحكين ، وانهالوا سبًا لرسول الله ، وصاح به صائحهم: علام الزينة يا أبا الفضل ، وابن أخيك أسير اليوم ، وقتيل الغد ! فصاح العباس : إلىّ أيها القوم ، إلىّ أيها القوم ، ليس الأمر كما تزعمون ، لقد زارني الحجاج ، وأعلن إسلامه ، وقال إنها حيلة ليجمع أمواله من أيديكم ، أما الذي لا شك فيه فإن رسول

الله قد انتصر على خيبر ، وقتل المسلمون أشراف اليهود وزعماءهم ، وملكوا أرضهم ، وسبوا نساءهم ، فهاج القوم مذعورين وفيهم من تطاول على العباس مكذبًا شاتمًا ، ونفر حويطب بن عبد العزى إلى صفوان ونوفل يطلب الرهان ، إذ كان غير ما يظنان !

وتجمع المكيون ما بين مصدق ومكذب ، وهم في هرج ومرج ، لا يكاد أحد منهم يجزم بشيء ، حتى اهتدى بعض ذوى الرأي إلى سؤال جيران العباس : هل شاهدوا الحجاج يزوره في منزله ، فقالوا: نعم ، قالوا : وهل ودعه العباس ، قالوا : كان سعيدًا مبتهجًا ، وغلامه يثب من الفرح ، ويصيح ، لقد أعتقني سيدي !

قال قائلهم : وكيف لا نعلم ذلك ، قال الجار المتحدث : ظننا العتق دفعًا لمظنة الحزن ، وإظهار عدم الاكتراث أمام الداهية النكراء، لأن العباس يريد أن يعلن أن الحزن لم ينله ، وأن قتل محمد وبقاءه سيان !

قال الراوي : وتسرع بعض من ركبوا النجائب للحاق بالحجاج، وجعلوا يسألون زوجته : أين توجه ؟ فصاحت مولولة : أخذ كل ما عندي ، وما أظن حديث العباس إلا صحيحًا ، لأني تبينت لديه حرصًا على جمع الضئيل والحقير ، وما يفعل ذلك من يريد أن يعود.

قال قائل : وكيف خفي عليك ذلك ؟

فصاحت متحسرة : كما خفى عليكم جميعًا ، وقد أعطيتموه كل ما أراد ، أما لو كان لدى أحدكم بقية من عقله ، لاستشار ودقق ،

ثم جمعتم من رجالكم من يصحبه في طريقه حتى إذا كان الأمر على غير ما أعلن عدتم به أسيرًا ذليلا ليلقى جزاء الخادع الكذوب!

وأقبل الليل فكان أشد ظلامًا على مكة ، وأبعث هولا ، فالوجوه عابسة والقلوب مكتئبة ، ونجاة الحجاج بما ادخر من المال ، وجمع من القلائد ، غصة في كل قلب ، وشجى في كل حلق .

أما المسلمون المستترون فما أبهج ما سعدوا ، وما أسرع ما هرعوا إلى منزل العباس فرحين مغتبطين .

*****

غزوة مؤتة

حين خاصمت قريش رسول الله في مبدأ البعثة النبوية الشريفة ، واشتكت إلى أبي طالب ما جاء به ابن أخيه من تسفيه أحلامها ، وتحقير أصنامها ، فكلم رسول الله يدعوه إلى مهادنة المشركين فلا يأتي بما يجرح مشاعرهم الدينية ، حين قامت قريش قومة رجل واحد في وجه النبي الأعزل ، وحبب له عمه أن يهادن ، وقف شامخًا كالطود ، زائرًا كالأسد ، يهتف في ثقة : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أول أهلك دونه !.

هذه هي الثقة المفرطة التي تجعل الأعزل يتحدى قومه جميعًا !! هذه الثقة نفسها هي التي دفعته حين أمن الطريق بعد صلح الحديبية أن يكاتب ملوك الأرض ليدعوهم إلى الإسلام ! وفيهم من يظن أنه أعظم رجل في العالم ، وأن أكبر قوة لا يمكن أن تقف أمام قوته ! ولكن النبي العربي يرسل إليه من المدينة يدعوه إلى الإسلام ؟ والعرب جمعيًا في عينه لا شيء .

فما تعليل هذا الموقف النادر الذي نراه لدى إنسان مفكر عاقل ، يحسب لكل شيء حسابه ، ويزن الأمور شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالا بميزان دقيق لا يختل ! إنك لو أجهدت نفسك في تعليل غير ثقة الرسول بصدقه ، وإيمانه بما جاء به من عند الله ، فلن تجد سوى

ذلك من تعليل .

بهذه الثقة الواثقة ، وبهذا الإيمان الراسخ ، بعث الرسول كتبه إلى ملوك الأرض وأمرائها ، يدعوهم إلى الإسلام ، فوجه دحية الكلبي بكتابه إلى قيصر الروم ، وبعث الحارث بن عمير الأزدى إلى أمير بصرى بكتاب مماثل ، فلما بلغ مؤتة ، وهي إحدى قرى البلقاء بالشام ، تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني ، وعرف مقصده ، فركب رأسه غرورًا وقتله ، ولم يقتل لرسول الله مبعوث سواه ، كما وجه شجاع بن وهب إلى أمير دمشق ، ووجه حاطب بن بلتعة بكتاب إلى المقوقس حاكم مصر ، وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي صاحب الحبشة ، وعبد الله بن حذافة إلى كسرى ملك الفرس ، ثم إلى من دونهم من أمراء العرب في الجزيرة ـ كالمنذر بن ساوى ، وابن الجلندى ملكي عمان ، وهوذة بن علي ملك اليمامة ! .

والعجيب أن يسلم من أرسلوا إلى هرقل وكسرى وسواهما ، ثم يتجرأ عامل شرحبيل على رسول الله ، فيوثقه بالحبال ، ويقطع رقبته ، وهو صنيع همجي يدل على توحش صاحبه ، وتحجر نظره السياسي ، وتبلد شعوره الإنساني ، فإذا أضيف إليه أن الغساسنة قد ناوءوا الإسلام مناوءة صريحة حين أخذوا يتبعون مع الوالي الروماني من أسلم من العرب قتلا وإزهاقًا حتى استنصروا برسول الله لائذين ، وتجرأ شرحبيل على قتل حامل الكتاب مستهترًا مستخفًا ! فإن ذلك كله مما بعث الرسول على غزوة مؤتة لتأديب

من توقحوا على الإسلام وتجرءوا على العرف السياسي متكبرين !

وعجيب أن كثيرًا من الكاتبين لا يذكرون في أسباب غزوة مؤتة غير قتل الحارث بن عمير وحده ! وهو في صميمه كالقطرة التي فاضت بها الكأس حين امتلأت ! وقد سبقه قتل العشرات من أطهار العرب بغيًا دون حق ! وهو ما أشر إليه ابن تيمية رحمه الله حين ذكر في رسالة القتال ، أن الرسول ﷺ ما تهيأ لغزو الروم في مؤتة إلا بعد أن قتل الوالي الروماني وصنائعه من الغساسنة من اعتنقوا الإسلام في ديار الشام ، وقد أيد ذلك أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة في المجلد الثاني من كتاب (خاتم النبيين) ص(٩٥٧) ، فقال رحمه الله بعد أن ذكر مقتل الحارث بن عمير الأزدي :

(وتلك ـ غزوة مؤتة ـ لأنهم فتنوا المؤمنين بقتل بعضهم ، فكان ذلك إرهابًا لمن يهم بالدخول في الإسلام ، كما قتلوا رسول النبي الأمين في وقت صارت عند النبي ﷺ القوة الفاصلة العليا في البلاد العربية ، فكان لابد لذلك من أن يقاوم الغدر ، لأن في السكوت ذلة لأهل الإيمان ، وذلة للعرب أجمعين ، وهم بصدد أن يقوموا بدعوة الحق ، وحماية الشعوب من طغاتها) .

تأثر رسول الله حين سمع عن مقتل الحارث ، ورأى الأمر في حاجة إلى ردع حاسم ، يخفض به رءوسًا ترتفع في ميدان الباطل ، مستطيلة عن غرور ، متأففة عن تورم وانتفاخ ، ولم تكن المسألة هينة ؛ فالروم هم الروم ، ولهم مدهم الزاخر الذي لا ينقطع ،

ولكن الرسول يعلم أن المسألة ليست مسألة ذخيرة وعدد فحسب فلابد من الإيمان ليسند العدد الكثيف ، ويحسن استعمال الذخيرة الواقية ! والروم ومن تبعهم من العرب صرعى تمزق طبقي ، وتحاسد طائفي ، وشقاق سياسي على السلطان ، وفيهم من ينضوي تحت لوائهم كارهًا مضطرًا ، ولعله ينتظر ساعة الفكاك لينفس عما يشتجر في صدرره من لهيب ، وقد اعتاد الرسول أن يفاجئ أعداءه في مطمأنهم حتى يأخذهم على غرة متى عزم على حربهم ، فأوصى الجيش الزاحف من المدينة بكتمان الخطة ، وقد جعل أمير القوم مولاه زيد بن حارثة ، فإن قتل فجعفر بن أبى طالب ، فإن قتل فعبد الله بن رواحة ، فإن قتل فليرتض المسلمون من بينهم قائدًا يؤمرونه عليهم .

ومؤرخ الحروب النبوية يقف دهشًا أمام من عينهم الرسول للقيادة واحدًا وراء واحد ، إذ لم يكن من عاداته أن يعين أسماءًا تلي القائد الذي يحمل اللواء متقدمًا من المدينة ، فما باله يعين ثلاثة من القادة ، ويترك الخيار للمسلمين في الرابع ! أهو الغيب المحجب كان يكشف لبصيرته شيئًا فشيئًا حتى ليكاد يرى ما سيكون وكأنه قد كان ! أم أنه الحذر المتوقع لدى مواجهة جيش كثيف لدولة عريقة ذات مدد ونفوذ ورهبة وجبروت ! مهما يكن الأمر ، فقد سار الجيش على بركة الله في ثلاثة آلاف ليجدوا أمامهم مائتي ألف ! وهو عدد رهيب يبتلع الجيش الزاحف إليه كما يبتلع المحيط الأجاج

جدولًا صغيرًا ينساب إليه بماء زلال ولم يكن المسلمون ليقدروا في نفوسهم أنهم سيصدمون لجيش عدده مائتا ألف ! وأن الصمود ساعة واحدة أمام هذه السيول البشرية المتلاحقة لشجاعة نادرة يجب أن يباهي بها من ينصف البواسل من الأبطال !

لقد وقع في نفوس المسلمين أن يكتبوا لرسول الله بعدد العدو قبل الالتحام ليروا رأيه في الرجوع أو الإمداد ، ولكن عبد الله بن رواحة ، وكان شاعرًا يجمع إلى نفسه رقة الإحساس وصدق الإيمان، صاح بالقوم في حماسة توقدها الحمية : (يا قوم ما لكم هكذا ترددون ، إن الشهادة التي تكرهون هي المثوبة التي تربحون والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ، ولا بقوة سلاح ، ولا بوفرة خيل ، ما نقاتلهم إلا بالدين الحنيف الذي أكرمنا الله به ، انطلقوا يا قوم ، فوالله لقد جاء يوم بدر علينا وما معنا إلا فرسان ، وجاء يوم أحد وما معنا إلا فرس واحد .. انطلقوا يا قوم فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور على الأعداء ، وذلك ما وعدنا الله ورسوله ، وليس لوعد الله من خلف ، وإما الشهادة فحبذا هي ، وحبذا أن تلحق بمن سبقنا من الشهداء) .

كانت خطبة ابن رواحة كافية في حسم الخلاف ، فصمم المسلمون على منازلة العدو في أرضه بالغة جيوشه أعلى ما تبلغ من الأرقام ، وقد صمموا على أن يكون القتال في (مؤتة) ليتحصنوا بها ، وما واجهوا الروم حتى وجدوا السيل المتدفق من جميع

الجهات ، ولو رجعوا مدبرين ما لامهم أحد ، ولكنهم واجهوا الهول ، فحمل الراية زيد بن حارثة وظل يقاتل حتى استشهد ، فتلقفها جعفر بن أبى طالب ، وكان حريصًا عليها كل الحرص ، وقد أحاط به العدو ، فأسقطه من فوق فرسه ، فحمل الراية راجلا ، ثم ضربت يمينه ، فحملها بشماله ، فضربت شماله ، فاحتضن اللواء بعضديه ، وما مات حتى وجد بجسمه نحو تسعين طعنة) !.

أي موقف بطولي هذا الذي يعجز الوهم عن تخيله ، فضلا عن الاعتقاد بأنه حق واقع لولا ما نعرف عن سيطرة الإيمان على نفوس الصفوة من الشهداء .

وانتقلت الراية إلى عبد الله بن رواحة ، وبعض الكتب تروى أنه تردد بدءًا ، وأي إنسان في موقفه لا يتردد ، والموت المكتسح يحيط به من كل مكان ! ولكن الذي نعلمه من حماسة عبد الله ، والذي نعرفه من أنه هو الذي دفع بالمسلمين إلى المعركة قبل الالتحام ، وخطب فيهم خطبة منْ يقذف نفسه في اللهيب ابتغاء مرضاة الله ، وطمعًا في الاستشهاد ! إن الذي نعرفه من ذلك كله يجعلنا نذهب مذهب من ينكرون أنه تردد بدءًا ، معللين ما بدا عليه من الانكسار بالرهبة من فداحة المسئولية ، وقد أصبح قائد القوم !

لقد كانت القيادة من قبل لسواه ، ينهض بعبئها ، وينشط لواجبها ، وها هو زيد قد استشهد وتلاه جعفر ! لا مفر إذن من الاقتحام ، ولا معدى من لقاء الطوفان المتلاطم ، بل لا معدى من

الموت ، وقد لقيه دون اتئاد ، إذ كان من هم العدو أن يترصد صاحب الراية ليسقطه قتيلا ! فيلقى بالجزع في نفوس تابعيه ! وقد وفق الله المسلمين لاختيار خالد بن الوليد بعد استشهاد ابن رواحة، وخالد هو خالد في صدق فراسته الحربية ، وتقديره الدقيق لما يكتنفه من هول تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ! كهول يوم الحشر سواء بسواء !!

تسلم خالد الراية ، والشمل شتيت ، والعدو متجمع ، فجعل يداور حتى يجمع صفوف قومه ، وأخذ يتقدم ويتأخر منتظرًا غروب الشمس حتى يلتقط أنفاسه ، ويفسح له الليل أن يهيئ طريقًا آخر ، غير طريق الالتحام المباشر ، وحين تم له ما أراد رأى أن يجمع المسلمين في صف طويل يمتد أمام العدو ، بحيث يكون الآخر في اليوم السابق أول الكتيبة ، فيظن العدو أن مددًا قد جاء ، وقد نجحت الحيلة ، فتوهم الروم أن المسلمين قد أغيثوا بالمدد الجديد ، وتوقفوا عن مهاجمة خالد ، فاهتبلها فرصة للانسحاب التدريجي ، فظنوه يدبر خطة ، ومنهم الجبن أن يلاحقوه ، بل إن بعضهم فر من الميدان على حذر .

وهكذا تفرق الجيشان دون أن ينتصر أحدهما في ظاهر الأمر ! أما في باطنه فنحن نرى أن الروم قد أصيبوا بالخذلان والاندحار ، وإلا فكيف يجبنون عن متابعة قوم لا يبلغون عشر معشارهم في العدد، وكان من متحمسي المسلمين ممن أقاموا بالمدينة ولم يشهدوا الهول

الكاسح في مؤتة من انتقد خالد وجماعته ، وظن الانسحاب هزيمة! ودعاهم بالفرار ، ولكن رسول الله ﷺ لم يغب عنه رهب الموقف وخطره ، فحمد لخالد ما صنع ، ورد على من وصفوا المنسحبين بالفرار ، بأنهم كرار لا فرار حقًا ! وإن كان قد آله أشد الألم أن يستشهد القادة : زيد وجعفر وابن رواحة . وكان استشهاد جعفر موجعًا ، لأنه قريب عهد بالمدينة ، إذ لم يأت من الحبشة إلا منذ قريب ، وله زوجة تبكي ، وأطفال يتأوهون ، وتلك مشاعر إنسانية تستولى على النفس فتنقلها من حال إلى حال، وهل الناس إلا من مشاعر وأحاسيس ؟

على أن ذلك لم يمنع رسول الله أن يتدبر الموقف فقد علم أن انسحاب المسلمين كان مصدر شماتة لأعدائه ، ومبعث فخر لمن فرحوا بالاندحار في ديار الشام ، فأراد أن يثأر لجنده سريعًا ، وبعث عمرو بن العاص على جيش فيه أبو عبيدة وأمر ابن الجراح أن يطيع ابن العاص إذا اختلفا ، وكان أبو عبيدة سمحًا سهلا فتابع ابن العاص فيما أراد ، وتم للجيش الإسلامي أن يلتحم بجموع من أهل الشام ، فبددهم منتصرًا وحفظ للمسلمين هيبتهم ورجع موفور الحظ من التوقير والإجلال .

ولا نختم الحديث عن غزوة مؤتة حتى نقل تعليقًا بارعًا كتبه العلامة الأستاذ محمد فريد وجدي (في مجلة الأزهر : ربيع الثاني ١٣٦٢هـ) معقبًا على انسحاب المسلمين من المعركة دون انتصار ،

وهو ما لم يجمع في كتاب ، بل ترك من مقالات مجلة الأزهر العديدة التي كتبها تباعًا تحت عنوان (السيرة المحمدية في ضوء العلم والفلسفة) . وهذا التعقيب يكشف معني تعاقب النصر والهزيمة على الجيوش الإسلامية ، في حين أنها تدافع عن الحق ، وأنها مؤيدة بنصر الله ، إذ يقول الكاتب الكبير ببعض التصرف :

(يلاحظ بعض الناظرين ذلك ويقولون : أليس محمد لو كان نبيًا لأوحى إليه بما يصيب أصحابه من المحن فلا يعرضهم لها ؟ ونحن نرد على ذلك بأن الله أراد أن يقيم المسلمين أمة تدين بدينه ، فقضى أن تكون ذات كيان عالمي ، تفكر وتدبر بنفسها دون أن تكون حركاتها وسكناتها معتمدة على الوحي ، إذ أن الوحي متى انقطع بوفاة النبي المرسل ، فلابد أن تعتمد على قواها الذاتية وأن تكتسب بمجالدة الأحداث والوقوع في المآزم ما يربى في نفسها عناصر الرشد ، ويستكمل لها ميزات النضج ، لذلك جعل الله أمرها في يدها لتفتح لنفسها بمحض جهودها الذاتية وقواها المعنوية مكانًا لائقًا تحت الشمس ، والذين دخلوا في الإسلام لأول عهده قبلوه على أنه دين تمحيص وابتلاء ، لإبلاغ إنسانيتهم أوجها الأعلى من الكمال ، بتعريضهم لعوامل التطهير والاستصفاء ، وقد وفوا بعهدهم ، فاستحقوا أن يكونوا في الرعيل الأول من خدام الإنسانية ، وكوفئوا بأن مكن الله لهم ما لم يمكن لغيرهم في الأرض) .

جعفر بن أبى طالب (ذو الجناحين)

جلس القوم محزونين يتذاكرون ما قال الرسول عن مصرع جعفر ابن أبى طالب يوم مؤتة ، لقد سمع فاطمة ابنته تصيح : واعماه ! فقال والأسى يغمر روحه الشريفة : على مثل جعفر فلتبك البواكي.

يوم كيوم حمزة كابده الرسول حزنًا وألمًا ... ثم تحامل على نفسه فانطلق إلى بيت جعفر الذي فارق دنياه في نضرة شبابه ، ويانع فتوته، في الثالثة والثلاثين من عمره ، فرأى أولاده الصغار يتواثبون كصغار الطير ، ومن حولهم أمهم الشابة (أسماء بنت عميس) ! تلك التي هجرت مكة راحلة مع زوجها إلى الحبشة فرارًا بدينها ، وإجابة لرغبة نبيها ، وفي الحبشة رزقت أولادها الصغار (محمدًا وعبد الله ، وعليًا) .

وها هو ذا رسول الله ﷺ يرى الأم وحولها أكبادها الزغب ، فتدمع عيناه ، فتحس (أسماء) هبوب الكارثة ، وتتساءل في فزع : ما يبكيك يا رسول الله ؟ بأبي أنت وأمي ! ثم لا تلبث أن تعلم فداحة الخطب ، فتولول جازعة ، ويجتمع النساء من كل صوب ! ورسول الله ينظر قائلا : أسماء ، لا تقولي هجرًا ، ولا تضربي خدًا ! اللهم قدمه إلى أحسن ما يستحق من الثواب ! وأخلفه خيرًا في ذريته .

وتمضى الأيام ، وذكرى جعفر تراوح ابن عمه وتغاديه ، وهو في كل يوم يروح ويغدو إلى الأيتام الصغار مواسيًا راعيًا ، ثم يقول : يا بشرى ! لقد نزل علىَّ الروح الأمين فأبلغني أن جعفرًا يطير في الجنة بجناحين عوضًا عن ذراعيه اللذين فقدهما في الميدان ، فهو من الآن ذو الجناحين ، وجعفر الطيار !! ويتسامع المسلمون فيصيحون : هنيئًا له ، ابن عم رسول الله ! وأشبه الناس به خلقًا وخلقًا !

وتمضي الأيام مرة ثانية ، ويجلس رسول الله في ملإ من صحابته ، ثم يتطلع إلى السماء ويهتف : وعليكم السلام ورحمة الله ! فيتساءل صحابته : ما كنت تقول من قبل يا رسول الله ؟ فيجيب مبتهجًا : إنه جعفر بن أبي طالب ، مربى في ملإ من الملائكة فأقرأني السلام ، فرددته عليه سعيد !

هنيئًا له : هنيئًا له !!

ويسترجع القوم تاريخ جعفر منذ أشرق نور الإسلام في قلبه ، فيقول أحدهم وكأنه يستذكر ماضيًا عزيزًا عليه :

عرفت جعفرًا منذ نشأ صغيرًا في كنف أبى طالب ، وقد مرت بمكة سنوات عجاف ، ضاق بها أبو طالب ذرعًا ، وتحمل عبء الأولاد دون أن يشكو إلى أحد ، ولحظ رسول الله ما يعاني عمه من الضيق ، فتقدم إلى عمه العباس - وكان ذا يسر ورخاء - فقال : يا عم، لقد نزل بالناس ما تعلم ، وأبو طالب كثير النفقة ، كثير

العيال، فهلم نسأله ولدين من أولاده فنتحمل مؤونتهما عنه ، أنت ولد ، وأنا ولد ، فقال العباس : هلم فلنمض ، فسارا حتى جاءا أبا طالب ، فقال لهما شاكرًا : إذا تركتما لي عقيلا فاصنعا ما شئتما ، فذهب العباس بجعفر ، وذهب الرسول بعليّ ، وظل جعفر يعيش مع عمه في خفض مترف ، وثراء متصل حتى أشرقت النبوة على ابن عمه ، فبادر بالإسلام مع السابقين قبل أن يجلس النبي في دار الأرقم ، ويدعو الناس بها ، أسلم مع أخيه عليّ ، ولم يمنعه العباس أن يحقق رغبة جاشت في نفسه ، فما كان ليرضي أن يتحكم في ابن عاقل كريم أشبل عليه من عطفه ، ليتركه حرًا لا ليكون طوع ما يريد .

واشتد البلاء على المسلمين ، فكابدوا عنت الإرهاب ، وتحملوا ضيق العذاب والائتماد ، فأراد الرسول أن يجد لبعض أصحابه سعة من ضيق ، وأمنًا من خوف ، فأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ، واختار جعفرًا ليكون أمير المهاجرين كما وصفه فتقدم الركب ومعه زوجه (أسماء) ، وفي نفسه أمل ، وفي قلبه يقين راسخ لا يتزلزل مهما هب الإعصار .

قال الراوي [١] : ينقل حديث أم سلمة زوج رسول الله ببعض

---

(١) تاريخ الإسلام للعلامة الذهبي ، ص(٩٩) بتحقيق الأستاذ محمد محمود حمدان .

التصرف : نزلنا الحبشة فجاورنا بها النجاشي خير جار ، لا نؤذي ولا نسمع شيئًا نكرهه فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي بما يستطرفون من الهدايا ، فاختاروا عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي ، ليكون البطارقة عونًا لكما ، فتم ذلك ، وتقدم البطارقة فقالوا : قومهم أعلى بهم عينًا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فغضب النجاشي ، وقال : لا أرسلهم إليهم حتى أدعوهم فأسألهم ؟

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ، فقال بعضهم لبعض : ما تقولون إذا جئتموه ؟ فقالوا : نقول ما علمنا الله ، وأمر به نبينا كائنًا في ذلك ما كان ، وتم المجلس ، وجلس الأساقفة متربصين ، فقال النجاشي للمسلمين : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ، فانبرى جعفر بن أبي طالب فقال :

أيها الملك ، كنا قومًا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء إلى الجار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، كنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعا إلى الله لنعبده ونوحده ، ونخلع ما كنا نعبد من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم

والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه واتبعناه ، فلما قهرونا وظهرونا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك ، وآثرناك على سواك ، فرغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك .

قال النجاشي : فهل معك شيء مما جاء به عن الله ؟ قال جعفر : نعم . ثم تلا قصة مريم مبتدئًا بـ ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم : ١ ، ٢] .

فبكى النجاشي وأساقفته حتى اخضلت لحاهم حين سمعوا القرآن ، وقال النجاشي : إن هذا الذي سمعت والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فوالله لا أسلمهم إليكما أبدًا .. فخرج ابن العاص مكسورًا وحاول الوقيعة سرة أخرى ، فجابهه جعفر بما أفسد تدبيره في حديث مشتهر !

هذا بعض ما ناضل به جعفر !

ثم عاد إلى المدينة بعد أن أتم الله نصره على المسلمين في خيبر ، وقابله رسول الله بأغلى ما عرف عنه من الحفاوة ، فالتزمه حاضنًا ، وقبله بين عينيه ، وقال : ما أدرى بأيهما أنا فرح ، بقدوم جعفر أم بفتح خيبر ! .

وسكت الكلام بعد انطلاق ، فأطرق القوم بين التذكر واللهفة ،

حتى وفد عليهم من رآهم في سكون حزين ، فتساءل عما أصابهم ، فعرف أن الحديث كان يجرى عن استشهاد جعفر ! فأخذته حمية عالية ، واندفع يقول : وهل في استشهاد جعفر ما يحزن ! لقد عاش بطلا ورجع بطلا ، عرفته منذ قدم المدينة فكان يتساءل عن ما سبق من معاركنا في بدر وأحد والخندق والحديبية وخيبر . ويأسف أن فاته الصيال ، فإما استشهاد كشهادة عمه حمزة ، وإما بقاء حي مناضل كنضال أخيه عليّ .

وقد أدرك رسول الله ﷺ رغبته في النضال ، حين قدم يسأله أن يكون مع زيد بن حارثة في جيش مؤتة ، فاستجاب لما رجا ، وجعله صاحب الأمر إن فقد زيد مكانه ، وكأن الرسول كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ، فقد قابل جيش المسلمين وهم ثلاثة آلاف حشدًا راجفًا يجمع مائة ألف ! يا لله !! ماذا تصنع ثلاثة آلاف جوار مائة ألف ! لو كان المسلمون لا يطمعون في غير الشهادة لكروا راجعين ، ولكن الكثرة ليست في حسبانهم ، إنما يأملون أن تعلو كلمة الله مهما دمدم الإعصار .

تقدم زيد فما أحجم ، دافع حتى نال الشهادة ، وجاء دور جعفر ، لقد بادر إلى قلب الحومة يحمل الراية ، وفي ذهنه أنه قد تأخر عن بدر وأحد ، وعن يوم الأحزاب ويوم خيبر ، وأن الذين فازوا بالشهادة يستبشرون في فردوس السماء بنعمة من الله وفضل ، وأن الأحياء من شهود بدر قد قال فيهم رسول الله : يا أهل بدر ،

اصنعوا ما شئتم فقد غفر لكم .

ومثل هذا الشعور الذي قد تلبسه جعله يفقد كل إحساس بالألم، لقد تدافع إليه نفر من الكماة ، ليسقطوا الراية من يديه ، فضربوا ذراعه الأيمن بالسيف ، وسقطت الراية ، فأسرع حاملا إياها بيده اليسرى ، غير شاعر بنزيف الدم يسيل من جرحه ، وجاءت الضربة الثانية فأسقطت الراية من كفه اليسرى بعد أن بترت فيالله لبطل الصنديد يترك فرسه ويضم الراية بين عضديه دون أن تكل له عزيمة ، ثم يحارب راجلا ، ويقذف بنفسه حتى يستشهد ، فتسقط الراية ، ليتلقفها عبد الله بن رواحة من بعده !

لقد هيأ القدر له مصرعًا ما أظن بطلا من أبطال التاريخ قد حظي بمثله ! بل ما نظن أن في سجل الغد من يتحمل ما تحمل من الجلاد ، وما مثله بين الأعداء وقد أحاط به الموج المتدافع من كل مكان إلا كغصن في مهب زعزع نكباء ! مهما ثبت فلا بد أن تأتي عليه ، وحسبه أن أعذر !

ثم ارتفع صوت المتحدث يصيح في نبرة حماسية وهو يقول : ألم أقل لكم إن استشهاد جعفر مفخرة نادرة ، وليس به ما يحزن ! لماذا لا نترك الأسى ليخلفه الزهو بالرجولة الباسلة ، والإرادة الشماء !

*****

قصة الفتح الأعظم
فتح مكة

إذا أراد الله أمرًا يسر أسبابه ، وقد أراد أن تفتح مكة في قريب ، فيسر لهذا الفتح كل ما يعسره ، وجعل الأسباب مهيأة لما يريد ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

حين تم صلح الحديبية كان من شروطه أن من أراد أن يدخل في عهد المسلمين دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه ، وكان بين بني بكر وبين خزاعة إحن كثيرة تجعلهما على طرفي نقيض ، فإذا ولت إحداهما مشرّقة سارت الأخرى مغرّبة ! فاتجهت بنو بكر إلى قريش ، واتجهت خزاعة إلى حلف رسول الله ، ووقعت الهدنة بناء على صلح الحديبية ، فلا اعتداء ، ولكن بنى بكر أصابوا من خزاعة ، إذ اعتدوا عليها ، وأمدت قريش بنى بكر بالسلاح ، وهي تعلم أن خزاعة في حلف رسول الله ، فلا يجوز لها بناء على معاهدة الصلح أن تعادي من حالف رسول الله ، ولكنها أسرعت في الغدر ، بل لم تقتصر على السلاح وبثعت من قاتل من قريش مستخفيًا في صفوف بني بكر ، وهو عمل لا مبرر له إلا الكيد من حلفاء رسول الله ، ليعلموا أن حليفهم لا يأخذ بناصرهم ، وأن الأولى أن يتركوه ، ويلتجئوا إلى قريش فتكون وحدها صاحبة الأمر في القبيلتين معًا !

ولكن خزاعة لن تسكت على ضيم ، فقد بعثت إلى رسول الله من أطلعه على غدر قريش ، وعرف المسلمون أن هذا الغدر بالحليف مقدمة للغدر بالمسلمين أنفسهم ، ولعل قريشًا تهتبل فرصة الهدنة لتتأهب لقتالهم من جديد ، بعد أن تجمع ما تقدر عليه من السلاح والعتاد ، وإذن فلا صبر على ضيم ، لقد نقض المشركون معاهدة الصلح ، وليس للمسلمين غير المكاشفة ، ولابد أن ينبذوا للمشركين على سواء .

وقد أدركت قريش أن رسول الله لابد أن يقوم بعمل حاسم ، فأرادت أن تعجل بما يدلس عليه وجه الحق ، فأرسلت رسولها ليؤكد الحلف وليمد في أجل الهدنة ، وهو عمل مفضوح يدل على جبن سافر ، لأن الذي يسعى إلى مد الهدنة وتأكيد الحلف لابد أن يفي بشروط الصلح ، أما أن يبدي الظاهر المسالم ويخفي الباطن الأسود ، فهذا هو النفاق الغادر بعينه .

جاء زعيم قريش أبو سفيان ليمد الهدنة ، ويشد العقد ، متكلا على أن رسول الله لم يلم بما كان من الغدر ، فاتجه إلى بيت ابنته أم حبيبة زوجة رسول الله ، وأراد أن يجلس على فراشه ، فطوته عنه ، فقال : يا بنية ، والله ما أدري : أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني ؟ فقالت : هو فراش رسول الله وما أحب أن تجلس عليه وأنت مشرك ، فتجهم وجهه لما سمع ، وعرف أنه لن يلقي شفاعة منها لدى زوجها ، فترك المنزل وخرج .

توجه إلى رسول الله مبتدئًا ، فكلمه ، فلم يجد الرد المنقذ ، فزادت حيرته ، وتوقع الشر ، ثم توجه إلى أبى بكر يسأله أن يخاطب رسول الله في مد الهدنة ، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب يسأله في ذلك ، فجابهه عمر رضي الله بقوله : أنا أشفع إلى رسول الله فيكم ، فوالله لو لم أجد إلا صغار النمل لجاهدتكم به ! فضاقت الدنيا في وجهه ، ورأى أن يتوجه إلى عليّ بن أبى طالب ، وفي عليّ سماحة ، وإسجاح ، فقال له : يا على ، أنت أمس القوم بي رحمًا وأقربهم مني قرابة ، وقد جئت سفيرًا لقريش ، وتنكسر نفسي حين أرجع خائبًا ، فاشفع لي لدي رسول الله ، فقال له علي كرم الله وجهه : ويحك يا أبا سفيان ! لقد عزم رسول الله ، على أمر ما يمكن أن ننازعه فيه ، فشخص ببصره إلى السيدة فاطمة رضي الله عنها كريمة رسول الله ، وفي حجرها ولدها الحسن ، فقال : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمري ولدك هذا فيشفع لدى محمد فيكون سيد العرب أبد الدهر ؟ فقالت فاطمة : والله ما يبلغ ولدي الصغير أن يقوم بذلك ، ولن يجير أحد على رسول الله ، فقال أبو سفيان لعلي : إني لأرى الأمور قد اشتدت ، وأنا الآن في موقف حرج فانصحني ماذا أفعل ؟ فقال له : والله ما أعلم شيئًا يغني عنك إلا أن تلحق بقومك وتجير بين الناس أنت .

فقام أبو سفيان في المسجد ، وقال : أيها القوم ، لقد أجرت بين الناس ، ثم اتجه محزونًا إلى قريش ، فسألوه ماذا صنعت ؟ فروى لهم

كل ما عاين من ساعة دخوله المدينة إلى منصرفه عنها ، فقالوا له : ما صنعت شيئًا ، إن محمدًا لم يجز إجارتك وما يغني عنك ما قلت !

أمر رسول الله أصحابه أن يتهيأوا للحرب ، ودخل أبو بكر على عائشة ابنته فوجدها تجهز ما يحتاج إليه الرسول في سفر عاجل ، فقال لها : أين تظنينه يقصد ؟ فقالت : لا أدري ، ولكن رسول الله أعلم المسلمين أنه يقصد مكة ، وقال : اللهم خذ العيون عن قريش حتى نبغتها في بلادها .

وقد أدرك الضعف الإنساني (حاطب بن أبي بلتعة) ، فكتب للمشركين رسالة يخبرهم فيها بذهاب الرسول إلى حربهم ، وعلم رسول الله بما كان ، فأرسل عليًا والزبير إلى من حملت الرسالة ، وهي في الطريق ، حتى وجدا معها كتاب حاطب ، فرجعا به ! وتعرض حاطب لنقمة المسلمين ، ولكنه اعتذر آسفًا ، ورأى رسول الله أن يرحم ضعفه ، فعفا عنه . وكانت هذه كبوة منه . ولو كان غير رسول الله من ووجه بذلك لانتقم .

سار الجيش الإسلامي في عشرة آلاف رجل من المسلمين ، قد طمست أنباء الرحلة عن أسماع قريش وأبصارها ، ولكن رؤساءهم كانوا في ريبة ، إذ لم يتح لهم قرار بعد عودة أبى سفيان بن حرب ، وقد تأكدوا أن الرسول لابد أن ينتقم لحلفائه ، وله الحق أن يعاقب من غدر بعهده ، وخانوا شروط الصلح ، فخرج أبو سفيان ، وحكيم بن خزام ، وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار في الطريق ،

وكان العباس قد أسلم ورأى أن رسول الله إذا دهم مكة بجيشه الكثيف ففي ذلك هلاك قريش أبد الدهر ، فقال في نفسه : سأسبق القوم لعلى أجد حطابًا أو صاحب تجارة أبعث به إلى قريش ليقدموا متشفعين ليأمنوا رسول الله !

وهذا كلام يقوله المؤرخون ، ولا أدري مدى صدقه ، فإذا كان العباس قد أسلم ، وإذا كان رسول الله قد قال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها ، فكيف جاز له أن يبحث عن رسول ينبئ قريشًا بما يحرص الرسول على كتمانه عنهم ؟ لعل الرواية مكذوبة ، أو أن العباس قد تأكد من انتصار رسول الله، وأنه لا قبل لقريش بمواجهة جيش قوي يزيد على عشرة آلاف ، فعليه أن يدفعها مبدئيًا إلى الاستسلام والاسترحام .

قد تكون هذه أو تلك ، ولكن العباس لم يدرك أحدًا يرسله ، إنما أخذ يتسمع ، وقد ركب بغلة رسول الله ، فجاء إلى أذنه صوت أبى سفيان وهو يقول لحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء : والله ما رأيت كاليوم نيرانًا ، فقال بديل : هذه هي خزاعة قد أغضبتها الحرب ، فقال أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه المشتعلة نيرانها ، فعرف الصوت ، ونادى أبو سفيان ، فلباه ، فقال له : ويحك أبا سفيان ، لقد توجه إليكم رسول الله بما لا قبل لكم به ، قال : فما الحيلة ؟ قال : تركب عجز هذه البغلة ، حتى نأتي إليه فأستأمنه لك ، فوالله إن ظفر بك ليضربن عنقك ، فأسرع أبو

سفيان لصاحبه وكأنه غريق يبحث عن طوق النجاة ، فردفه خلف ظهره ، وانطلق به إلى النبي مستشفعًا ، فرآه عمر بن الخطاب فأسرع إلى رسول الله يرجو أن يأخذ برأسه ، فقال العباس : مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ، وهم قوم عمر ، ما فعلت ذلك ، فتراجع عمر ، لأنه يدري إكرام الرسول لعمه العباس، وقد تأمل محمد ﷺ مليًا ثم قال للعباس : اذهب به إلى رحلك فإذا أصبحت فأت به .

ذهب أبو سفيان وقد اطمأن إلى حماية العباس ، فلما أصبحا غدوا على رسول الله ، فحين رآه النبي قال له : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله قال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أنه لو كان معه إله غيره لقد أغنى عني شيئًا ! قال : ويحك يا أبا سفيان : ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله . قال : بأبي أنت وأمي ، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك أما هذه ففي النفس منها شيء ، فقال له العباس : ويلك ، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فشهد شهادة الحق ، فقال رسول الله لعمه ، حين سمع أبا سفيان يشهد برسالته : انصرف به يا عباس فاحبسه عند مقدمة الجبل بمضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله ، فقلت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان يحب الفخر ، فاجعل له شيئًا يكون له بين قومه ، قال : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد

الحرام فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

خرج العباس مع صاحبه عند مضيق الوادي ، فمرت القبائل قبيلة قبيلة ، ومع كل قبيلة راياتها ، فجعل أبو سفيان يقول : أي قبيلة هذه ؟ فيقول العباس : هذه مزينة ، وهذه سليم ، وهذه كذا ، وهذه كذا ، حتى مر رسول الله في كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار ، عليهم المغافر والدروع ، فلا يرى منهم غير العيون ، فقال : سبحان الله ! من هؤلاء يا عباس ! قال : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار ، فقال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا ! قال العباس : إنها النبوة يا أبا سفيان فالحق بقومك وحذرهم .

خرج أبو سفيان حتى أتي مكة ، فصرخ في المسجد : يا معشر قريش ، هذا محمد ، قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فارتاعت هند بنت عتبة زوجته ، وكانت من أشد القوم حقدًا على رسول الله ، وقالت : تعس أبو سفيان ، اقتلوه، اقتلوه ! قبح من طليعة قوم ، فقال أبو سفيان : لا تغرنكم هذه ! فقد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به ، فادخلوا دارى ، من دخلها فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل داره فأغلقها عليه فهو آمن !

وصل رسول الله إلى مكة في جيش هائل لم تعرفه قريش من قبل ، وفرق أصحابه على الطرق المؤدية إلى وسطها ، فجعل الزبير على

رأس كتيبة تدخل كدى ، وسعد بن عبادة على كتيبة من كداء ، وخالد بن الوليد على كتيبة تدخل من الليط ، أما رسول الله فقد اختار لنفسه أن يدخل من أذاخر حيث ضربت له قبة هناك .

وكان صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، ممن عز عليهم أن تقتحم مكة دون دفاع ، فجعلوا يعدون السلاح ويشحذون السنان ، وأظهروا مقاومة لم تكد تلوح حتى غمرها الموج فتوارت ، وكان رسول الله قد عهد إلى المسلمين ألا يقتلوا أحدًا غير أسماء محددة عرفها ، فلما اطمأن به المقام خرج إلى البيت الحرام طائفًا ، ثم وقف على باب الكعبة حين انتهى من طوافه ، وخطب الناس خطبة قال فيها :

(لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة من دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج . يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس لآدم وآدم من تراب ، ثم تلا قول الله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

يا معشر قريش ، ما تظنون أني فاعل بكم ؟ فقالوا : خيرًا ! أخ

كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء) .

ثم فرغ لبيعة الناس بمكة حين جلس على الصفا ، وجاءت النساء فبايعن وفيهن هند بنت عتبة ، وقد عرفها الرسول وعفا عنها، وأمر عمر أن يبايع النساء ويستغفر لهن ، ففعل .

قال الراوي :

(لما دخل عليه الصلاة والسلام البيت يوم الفتح رأى فيه صور الملائكة والرسل ، رأى صورة إبراهيم عليه السلام وفي يده الأزلام يستسقم بها ، فقال متعجبًا : قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ما شأن إبراهيم والأزلام ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٧] ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست ، وجعل يقول وهو ﷺ يشير إليها : ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١]) .

ولم يغفل رسول الله عن الأصنام ، إذ أرسل في اليوم الخامس بعد الفتح خالد بن الوليد في ثلاثين رجلا إلى (العزى) وهي أكبر صنم تعبده قريش ، وكان هيكلها ببطن نخلة قريبة من مكة فهدمها ، وأرسل عمرو بن العاص ليهدم صنمًا تعبده هذيل على بعد ثلاثة أميال من مكة ، وأرسل سعد بن زيد الأشل في عشرين فارسًا ليهدم (مناة) وهي صنم بني كلب وخزاعة ؟ وكان سقوط

الأصنام أمام عبادها من قريش حدثًا هائلا ، إذ تلاشت قداستها في طرفة عين ، وأصبحت أمام عبادها أحجارًا صماء لا تضر ولا تنفع! حتى عجب فضالة بن عمير بن الملوح مما قضاه في عمره الأطول حين كان يعبد حجارة بكماء دون وعي ، فانطلق يعدو في الطريق دهشًا ، وقابلته امرأة كانت ذات شأن معه ، فدعته إلى الحديث ، فأشاح عنها ، وهو يردد في ندم قوله :

قالت هلم إلى الحديث فقلت له

يأبى عليك الله والإســـلام

لـــو ما رأيت محمـــدًا وقبيله

بالفتح حين تكسر الأصـــنام

لرأيت دين الله أضحى ساطعًا

والشرك يغشى وجهه الإظلام

أما الذين حدد رسول الله أسماءهم وأهدر دماءهم فقد ضاقت عليهم الأرض وهربوا إلى شعاف الجبال وإلى ساحل البحر ، ثم شفع فيهم ذوو قرباهم ، فعفا عنهم رسول الله صافحًا ، على فداحة ما ارتكبوه ، فكان جديرًا بقول ربه عنه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] وسيأتي حديثهم فيما يلي .

*****

من حديث الطلقاء

نزل معن بن أوس ضيفًا على عبد الله بن جعفر بمكة ، فاحتفل بمقدمه احتفالا كبيرًا ، إذ كان عبد الله يروى شعر معن ويراه نمطًا من أنماط المروءة النبيلة ، حين يدعو إلى كظم الغيظ ، والترفع عن مجازاة السيئة بالسيئة ، بل حين يدعو إلى الإيثار ، متحملا مرارة العيش ، وقسوة الجدب ، ليكون في مظهر الرجل الكافل الوهاب ، الذي يعطى ولا يأخذ ، ويتقدم حين يتأخر سواه ، وقد جلس معن في ندوة صاحبه ذات عشية في ملإ من أصدقائه ، منهم عبيد الله بن عباس ، وخباب بن الأرت ، فأراد ابن جعفر أن يسعد جلساءه بحديث عن الشاعر الضيف فابتدره قائلا :

يا أخا مزينة : مم تعلمت هذا الحلم ؟ وأنت شاعر قومك في الإسلام ، يهزك الانفعال السريع ، وتجيش بك العاطفة الحادة ، فلا تسكت على ضيم ، ولا تركن إلى نقيصة .

قال معن : أما أنا شاعر مزينة في الإسلام ، فلست وحدي ، ولكن معي كعب بن زهير وبجير أخوه ، وأما ما تنسبه إلى من الحلم ، فإنني أميل إلى التريث منذ نشأت ، ولكن يوم الفتح الأعظم بمكة منذ عشرين عامًا كان لي درسًا لا أنساه ! عنه أخذت الحلم ، بل عن بطله السيد الحليم محمد بن عبد الله !

قال ابن جعفر : شهد يوم الفتح آلاف الناس ، وحديثه لا يزال يتردد دون انقطاع ، فكيف أوحى إليك بما اتسمت به من التسامح والغفران ؟

فأطرق معن كالمتردد ، ولكن عبد الله بن جعفر صاح به : قل يا معن ، فإن صحبي هؤلاء قد اجتمعوا إلى الليلة ليسمعوك ، وليسمعوك وحدك ، فقل !

فتفرس معن في وجوه القوم ، وقال : سأطيل الحديث فلا يضجر أحد !! فصاحوا جميعًا : وكيف نضجر ، وأنت الذي تتحدث ؟

قال معن : كنت بممر الظهر أن أسوق إبلا لي ، حين قدم جيش رسول الله من المدينة متأهبًا لدخول مكة ، ونظرت بعيدًا ، فرأيت الأرض قد امتلأت بالناس ، فناديت ولدي حبيبًا وقلت له : هلم بالإبل إلى أعطانها بالسفح ، قبل أن تدهمنا الخيل ، ووقفت على بعير لي أنظر هذا المد الزاخر إلى أين ينتهي ، وأنا دهش حائر ممن أرى ، ثم التفت فإذا ابن عمي ضامر المزني يصيح بي : هلم يا معن ، فاتجهت إليه ، فقال : إنني مع أصحابي من مزينة كلمة ضامر على قلبي منزل الماء البارد من ذي الغلة ، فاتجهت ببعيري إلى حيث يمضي القوم ، ودخلنا مكة ، وبدأت مناوشات انتهت سريعًا ، وتفرق الناس إلى حيث يطمئنون ، ومضيت مع ابن عمي ضامر إلى خيام بني الأوقص في أسفل أبي قبيس ، إذ حل المساء .

كان كل ما يملأ ذهني من الخواطر أن أجيب عن سؤال يراودني، هو ماذا عسى أن يفعل رسول الله مع أشد أعدائه التي عذبوا المسلمين وقتلوهم وأخرجوهم من ديارهم ، ثم ما برحوا يشنون الغارات عليه بالمدينة ، ويتواطئون مع القبائل المختلفة على حربه ، وها هم أولاء اليوم تحت قبضة يده ؟ ورآني ضامر قلقًا لا أكاد أهدأ! فسألني عن أمري ، فأجبت في صدق ، ولكنه هز رأسه مستخفًا ، وقال : ستبدي لك الأيام حقيقة الجواب ، ثم تابع رده بقوله : ألم يقل الرسول للملأ من قريش : اذهبوا فأنتم الطلقاء ! قلت : نعم ، ولكني أستثني بضعة أسماء تبلغ العشرة أو تزيد !

قال ضامر : وإذن فقد عرفت الجواب ! لقد عفا الرسول ﷺ عن أهل مكة غير نفر قليل ، كانت مصائبهم الفادحة أوسع من أن تندرج تحت عفو .

قلت مستعجلا : أنا أحس أن محمدًا ﷺ أقدر من صبر على غيظ، وفي ظني أن أكثر الذين قد استثناهم من العفو سيجدون ملاذًا في عطفه الرحيم .

فقال ضامر : نم حتى الصباح يا معن ، فما أظننا سنرحل إلى ديار مزينة إلا بعد أيام قد تمتد إلى أسابيع ، وستعرف مصير من تتحدث عنهم الليلة ، فإلى فجر جديد .

ثم طلعت الشمس ، ولا تزال أنباء الفتح تملأ المسامع ، ومن

يزورونا في خيام بني الأوقص يتحدثون عن رسول الله ماذا فعل ؟ وأنى سار ؟ وفيهم شاب مزني صادق اللهجة ، دءوب الغدوّ والرواح ، قرأت غيرته في وجهه ، فأدنيته مني لأقول له : إني لأعلم من سماحة رسول الله وسعة حلمه وكرم عفوه ما لا حد وراءه لصفح وغفران ، فهل لك أن تتبع مواقفه ممن استثناهم من العفو ، ثم تخبرني بما سيكون ؟

قال الشاب المزني : ولم لا تكون بمقربة من الأحداث ؟ فتشهد مجلس رسول الله ؟

قلت في أسى : أنا معتزل ، ولم أسلف من تبعات الجهاد ما يشرفني لدى النبي ، وأستحي أن أكون أمامه ذنبًا لا رأسًا ، ولكني طلعة فاحص ، تأتيني الأمور فأقلبها على شتى وجوهها حتى أصل إلى غورها الصميم ، وبي ظمأ إلى معرفة ما سيكون من أمره مع أعدائه الألداء ، وسأنتظرك بين الفينة والفينة ، لأعرف الجديد .

قال الشاب المزني : ولك ما تريد .

وهنا قال عبد الله بن جعفر : إيه يا معن ! عهدناك شاعرًا تحسن الصوغ ، وما عرفناك قصاصًا مسترسلا تنتقل بالقول من شمال إلى يمين ! لقد سألناك عمن تعلمت الحلم ، فقلت : من أحداث يوم الفتح ؟ فكان المنتظر أن تخلص إلى الرد من أقرب طريق ، ولكنك تياسرت في القول وتيامنت وتحدثت عن بني الأوقص وضامر

والشاب المزني ، وغاب عنا جواب سؤالنا عن حلمك النبيل !

قال معن بن أوس : عفوًا أخي ، فالهدف قريب ! لقد ظللت منذ اليوم الأول من مقدمي أتأمل صنيع رسول الله في أعدائه ، فشاهدت عجبًا أي عجب ! شاهدت رسول الله يعفو عن عكرمة ابن أبي جهل ، وعن صفوان بن أمية ، وعن وحشي بن حرب ، وعن الهبار بن الأسود ، وعن هند بنت عتبة ، وعن كعب بن الزهير ! ولكل قصة ذات أبعاد !

فتألق وجه عبد الله بن جعفر وقال : أنت الآن مع قوم شهدوا هذه الأحداث وقد يعرفونها أكثر مما تعرف ! ونريد موضع العبرة من وجهة نظرك ، فما زلنا نسأل عمن تعلمت الحلم .

فأطرق معن مفكرًا .. حتى إذا تطلعت له الوجوه قال : معاذ الله أن أحسبكم ممن يجهلون تاريخ اليوم الخالد ، ولكني أدل على موضع اهتدائي بما جد من أحداثه ، فحسب ، وسأخص كل من أشرت إليهم بلمحة دالة ، لا بتفصيل كبير .

وكان عبيد الله بن عباس ممن يستمعون ، فتوجه إلى عبد الله بن جعفر يقول له : لقد قطعت على الشاعر سبحه المنتظر ، فألجأته إلى الإيجاز ، وكنا نريد أن يستطرد ، فقد نعلم من الوقائع ما نسيناه !

قال معن : لقد جاءني الشاب المزني بكل ما علم من مآثر رسول الله أيام الفتح ، وكلها تدل على عفو القادر ، وحلم القوى ،

فأعلمني أن العفو لن يكون عفوًا حقيقيًا إلا من صاحب مقدرة ، يملك فيعتق ، وكل من عفا عنهم رسول الله كانوا في قبضة يده وعلى طرف الثمام منه ، فكان الصفح عنهم تكرمًا وتفضلا من رءوف رحيم .

لقد هزني موقفه من هبار بن الأسود ، هذا الذي ترصد لابنته زينب رضي الله عنها ، وهي في طريقها من مكة إلى المدينة ، وكانت مريضة ذات حمل ، فضرب بعيرها بسهم جعله يشرد بها نافرًا ، وقذف بها على صخرة موجعة فسقطت مرهقة يسيل دمها ، وارتدت إلى مكة ريثما تبرأ من بعض ما أصابها ، فلم يمض الداء ، وظلت تكابد برحاء السقام ، حتى ماتت بعلتها تلك ، وكانت كبرى بناته وأشدهن شبهًا بأمها خديجة بنت خويلد ، فجزع الرسول لمصابها ، وأهدر دم هبار .

وحين تم الفتح أيقن هبار أن ساعة الانتقام قد حانت ، وما كان لمثله أن ينجو من حساب جرمه ، وقد توقع المسلمون جميعًا أن القصاص محتوم ، ولكن النبي ﷺ فوجيء به يدخل تائبًا مرتجفًا ، يعلن إسلامه !

ويتذكر الأب الرحيم ما كان من الغادر العاق ، ويتراءى لعينه شبح ابنته ، وهي في أيامها الأخيرة تقاسى عقابيل سقطتها الدامية على الصخرة العاتية ! فيتغلب على بواعث الحفيظة ، ويستجيب إلى نداء العفو ، فيصيح به : قبلت توبتك فأبعد عني !

قال ابن عباس : والله لقد علمت قصة هبار ، ولكني أسمعها الآن فتدركني العبرة ، كأني لم أسمع بها من قبل ! هذه بعض دروس الحلم فأكمل يا ابن أوس !

قال معن : وجاءني الشاب المزني فحدثني بحديث وحشي بن حرب ، قاتل حمزة ! وأيكم لا يعلم مدى فجيعة رسول الله في عمه أسد الله حمزة بن عبد المطلب لقد تعجب المسلمون حين رأوا وحشيًا يقدم على رسول الله تائبًا ! وأية توبة لهذا الذي فجع المسلمين في مستقبل جهادهم بأكبر بطل يعدونه للوقائع المعلمة ، والمآزق الشديدة !

فقال خباب : لازلت أذكر دموع رسول الله تملأ وجهه الكريم ، حين مر بحمزة سيد الشهداء صريعًا ، وقد مثلت هند بنت عتبة بجثته ، وأخذت كبده ولاكتها لتأكلها ، فما وجدت لها من مساغ فلفظتها ، ولازلت أذكر أنه مر بنسوة من بني عبد الأشهل يبكين قتلاهن فخنقته العبرة ، ثم قال : أما حمزة فلا بواكي عليه ، فجعلت كل باكية تريد أن تبكى صريعها ، تبدأ بالبكاء على حمزة !

قال معن : ويأتي بعد ذلك وحشي ليلتمس العفو ، فيرى الصفح الرحيم ، ولكنه يسمع الرسول يقول في تأثر : غيب وجهك عني كيلا أراك ! فأي كظم للغضب تدل عليه هذه الجملة النارية ! إنها وحدها تدل على أن الرسول قد عاني أشد العواطف التهابًا حين وجد قاتل حمزة أمامه ! ولكنه النبي القدوة ، ولابد أن يرتفع عن

الناس جميعًا بمنه وكرمه ، وهذا ما كان !

قال ابن عباس : سمعت مشيخة قريش تقول : لو عاش حمزة بن عبد المطلب بعد رسول الله ما نازعه الخلافة أحد ، لسبقه في الجهاد، وغيرته الشديدة على الإسلام ، وزياده عن ابن أخيه ، وهو بعد أسن من أبي بكر وعمر !

قال ابن جعفر : هذا صحيح لا شك فيه ، ولكني في مجال الاستشهاد بحلم رسول الله يوم الفتح عن وحشي لابد أن أذكر هند بنت عتبة ، حين نتحدث عن حمزة ، فهي التي مزقت جسمه رضي الله عنه ، ومثلت به تمثيلا كان أكبر دليل على قسوة النساء ! وجاء يوم الفتح ، فعلمت أن أبا سفيان زوجها قد أسلم ، فصاحت صيحات الاستنكار ، وأخذت برأسه تجره إليها وتقول : اقتلوه ، اقتلوه ، قبح من طليعة قوم ، وحين غلبت على أمرها ، ورأت ألا مفر من الاستسلام ، لم يشأ أحد من ذويها أن يصحبها إلى رسول الله ﷺ استعظامًا لما فعلت يوم أحد ، ثم استعملت الحيلة ، فانتظرت حتى خرج النبي إلى الأبطح ، فصاحت به وهو لا يعرفها: الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لتمسني رحمك يا محمد ، فإني امرأة مؤمنة بالله مصدقة به ، ثم كشفت عن نقابها، وقالت : أنا هند بنت عتبة ، فقال لها ﷺ : مرحبًا بك ، ثم عفا عنها!

قال معن : لقد قال رسول الله لوحشي : غيب وجهك عني ، وقال لهند : مرحبًا بك ، لأنه يعرف أن المرأة أضعف احتمالا لدي المواجهة ، وما كان لخلقه الكريم أن يهوى بها في موقف قدمت عليه ترتجف هولا ، وأي إنسان غير رسول الله يرى آكلة كبد عمه ، تشخص أمامه ، وقد مثلت بأعز الناس على قلبه ، لهاج وثار ! ولكن مثل هذا الموقف جدير بأن يرسم في قلوبنا لنحتذيه ، فالرجل رجل بخلقه وسلوكه ، وأي رجل أفضل من رسول الله !

قال ابن جعفر : ثم ماذا يا معن ؟ فضحك الشاعر ، وقال : وهل أبقيتم لي شيئًا ؟ إني أسبق إلى الحادث فلا أكاد أنطق بحرف عنه ، حتى تأتي آراؤكم التامة المكملة ، فأولى بي أن أسمع لا أن أتكلم !

قال خباب : الحديث مناقلة ، وذكرى يوم الفتح من أجمل الذكريات التي يتفتح لها قلب المسلم الصادق ، فهلم يا أخي تحدث عن صفوان بن أمية ومن يليه ؟

فابتسم معن وتهيأ يقول : أما صفوان فكان ذا حمية وغضب ، وله مواقف منكرة تبعده عن قلب رسول الله قبل الهجرة وبعدها ، وقد أيقن من الانتقام ساعة الفتح ، فاختفي ، وطار إلى جدة يحاول أن يلقي بنفسه في البحر ، ولكن عمير بن وهب ابن عم صفوان أدرك حرج صاحبه ، إذ ضاقت عليه فجاج الأرض ، فأتي شفيعًا إلى رسول الله يقول له : يا نبي الله ، إن صفوان سيد قومه ، وقد هرب من مكة معتزمًا أن يلقي بنفسه في البحر ، وقد وسع حلمك الأحمر

والأسود وتطمع أن تتفضل عليه بالأمان ، فابتسم رسول الله ، وقال : أدرك ابن عمك فهو آمن ، فانطلق عمير بن وهب يعدو حتى جاء إلى الرجل في مكمنه ، فقال له : هنيئًا ، قد أمنك رسول الله ، ومعي رداؤه الشريف أمانًا لك ، فلم يكد يصدق ما يسمع ، ثم قدم مترددًا يلمس موضع الأرض من قدمه ، حتى وقف أمام رسول الله ، فقال : يا محمد ، هذا عمير بن وهب جاءني بردائك ، وزعم أنك دعوتني للقدوم عليك ، فإن رضيت أمرًا قبلته ، وإلا سيرتني شهرين (يريد أن ينتظر شهرين لينظر في أمره) ، فقال رسول الله : انزل أبا وهب ، فقال : لا والله حتي أتبين أمري معك . قال ﷺ : بل نصبر عليك أربعة أشهر لا شهرين ، ثم تأهب الرسول لغزوة هوازن ، فأرسل إلى صفوان يطلب منه ما لديه من أسلحة الحرب ، فقال صفوان : طوعًا أم كرهًا ، فقال الرسول : طوعًا عارية ، وشهد صفوان غزوة حنين وهو كافر ، وقد أوسعه الرسول عطاء وبرًا ، حتى قال : والله ما تطيب ببذل ذلك نفس إنسان! إنه لنبي لنبي !

ثم سكت معن قليلا ، وأدار عينيه في وجوه القوم متسائلا : لقد جاء صفوان الذي دبر المكايد لقتل محمد كي يطمئن على العفو عنه، ثم لم يشأ أن يعلن إسلامه ، وكان في موقف الضعيف العاجز ، وكلمة واحدة تقضي عليه ! وفي وسع الرسول أن يدعوه إلى الإسلام أو الانتقام ، ولكن صاحب الخلق العظيم رأى أن يسمو

بسلوكه ليضرب لنا المثل ، فابتسم وأمهل ، ولم يسلم صفوان حتى ملأ الإسلام شغاف قلبه ، فأعلن الشهادة طائعًا غير مجبر ! أيجوز لنا أن نترك هذه العبر الساطعة فلا نتلمسها في موضع العظة ؟ وممن نتعلم ؟ إذا لم نتعلم عن رسول الله !

قال خباب : بقي حديث عكرمة ، وكعب بن زهير !

فأجاب معن : وهل لدي ما أقوله عن كعب ، وأنتم جميعًا ترون قصيدة (بانت سعاد) ، وتعرفون موقعها من نفس رسول الله ، لقد تحدث كعب عن نفسه بقصيدته الذائعة ، ونال البردة الشريفة تكريمًا وتقديرًا من نبي الله ، فإلى حديث عكرمة :

لقد كان عكرمة ممن تعرضوا لجيش الفتح مع صفوان ، وقد صمما على القتال وجمعا الجموع عند الخندمة ، فما رجعا بشيء ، بل أدركهما الرعب ، وفرا هاربين ، صفوان إلى البحر ، وعكرمة إلى اليمن ، وفيهما يقول حماس بن قيس :

إنك لو رأيــت يـوم الخندمه

إذ فر صفـوان وفر عكــرمه

قد لحقتهم السيوف المسلمـه

يقطعن كل ساعد وجمجمــه

لم تنطقي في اللوم أدني كلمـه

فلما تم الأمر لرسول الله استأذنت أم حكيم بنت الحارث بن

هشام ، وهي يومئذ مسلمة ، على النبي ، شافعة في زوجها عكرمة ، فأذن لها صافحًا غفورًا ، فخرجت في طلب زوجها راحلة متعبة حتى أدركته ببعض جبال تهامة ، فعرضت عليه أمان الرسول ، ففرح كثيرًا بمقدمها ، وانطلق معها إلى الرسول ﷺ ، فبايعه مسرورًا بزوال محنته .

قال عبد الله بن جعفر : لم أفرح بليلة من ليلات السمر في منزلي كما فرحت بهذه الليلة ، لقد أعددت نفسي لأسمع أشعار معن ، ونبذًا من حياته في مزينه ، ومنافساته للشعراء في الجاهلية والإسلام، وقد مهدت بذلك للسؤال عمن تأثر به من الحلماء ، وما ظننت أنني سأسعد بسماع أجمل قصة من قصص التاريخ الإسلامي دارت أحداثها عند الفتح الأعظم بمكة ، فليتنا كل ليلة نبحث عمن يحدثنا عن موقعة إسلامية ذات تاريخ عبق كتاريخ الفتح الشريف .

ثم نهض صاحب المنزل ، لينهض خلفه ضيفه الشاعر متجهًا إلى مضجعه ، ومستسلمًا لأحلام ذات مجد عزيز ...

*****

حنين والطائف

كانت بعض القبائل العربية تخفي عداوتها للمسلمين ملافاة للشر ، وبعضها الآخر لا تقدر على كتمان ما يعتلج لديها من بغضاء، ومن هؤلاء ثقيف وهوازن ، فقد تعاظمهما أن ينصر المسلمون في مكة ، وأن تستسلم المدينة الكبرى هكذا دون قتال دموي رهيب ، لقد ظنوا أن مكة خط الدفاع الأول عنهم ، وأنهم بمنأى عن الالتحام الدموي مع الإسلام ما دامت مكة قائمة ، وقد ركنوا إلى مناعتها وقوة رجالها ، وشدة بغضائهم لرسول الله ، فباتوا آمنين على أنفسهم ، وكانوا آمنين حقًا لو تركوا الإسلام وشأنه ، فلم يجابهوه بالشر ، ولكن استسلام مكة لم يثبت لهم قرارًا في مكان ، فظنوا الظنون برسول الله ، وقالوا لقد فرغ من قومه ، وها هو ذا يتهيأ لنا ، فلابد أن نغزوه قبل أن يغزونا ، ولو كان لديهم نظر بعيد لتربصوا بعض الوقت ، فإذا لم يكونوا يريدون اعتناق الدين الجديد، فلا عليهم ، ولن يجبرهم أحد ، إذ لا إكراه في الدين ، ولكن الرياسة في ثقيف كانت لرجل خائر العقل ، عاطفي الانفعال، يرى الرأي فلا يستمع لمخالفه ، ويظن السيادة كل السيادة أن يصدر عن ذات نفسه لا أن يناقش أصحابه ، ثم يرسم الخطة في ضوء النقاش .

لقد حسب كل مشورة انتقاصًا من قدره ، وغضًا من مكانته ،

ذلك هو مالك بن عوف النضري ، حين أخذ يحشد الجموع من أنصار هوازن وفيهم حشود كبيرة من بني سعد بن بكر أهل حليمة السعدية التي كانت مرضع رسول الله ، وكان دريد بن الصمة بطل المعارك في الجاهلية ، وقائد هوازن في حلبات الوغي وتحت مثار النقع ، قد هرم وشاخ ، فانتقلت القيادة من يده ، وأصبح مالك بن عوف ذا الأمر والنهي في هوازن ، ولكن قومه يعلمون حنكته الحربية ، ومقدرته على الاحتيال إذا تأزمت الشدائد ، وادلهمت المحن ، ففزعوا إليه يشاورونه بعيدًا عن مالك ، وقالوا له : إن مالكًا رأى أن يقود النساء والإبل والصبيان والشاء وما تملك هوازن من عتاد ، ليكون ذلك جميعه خلف المحاربين ، فلا يهربون من الميدان ، إذ ا اشتد الخطب ، وكيف يهربون ومن خلفهم أولادهم ونساؤهم ومتاعهم وحيواناتهم ، فإن ذلك كله مما يدفع على الثبات ، فلابد أن تخرج هوازن بقضها وقضيضها كما يقال ! لن تترك شيئًا ذا بال في ديارهم حتى تصحبه من ورائها لتقاتل عنه غير هاربة !

كان هذا منطق مالك ، ولكن دريدًا تهكم به ورآه نزقًا يجر إلى الوبال ، وظن المسألة لا تعدو التفكير إلى التنفيذ ، ولكنه صحب القوم حتى نزلوا بواد في ديار هوازن يقال له (أوطاس) فأخذ يسأل : بأي واد أنتم ؟ فقالوا : بأوطاس . قال : نعم مجال الخيل ، فما لي أسمع نهيق الحمير ، وصياح الإبل والشياه ، وبكاء الصغير ،

على نحو لا أعهده في الحروب ، فقالوا : لقد ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم ! . فذهب إليه يتعجب مما صنع منكرًا ، فصدمه مالك بما لا يرضى فغضب دريد ، وقال عن مالك : راعي ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيء ، إن كانت الحرب لك فلن ينفعك إلا رجل يحمل سيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك ! وسأل : أين كعب وكلاب ؟ فقيل : لم يحضرا ، فزاد تأسفه ، وأشار برد الأموال والنساء والأبناء والحيوان، فسخر به مالك ، وأغضى دريد على أسف .

استمع رسول الله إلى ما كان من احتشاد هوازن ، فأرسل عبد الله ابن أبي حدرد وأمره أن يدخل متنكرًا بين صفوف أعدائه ، فيقيم فيهم وكأنه منهم ، حتى يأتي إليه بما يصنعون ، فذهب عبد الله وألم بما بيتوا النية عليه ، وجاء إلى رسول الله وقد أحاطه بما رأى وسمع ، فلم يجد بدًا من قتال هؤلاء المحتشدين ، وكان فيما قاله عبد الله للنبي ﷺ أنه ولج خباء مالك بن عوف ، ومعه حينئذ رؤساء قومه من هوازن ، فسمعه يقول : إن محمدًا لم يقاتل جيشًا قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى أغرارًا من العرب لا علم لهم بشئون الحرب ، فينتصر عليهم ، فإذا كان السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم ، ثم تكون الحملة منكم ، وستلقونه بعشرين ألف سيف ، فاحملوا حملة رجل واحد ، واعلموا أن الغلبة لمن يهجم أولا .

لم يجد المسلمون بدًا من القتال ن فأخذ رسول الله يجمع العدة ويهيئ الرجال ، وقد علم أن لدى صفوان بن أمية دروعًا عدة ورماحًا كثيرة ، وأسيافًا اخترنها لنفسه ، فسأله أن يعين المسلمين بها، وهو يومئذ مشرك ، فقال صفوان : أتريدها غصبًا يا محمد ! قال : بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك ، قال : لا بأس من ذلك ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح .

ثم خرج النبي في ألفين من أهل مكة وعشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة ! فكانوا إثنى عشر ألفًا ، ثم اتجهوا إلى هوازن ، فلما استقبلوا وادي حنين انحدروا إلى واد من أودية تهامة ، ولم يعلموا أن هوازن قد سبقت إليه ، وكمنت بخناجرها ، وسيوفها ورماحها في شعابه ، فما راع الجيش إلا وطلائع هوازن تهجم متنمرة فتغتال من تقابل ، وقد شدوا على المسلمين شدة رجل واحد ، وتكاثف قوم بالنبال وآخرون بالسهام ، فبوغت المسلمون، وتفرقوا مذعورين ، وطار كل قادم حيث لا يعلم أين يتجه !

كان الوقت فجرًا ، وكان غبش الظلام لا يزال يصارع مشرق النور ، فزاد ذلك من رهبة الهجوم ، وكان في المسلمين من جاءوا من المؤلفة كي يحوزوا الغنائم توقعًا للانتصار ، ولم يتمكن الإسلام من قلوبهم ، إذ أسلموا يوم الفتح دون يقين جازم ، يوجب عليهم حمية الاستبسال حتى الاستشهاد ، وهؤلاء ما كادوا يحسون حرارة القتال في أول شدته حتى لاذوا بالفرار ، وتصايحوا بما يدل على

الرعب ، فكانوا عامل هزيمة منكرة ، إذ أنهم بفرارهم في ساعة الهول قد أوقعوا في نفوس المخلصين أن الأمر أكثر وأقوى من أن يثبت فيه محارب ، وأن العدو مكتسح ظافر لا يبقي على شيء ، وقد بدت الشماتة المنكرة من أفواه هؤلاء المؤلفة ، الذين كانوا عامل هزيمة وخذلان .

قال ابن إسحاق : لما انهزم الناس ، ورأى من كان مع رسول الله من جفاة أهل مكة الهزيمة ، تكلم رجال بما في نفوسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وتلك أمانيه ، وأخذ ينزل الطالع في الأزلام رجاء أن تنبئه أن الهزيمة ساحقة .

ومن هؤلاء كلدة بن حنبل ، فصرخ فرحًا يقول : الآن بطل السحر ، وقد سمعه صفوان بن أمية وهو حينئذ مشرك ، فقال كلمة رائعة ، صاح به : اسكت ، فض الله فاك ! فوالله لأن يملكني رجل من قريش أحب إلى من أن يملكني رجل من هوازن .

وكان من هؤلاء الذين تظاهروا بالإسلام من حرص في هذه الأزمة أن يغتال رسول الله ﷺ شفاه لحقده ! فكيف يسير هؤلاء وأمثالهم في مقدمة الجيش لنصرة الإسلام ، وهم على ما هم عليه من حقد أسود ؟! لقد كانت الهزيمة المفاجئة متنفسًا كشف عن أحقادهم ، بل كانوا هم باعث الهزيمة الحقيقي ، لأنهم فروا هاربين ، وأخذوا يهولون من أمر الأعداء ، فكانوا طابورًا خامسًا أوقع

النكبة وأمدها قبل الوقوع بالوقود .

رأى رسول الله ما حاق بالمسلمين من الهزيمة ، فأراد أن يندفع ببغلته البيضاء في صدر الطوفان ليكون قدوة لمن خلفه من المسلمين، ولكن أبا سفيان بن الحارث أخذ بخطام دابته ، وهرع إليه عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان قوى الصوت عليه ، فأخذ ينادي : يا معشر المهاجرين الذين بذلوا أنفسهم في ذات الله . يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا . يا معشر المهاجرين والأنصار الذين بايعوا تحت شجرة الرضوان ، هلموا إلى رسول الله ، هلموا إلى رسول الله .

هنا دوى الصوت عاليًا فجذب الأسماع ، وعلم الصادقون من المؤمنين أن رسول الله يدعوهم ، فكروا راجعين إلى الحومة ، وإن أحدهم ليلوى عنان بعيره إلى جهة رسول الله ، فلا يستجيب البعير، فينزل إلى الأرض ويتركه حيث هو ، ويأخذ سلاحه ودرعه منطلقًا إلى مصدر الصوت .

كان نداء العباس عاليًا ، وكان ذا تأثير رهيب في النفوس ، إذ كيف يخذل المسلمون نبيهم ساعة الهول ، وما اعتادوا ذلك . لقد سارعوا إلى التجميع ، وأحاطوا برسول الله ، واستأنفوا الكرة مستبسلين ، وكل يصيح وراء النداء : لبيك لبيك ... والرسول ﷺ ينادي الناس أن هلموا :

أنا النبي لا كذب أن ابن عبد المطلب

وحمى الضرب والطعن ، ورأى الناس رجلا من هوازن على جمل أحمر ، وبيده راية سوداء في رأس رمح طويل يتقدم هوازن مستبسلا وتتبعه في حمية وهو يطعن ذات اليمين وذات الشمال ، ويرفع الراية ليتبعه أعداء الله ، فهوى له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وأتاه من خلفه ، فضرب عرقوبى جمله فوقع على الأرض ، ووثب عليه أحد الأنصار فعاجله بضربة عاقت حركته ، واطمأن رسول الله حين وجد اندفاع المسلمين ، فوثق بنصر الله ، والتفت إلى من يقود زمام بغلته، فقال : أنا أبو سفيان بن الحارث ، أن ابن أمك يا رسول الله .

وجاءت أم سليم مع زوجها وهي تشد أزر المسلمين وتقول لرسول الله اقتل هؤلاء الذين فروا عنك كما تقتل المشركين ، فقال الرسول : أو يكفي الله يا أم سليم . ورأى خنجرًا معها ، وسمع زوجها يسألها عن سبب حمله ، فقالت : خنجر أعددته إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به . ولم يمض غير أمد يسير حتى هزمت هوازن ، وفر مالك بن عوف مع من معه إلى الطائف ، وقتل دريد ابن الصمة ، وترك المشركون وراءهم كل ما ساقوا من الأموال والأنعام والنساء والبنين ، فجمع المسلمون من غنائمهم ما لا يقع تحت حصر ، ورحل المسلمون إلى الطائف فوجدوا القوم يتحصنون بها ، ومعهم مالك بن عوف ، وهي مدينة منيعة ذات أبواب توصد ، وحصون ترتفع ، وفي داخلها ما يكفي أصحابها من زاد وشراب ، وقد ارتفعوا إلى أعلى الحصون ، وأخذوا يرمون

المسلمين بالنبال ، حتى قتلت نبال ثقيف ثمانية عشر من المسلمين وجرح كثيرون ، وشق على المسلمين أن يرجعوا من الطائف دون عمل حاسم ، وكان بنو دوس من أنصارهم ، ولهم علم بالرماية واستخدام المنجنيق ، ومهاجمة الحصون في حماية الدبابات ، ولرؤسائهم صلة برسول الله ، فبعث رسول الله بمن صاحبهم حتى أتوا مكان الحصار مع أدواتهم المقاتلة ، فرموا المعتصمين بالمنجنيق ، وبعثوا بالدبابات كي تخترق الجدران ، وقد غاظ ذلك أهل الطائف فجعلوا يقذفون بالحديد المحمي بالنار وقد توهج بالحمرة على الرءوس ، ففر الجنود فزعين ، فترك المسلمون مهاجمة الجدران ، واكتفوا بقطع الكروم وتحريقها ، وهي كروم زاهرة ذات اشتهار تاريخي في الجزيرة العربية ، وتعيش ثقيف على خيرها الجزيل ، ففزعوا لما سيصيب الكروم من استئصال ، وبعثوا يناشدون رسول الله الرحم ألا يفعل ! ولو كان القائد غيره ما استمع إلى رجاء أعدائه ، ولكنه استجاب ، وآثر أن ينسحب كيلا يطول الحصار .

وجاء وفد هوازن إلى رسول الله وقد أسلموا ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما تعلم ، فامنن علينا بفضل الله وفضلك . وقام رجل من بني سعد فقال : يا رسول الله ، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ، فإذا نزل بنا ما نزل فأنت أهل الخير ، وأنشد :

أمنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظر

فسأل رسول الله : أأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين أحابنا وأموالنا ، فرد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا ، فقال ﷺ : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، فإذا صليت الظهر فاحضروا ، وقولوا نستشفع برسول الله وبالمسلمين في أبنائنا ونسائنا ، وسأعطيكم وأسأل لكم ، وكان لهم ما أرادوا بعد ذلك !

انطلق المسلمون إلى الجعرانة ، ومعهم من السبى والغنيمة ما يأخذ باللب ، وكان الرسول ذا قناعة راضية كعهده فآثر المؤلفة قلوبهم بالشيء الكثير ، أعطى أبا سفان بن حرب أربعين أوقية من الذهب ، وكذلك أعطى ابنيه معاوية ويزيد ، لكل منهما أربعون أوقية ! وقد ظهرت البغضاء من قلب أبى سفيان في مطلع المعركة حين لاحت بوادر الهزيمة الأولى ، فقال : لن يردهم عن الفرار غير البحر ! ومع ذلك فقد وجد النفس الواسعة الفسيحة التي تشمل بعطفها الجاحدين ، وأعطى حكيم بن حزام كما أعطى أبا سفيان ، واستزاده فأعطاه ، واستزاده فأعطاه ، وحين تكرر طلب حكيم قال له رسول الله : « يا حكيم ، إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع » ، وأعطى يمينة بن حصن مائة من الإبل ، وكذلك أعطى العباس بن مرداس والأقرع بن حابس ! ونظر رسول الله إلى صفوان بن أمية يرمق واديًا مليئًا بالنعم والشاء

في دهشة ، فقال له : هل يعجبك هذا ؟ قال : نعم ، قال : هو لك ، فقال صفوان : ما طابت بمثل هذا نفس أحد .

فعل رسول الله ذلك كله مع المؤلفة قلوبهم لحكمة أرادها ، إذ أنه يعرف أن أكثرهم قد أسلم ولم يؤمن ، وأن الذين اضطروا إلى الإسلام بعد فتح مكة لم يفيئوا إلى إيمان راسخ ، وقد ظهر ذلك واضحًا عند ابتداء المعركة في حنين ، إذ لو اعتقدوا تمام الاعتقاد في الإسلام ، ما أحدثوا البلبلة حين فروا ، وما بدت الشماتة منهم قولا وفعلا ! . أما الأنصار فقد تركهم لإيمانهم الأصيل ، وفيهم من غضب حين حرم وقال : يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر منم دمائهم ، فجمعهم رسول الله وخطب فيهم قائلا فيما قال : ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحلكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبًا وسلك الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار ! اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ! فبكى القوم وقالوا : رضينا برسول الله قسمًا وحظًا !

هذا ما كان من أمر حنين والطائف ، وفيه معتبر لمن اعتبر !

*****

العباس بن عبد المطلب

لا يذكر العباس كثيرًا مع أبطال الكفاح في عصر النبوة ، لأن إسلامه الرسمي كان متأخرًا فلم يتح له أن يقوم بدور نضالي يماثل دور أخيه حمزة بن عبد المطلب ، أو ابن أخيه : علي بن أبي طالب ، وجعفر رضي الله عنهم جميعًا ، ولكن دوره في غزوة حنين الإيجابي ، وما سبق من أدوار تتسم بطابع الحرص المعتدل ، يجعلنا نقاوم ما اتجه إليه نفر من الباحثين من محاولة انتقاصه دون مبرر ، لأن بقاءه بمكة كان عامل مساعدة إيجابية لابن أخيه ، فجميع القرشيين كانوا يعرفون أنه لم يسلم بعد ، ولكنهم يعرفون من جهة ثانية أن عواطفه المخلصة نحو ابن أخيه تسهل له أن يكون عامل تهدئة بينه وبين أعدائه ، لذلك كان رسول الله يؤثره بالمودة ، ويستشيره فيما يعن من الأحداث ، وإحرازه هذه الثقة الغالية من رسول الله دليل لا يخطئ على أنه عون للمسلمين في كل منحى ينتحيه !

نعلم جيدًا أن عمر الفاروق رضي الله عنه كان صريحًا كل الصراحة في اتجاهاته النفسية نحو الأشخاص ، إذ كان يملك من الجرأة النزيهة ما يدفعه إلى إعلان رأيه في الناس دون نقاب ، مهما أغضبت الصراحة فريقًا يؤثرون الموادعة ويرجون في الغد المقبل ما لم يكن في الأمس الدابر ، وقد تجلى موقف الفاروق تجاه العباس في مشهدين تاريخيين ، سجلتهما الكتب ، وتداولهما الناس على وجه

يوحي بالجزم الأكيد ، وهما يفصحان عن مكانة العباس لدي المسلمين بعامة ، ولدى عمر الفاروق بالذات .

أما الموقف الأول ، فكان بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى جوار ربه الكريم ، وكذلك بعد رحيل أبى بكر خليفة رسول الله الأول ، بحيث صار عمر رضي الله عنه ، أمير المؤمنين ، وصاحب الكلمة التي لا يملك أحد أن يعارضها دون دليل واضح ، يستمع إليه الخليفة مصغيًا ، فيستجيب متى كشف الحق عن وجهه الصريح ، لقد أظل عام الرمادة بقحطه المبيد ، وجدبه المقفر ، جماعة المسلمين، وشحت السماء بمائها ، فلم ينزل الغيث ليغيث الظماء من الإنسان والحيوان والزرع ، وخرج المسلمون يؤدون صلاة الاستسقاء ، ضارعين إلى الله أن ينزل الغيث لعباده بعد ما قنطوا فيكون بشيرًا برحمته السابغة ، ونادى عمر العباس بن عبد المطلب ، فأمسك بيمينه ورفعها إلى السماء ، وصاح ، وصاح الناس خلفه قائلين : اللهم إنا كنا نستسقي بنبيك وهو بين أظهرنا ، اللهم إنا نستسقي الآن بعم نبيك فاسقنا ، ورحم الله عباده فنزل الغيث مدرارًا ، وتهالك المسلمون على العباس يحتضنونه ويقبلونه ، ويقولون : هنيئًا لك ساقي الحرمين !

هذا ما دونته الكتب المتداولة ، وروته الأخبار المتواترة بما لا شك فيه . وهو يفصح عن اعتقاد عمر في العباس رضي الله عنه ، أفلو كان يظن به نكولا عن الدعوة في أوائلها ، وميلا إلى خصومها ،

أكان يعتقد له من المنزلة لدى فاطر السموات والأرض ما جعله يستشفع به في وقت عمّ فيه الجدب ، وتتابع القحط على نحو يؤذن بالوبال ! أفلو كان المسلمون من وراء عمر يوم الاستسقاء يعتقدون في العباس ما لا يؤهله للشفاعة في يوم تخفق فيه القلوب ، وتتطلع الأنظار راجية آملة ! أفلو كانوا يعتقدون ذلك ، أكانوا يذعنون لمشيئة عمر راضين آملين ..

هذا موقف أول ، أما الموقف الثاني فقد كان في حياة الرسولﷺ، قبيل فتح مكة ، حين أراد العباس أن يتشفع لرسول الله في أبي سفيان بن حرب ، وخالف عمر اتجاه العباس ، وتشدد في ضرورة قتله ، إذ كان من رءوس الشرك في إشعال نيران العداوة ، وإذكاء وقائع الحروب ، معركة بعد معركة ، يقول العباس متحدثًا عن هذه الشفاعة ومعارضة عمر لها :

(كنت أركب بغلة رسول الله وأسير في موكب الفتح ، فسمعت صوت أبى سفيان يقول لبديل بن ورقاء : ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ، ولا عسكرًا ، فقال بديل : هذه والله خزاعة ! فقال أبو سفيان: خزاعة أذل من ذلك ، وأقل أن تكون هذه نيرانها ، فعرفت صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة ! فعرفني وقال : أبو الفضل . قلت : ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول اله ﷺ في الناس ، واصباح قريش ! قال : فما الحيلة فداك أبي وأمي ، قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة ، فوالله لئن ظفر بك ليضربن

عنقك ، حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك ، فركب خلفي ، ورجع صاحبه ، وجئت به ، فجعلت كلما مررت على نار من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا ؟ فإذا عم رسول الله على بغلته ، حتى مررت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : من هذا ؟ وقام إلىّ ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ؛ الحمد الله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ، وركضت فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء، فدخلت على رسول الله ، ودخل عليه عمر ، فقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله تعالى منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه ، قلت : يا رسول الله ، لقد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يناجيك الليلة دوني رجل ، فلما أكثر عمر في شأنه ، قلت : مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من بني عدىّ بن كعب ما قلت هكذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف ! فقال عمر : مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت ، كان أحب إلىَّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بي إلا أن عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب ، فقال رسول الله : « اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به ») .

والحديث طويل ، ونقتصر منه إلى هذا الحد ، إذ تعنينا أن نقرر أن عمر رضي الله عنه يعتقد أن رسول الله يحب العباس ويؤثره ، وهو

لذلك فرح بإسلامه أكثر مما كان يفرح لو أسلم الخطاب أبوه !! أفيكون عمر يدرك هذه المنزلة ، ولا يعرف أنها لم تكن للرحم فحسب ! بل كانت لحبّ العباس الصادق لابن أخيه ، وتخذيله عنه متى استطاع !

نترك ذلك كله إلى مواقف ثلاثة للعباس تدل صراحة على فضله، وهي من الثابت الصحيح الذي لا مرية فيه ، إذ لا ننكر أن نفرًا من ضعاف النفوس في مفتتح الدولة العباسية أرادوا أن ينزلفوا للسفاح ومن جاء بعده من خلفاء الدولة فأكثروا من المناقب يلصقونها بالعباس وولده عبد الله ، وما كان الرجلان في حاجة إلى التزيد ، ففضلهما الحقيقي المشتهر مما لا مغمز فيه ، ولأن تمدح الإنسان بما فيه فيصدق الناس أزكى وأطهر من أن تختلق مناقب يتناقلها الدارسون بين مكذب ومصدق ، بل إن الكاذب أحيانًا يطغى على الحق فيذهب به ، لأن الذي يشك في حادثة لا يثبت أن يشك في الأخرى ، وما كل من يكتب التاريخ بمؤرخ ، إذ لا يعقله إلا العالمون ز

أما الموقف الأول : ففضله ثابت بنص القرآن الصريح ، إذ قال الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٦] . والمقرر المعلوم أن الذين ثبتوا مع

رسول الله ساعة الهول في موقعه حنين هم أهل بيته وفي مقدمتهم العباس بن عبد المطلب ، فقد قال له الرسول : ناد الناس يا عباس ، وكان رجلا جسيمًا جهوري الصوت ، قوى الرنين ، فنادى بما أسمع الناس في كل فج : يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، إن محمدًا حي فهلموا، إن محمدًا حي فهلموا ، وأخذ الصوت الجهوري يتردد في جنبات الوادي رنانًا مدويًا ، حتى أدرك الفارون عاقبة ما يصنعون ، فرجعوا مسرعين إلى الميدان ، وكل واحد يصيح : لبيك ، لبيك ، فتم نصر الله ! فإذا كان العباس أحد الذين قال الله فيهم : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فماذا نقول بعد هذا النص الصريح ؟

وأما الموقف الثاني : فموقف العباس يوم بيعة العقبة الثانية ، إذ حضر النبي ﷺ مصاحبًا عمه العباس ، ليتوثق له وليطمئن على نصرته ، وقد بدأ العباس فقال : (يا معشر الخزرج ، إن محمدًا منا ، حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هم على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز لكم، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه فإنه في عزة ومنعة من قوه وبلده) .

أفكان رسول الله يصحب عمه غير واثق بحبه وإخلاصه ! إن البيعة كانت سرًا عقد بليل في غفلة من المشركين ! وما اختار الرسول عمه إلا لأنه يعرف أنه مؤتمن حافظ للغيب بما أدرك من سر ، وأنه سيدري بفراسته الصادقة أكان القوم جادين أم غير جادين .

والموقف الثالث : حين شمت به المشركون يوم أذيعت هزيمة الرسول في خيبر بمكة ، وجاء الحجاج السلمي ليأخذ ماله منتحلا هذه الأكذوبة ، فقد أسرع الشامتون إلى العباس يقولون هازئين : تجلد يا أبا الفضل ! فلما أظهر عدم اكتراثه بهم أخذوا يتغامزون - ثم فاجأهم بما يعلم من نصر الله لنبيه ، فنزلت الصاعقة فوق رءوسهم مندحرين ! أفكانوا يشمتون به لو كان مثل أخيه أبى لهب مثلا !!

هذا بعض ما يقال عن العباس بن عبد المطلب ، سقناه تعقيبًا على ما أسلفنا من حديث عن غزوة حنين ، إذ كان بعض آسادها المغاوير ...

*****

غزوة تبوك

تعتبر غزوة تبوك امتدادًا لغزوة مؤتة ، لأن معركة المسلمين مع الروم لم تنته في مؤتة إلى موقف حاسم ، وقد جاءت الأنباء إلى المدينة بأن الروم يتجمعون للانقضاض عليها ، ورسول الله يعرف مقدرة الروم على الزحف بالعدد الهائل ، والجيش الذي لا يحصى له سلاح وعتاد ، فلئن داهم الطوفان المدينة ، فإنه بعدده الكثيف سيغزوها من كل منفذ ، وسيشجع ذلك من في قلوبهم مرض من القبائل على الانقضاض على المسلمين مع المغيرين ، فيتكرر يوم الأحزاب على نحو أشد خطورة وأبعد أثرًا ! ولن تجوز الموازنة بين قريش واليهود ، وبين جيوش الروم المتدربة المتمرسة ، لاسيما وهي في نشوة النصر على الفرس ، وقد خيل إليها أنها بعد اندحار كسرى قد أصبحت وحدها في الميدان ، وأن ذؤبان العرب لن يتحملوا ساعة من نهار .

هذا إلى أن انضواء مكة تحت راية الإسلام وخضوع العرب من شتى القبائل لكلمة محمد ، قد أوقف الروم على خطر يجب أن يحسب له ألف حساب ! لأن تجارة الرومان تجوب الجزيرة العربية شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالا ، ولا تجد من العرب غير حراس يحمونها بالأجر ، وليس لهم دولة متماسكة تستطيع أن توقف هذا الاتصال التجاري إذا أرادت ، أو تستطيع أن تكون قوة ضاربة

بتماسكها الملتحم فتصبح شريكة في السياسة العليا للعالم .

وها هم أولاء المسلمون يجمعون العرب تحت راية واحدة وقد أصبحوا دولة سياسية ذات مبادئ إنسانية ورسالة عالمية ، وإن رسلهم يسيرون إلى الملوك والرؤساء في كل مكان يدعونهم للإسلام ، وإذن فالأمر لن يقف عند الجزيرة العربية ، ولابد أن يعيدوا الكرة ثانية إلى مواجهة الروم بعد يوم مؤتة .

هذا ما كان يؤرق الروم فعلا ، وهذا ما كان يكفر فيه رسول الله، ويكاد يراه على مسرح الحياة عيانًا بعد أن ارتسم في ذهنه صورة واضحة ذات ملامح وقسمات ، وها هي ذي أنباء استعدادهم للقتال تفد إليه .

لقد جاءت هذه الأنباء فعلا إلى المدينة ، ورددها المنافقون ، ومن تجمعوا حول أبى عامر الراهب ، ممن تسير كتبهم إلى الشمال رائحة غادية بأخبار التجسس والاستطلاع .

فهل كانت هذه الأنباء محض اختراع قام في مخيلات أناس يكرهون الإسلام ثم تجسد الوهم فصار حقيقة ، فأخذوا يذيعون الأراجيف ، وما كادت تتردد حتى انتقلت مضخمة مكبرة إلى رسول الله ، على نحو يوجب التأهب والاستعداد ، أم أن جيوش الرومان تجمعت فعلا وصدقت الأنباء حين رددت ذلك ، ثم جد من الأمور فجأة ، فقد يكونون قد سمعوا بتجمع جديد للفرس كي

ينقضوا للانتقام ، فرأوا من الحكمة أن يهادنوا المسلمين حينًا من الدهر كيلا يحاربوا في جبهتين معارضتين . وإذ ذاك وجب أن تكون الحدود بين العرب والرومان خالية من كتائب رومية تبعث على التحرش والاستفزاز حين نفرت الجيوش الإسلامية من المدينة إلى تبوك تريد الالتحام ؟ كل ذلك جائز ، وكل ذلك له ما يبرره من التعلات ، ولعل ذلك كله قد تلاحم وتجمع حتى كون شيئًا واحدًا لا مرية فيه ، وهو انتقال الأنباء إلى رسول الله ، وشخوص المسلمين من المدينة إلى تبوك للقتال .

لم يكن تهيؤ المسلمين لقتال الروم عملا عاديًا ، إذ يستعد رسول الله وأصحابه لمعركة متكافئة ، ولكنه كان عملا بطوليًا خارقًا تحدث عنه الأستاذ الكبير محمد فريد وجدي فقال : (من محارات العقول في الأحداث الاجتماعية أن دولة لا تربوا سنها على العشرين سنة ، تزحف لملاقاة أكبر إمبراطورية قامت في الأرض لتردها عن فكرة الغزو التي كانت تطوف بخيالها ، فإن مجرد خطور فكرة من هذا القبيل لمجتمع صغير وخاصة وهو في الحالة التي كان عليها المسلمون في هذا الزمن ليعتبر من موجبات الدهش والذهول .

دولة تستطيع أن تقذف في حومة الوغى بمئات الألوف من المقاتلة المغاوير ، مسلحين أكمل تسليح ، ووراءهم مدد لا ينضب من الرجال والعتاد ، تتقصدها في عقر دارها حفنة من الرجال (بالنسبة لطوفان الروم) ليس لهم من الوسائل الحربية ما يساوي

شيئًا يذكر بجانب خصومهم ، فضلا عن المزية التي لعدوهم ، وهي أنه يقاتل قريبًا من مواد تموينه وتسليحه ، وهم على مسافة شاسعة من بلادهم ، تقطعها المهارى والخيول في أيام طويلة ، لعمري إن مجرد التفكير في غزوة من هذا القبيل يعتبر من البطولة ، فما ظنك بالخفوف إلى تنفيذها ، والزحف إلى بلاد العدو لتحقيقها ! لقد كان هذا مثيرًا لعجب المنافقين ودهشتهم ، حتى إن زعيمهم بالمدينة عبد الله بن أبيّ نسب إليه أنه قال : أيغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر ، والبلد البعيد ، أيحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب ، والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين في الحبال) .

على أن ظروف الغزوة كانت من العسر والضنك بدرجة توجب الحذر ، فالناس في حر شديد ، وحر الجزيرة العربية لا منجاة منه لجيش يخترق الصحراء ، والمسلمون في المدينة لا يزالون ينتظرون ثمر الأرض قبل أن تفيء عليهم الزروع بالرزق ، بوقت يسير ، إذ ما سيتنقضي أسبوع أو أسبوعان حتى يمتد الظل ويتساقط الثمر ، وقد كان من ديدن رسول الله ﷺ ألا ينهض لغزوة من الغزوات إلا ووري بغيرها كيلا ينتشر الخبر فيتأهب العدو للقتال ، ولكنه في هذه المرة يفاجئ المسلمين في مكة ، وإلى أحلافه من القبائل ، ينبئهم بذلك على نحو واضح لا يحتمل الالتباس ، وفتح باب التبرع لجمع النفقات الحربية وتهيئة ما يحتاج الجيش النازح إليه من زاد وعتاد !

فاندفع المؤمنون إلى تلبية الرجاء .

اندفع أبو بكر الصديق بجميع ما يملك من مال ، بلغ أربعة آلاف درهم ، لم يبق منها درهمًا واحدًا ، حتى قال له رسول الله : ماذا أبقيت لعيالك ؟ فقال : أبقيت لهم الله والرسول ، وجاء عمر الخطاب بنصف ماله ، فقال له رسول الله : هل أبقيت شيئًا ؟ قال : نعم ، نصف مالي ، وحين علم بصنيع أبى بكر قال في إخلاص : ما استبقنا إلى خير إلا سبقني إليه ، وأتى العباس بن عبد المطلب بتسعين ألفًا ، أما عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد قام بالعبء الأكبر حين جهز وحده ثلث الجيش ، إذ أتى بألف دينار ووضعها في حجر الرسول ، فقال عليه الصلاة والسلام وهو يقلبها بين كفيه: ما ضر عثمان ، ما يفعل بعد هذا اليوم ! قالها مرارًا ! أما النساء ممن بايعن يوم مكة وممن سبق إسلامهن بالمدينة فأخذن ينزعن الحلي والخلاخل والأسورة وجميع ما يقدرون عليه ، ولم تجبن مسلمة عن الجهاد بالمال بعد أن امتنع الجهاد بالنفس في سفر غير قاصد .

بعث رسول الله إلى حلفائه في الخارج ، ونادي مواطنيه في الداخل ، فكان الذين صدقوا الله وعده مسرعين متحفزين ، أما الذين في قلوبهم مرض فقد جعلوا ينتحلون شتى المعاذير ، ويقولون : لو استطعنا لخرجنا معكم ، وبعثوا في المدينة ما يريدون من الإرجاف ، فعلم الرسول بما يأفكون وأرسل إليهم عمار بن ياسر ، فجبنوا عن التصريح بما يأكل نفوسهم من حقد وقالوا إنما

كنا نخوض ونلعب ، وجاء إلى رسول الله جماعة منهم الجد بن قيس يعتذرون عن الخروج ويقولون : ائذن لنا ولا تفتنا يا رسول الله! كما استأذن جمع من المنافقين والأعراب فأذن لهم رسول الله : وقد فضح الله عز وجل نيات هؤلاء ، حين قال في سورة التوبة : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة : ٤٢ ، ٤٨] .

أجل ! لقد تخلف هؤلاء عن الغزو وهم قادرون عليه ، وفيهم من حسب أن الرسول سيهزم لا محالة ، وأن انتصارات بدر والأحزاب وخيبر ومكة وحنين ستضيع هباءًا بعد أن يكتسح الروم كل شأفة للمسلمين ، وقد ضنوا بأموالهم كما ضنوا بأنفسهم ، وفرحوا بتخلفهم حين سارت الجموع ، فجعلوا بالمدينة وما حولها يتندرون بالمجاهدين ، وكأن سورة التوبة قد نزلت لتكشف كل مستور يحاول هؤلاء كتمانه ، فقال الله متحدثًا عنهم : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة : ٨١ ، ٨٢] .

خرج الرسول في مقدمة الزحف وقد دفع اللواء الأعظم لأبى بكر الصديق ، وجعل راية المهاجرين للزبير بن العوام ، وراية الأوس إلى أسيد بن خضير ، وراية الخزرج إلى الحباب بن المنذر ، وكان عدد جيش المسلمين ثلاثين ألفًا ، وعدد الخيل عشرة آلاف فرس ! والوقت حار ، والطريق وعر ، لذلك سمى الجيش جيش العسرة ، وفي الطريق أصيب المسلمون بالظمأ والجوع معًا حتى كان الرجلان يقتسمان ثمرة واحدة ! وقد اشتد العطش بالناس ، فسقطوا في الطريق جاثمين ، ورفع الرسول يديه إلى السماء يدعو

الله أن ينزل الغيث استجابة لطلب الصديق ، وأدركت رحمة الله عباده ، فنزل المطر مدرارًا ، فسقى المسلمون دوابهم وملأوا قرابهم .

وتبسم رسول الله لما رأى من لطف ربه ، وكان ينظر إلى أصحابه يتفرس الوجوه ، فلم يجد وجه أبى ذر ، وكان قد خرج فيما خرج فأبطأ عليه بعيره واستعصى أن يتابعه ، فحمل متاعه على ظهره ، وتابع السير ماشيًا ، ونزل الرسول في بعض منازله ، فلمح سائرًا يقرب من بعد ، فقال : كن أبا ذر ، وتلفت المسلمون يرتقبون القادم ليتحققوا من شخصه ، فلما تأكدوا ، صاحوا ، هو أبو ذر ، فقال ﷺ: يرحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده !

هذا أبو ذر ، أما أبو خيثمة الأنصاري فكان ممن تخلف بدءًا بالمدينة ، ثم رجع في يوم حار إلى أهله ، فوجد امرأتين شابتين له في بستان مليء بالتمر ، قد رشتا الماء وأعدتا الطعام والفاكهة ، فلما دخل ونظر إلى امرأتيه وما أعدتا له أدركه الندم ، وقال : رسول الله في القيظ يكابد حر الصحراء غازيًا في سبيل الله ، وأبو خيثمة في ظل بارد ، وطعام معد ، وامرأتين حسناوين ، ما هذا بالنصف ، ثم صاح بهما : والله ما أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله وآخذ مكاني في جيش المسلمين ، فهيئا لي زادًا وراحلة ، ففعلتا ، فركب وأسرع حتى توجه إلى رسول الله وقد نزل تبوك .

وكان الله قد لطف بعباده إذ كفاهم بعد تعب الصحراء وقسوة الظمأ ولفح الحر أن يلاقوا العدو ! لقد كانوا يعتقدون أن الجيش

في انتظارهم ! ولكن أثرًا ما لا يدل عليه ، وهي مفاجأة سارة نزلت على القوم المجهدين نزولا طيبًا ، فلم يضيع الرسول الفرصة وبعث سراياه إلى ما حول تبوك من القوى التابعة لدولة الروم ، فصالحه أهل : أيلة ، وأذرح ، وجرباء ، ومقنا ، ودومة الجندل ، على أن يعطوا الجزية ، ويدخلوا في أمان الله وعهده ، وهو عمل يدل على تمكن الرسول من نفسه ، وعلى مدى نفوذه القوى لدى الذين يلوذون بالروم ويستعصمون بهم ، إذ عرفوا أنهم أمام قوة جديدة يجب أن يراعى جانبها .

وقد أقام المسلمون عشرين ليلة في تبوك ، وأراد رسول الله أن يجاوزها إلى ما وراءها من ديار الشام ، فاستشار أصحابه في ذلك ، فقال له عمر بن الخطاب : إن كنت قد أمرت بالسير فسر ، فقال الرسول : لو أمرت لم أستشر ، فقال عمر ـ وكان صادق النصيحة ـ : يا رسول الله ، إن بالشام جموعًا كثيرة من جيش الروم وليس بها نصير من أهل الإسلام ، وقد دنوت منهم فأفزعهم دنوك ، وأرى أن نرجع هذه السنة حتى يحدث الله أمرًا ، فاستجاب الرسول إلى نصيحة عمر ، وآثر الرجوع بعد أن عقد الصلح مع القرى ، فأمن حدود الدولة شمالا ، واستقبله الناس في يثرب بفرح زائد وابتهاج عظيم .

والذين يقللون من أهمية تبوك ، ويرون أنها رجوع دون قتال ! يتجاهلون شيئًا مهمًا ، هو أن كلمة الإسلام بسبب هذه الغزوة قد

أخذت تتردد بقوة في قرى الشام ومدنه ، وبين النصارى من الغساسنة بالذات ، فعرفوا أن الأمر لم يعد للروم وحدهم ، وأن المدينة قد تطلعت لتأخذ مكانها الجديد ، كما أخذ هؤلاء يتدارسون أصول الإسلام وما جاء به الدين الجديد من خير ، لينظروا كيف عفى على الوثنية وكيف جاء بدعوة الأنبياء من قبل محمد نقية خالصة مطهرة ! والذين عز عليهم أن يروا ذلك من الحاقدين قد فكروا طويلا في أصول هذا الدين ، وأخذوا يتساءلون عنه لدى القريب والبعيد ، وإذن فقد كانت تبوك عملا سياسيًا لا يقلل منه أنه لم ينته بالتحام دموي ! بل إن تجنب هذا الالتحام يعتبر نصرًا آخر ، لأنه أكسب مواقع جديدة حين صالحت القرى رسول الله على الجزية ، وحين امتد نطاق الحديث عن الإسلام إلى مدى فسيح.

وإذا كان المنافقون عامل إثارة وشغب في إيقاد الفتن وتأريث الدسائس الصامتة ، والمعارك الناطقة ، وكان شيخهم عبد الله بن أبيّ بطل الدسائس ، وأحد مثيري الوقائع والمعارك ، فلابد أن نخصه بحديث تال ...

*****

رأس النفاق يخذل عن الجهاد

لو رحم الإنسان أخا ذنب لرحم الحاقد ، فهو من نفسه في عذاب متصل ، ينام فلا يهنأ بمضجع ، ويستيقظ فلا ينهض لأمر ، وقد يكون غريمه ذا منزلة سامية مرموقة ، وصيت مدو طائر ، فلا يفتأ حديثه يتردد في المجامع والمحافل ، ولا يزال اسمه يتلألأ على الأفواه والمسامع ، وحاقده الشانئ يتميز من الغيظ ، ويتفتت من الحزن كلما مد بصره ، فرأى الدنيا مقبلة على صاحبه ، وأصاخ بسمعه فسمع الثناء الفواح من كل لسان ، وقد تستبد به الغيرة ، فتأتي عليه همًا وهلعًا ، ويصرع آثمًا في ساحة لا يحمد فيها مصروع !

لقد كان عبد الله بن أبيّ بن سلول عظيمًا من عظماء يثرب ، تحتشد حوله الأتباع ، ويموج فناؤه بالقاصدين ، حتى رشح للإمارة في قومه ، ومنى نفسه بالسلطان والرئاسة ، وكان يجمع إلى صباحة الوجه وامتلاء الجسم ، فصاحة اللسان واتزان المنطق ، غير أن الحقد طال بمنطقة ولوى بعقله ، حين تلفت فوجد محمدًا صاحب الرأي الأول في المدينة حوله الأنصار والمهاجرين ، ويخافه أهل الكتاب والمشركين ، ونظر إلى أمله في الرئاسة وحلمه بالسلطان ، فوجد الأمل بددًا ، والحلم هباء ، فقد أعطيت القوس باريها ، وزان الرئاسة فتاها المحجل ، فغلى الحقد في صدر ابن أبيّ ، وبات بلوعة حرى ، وحسرة لم تنقطع حتى ذهبت به إلى الجحيم .

ولم يشأ عبد الله أن يظهر حقده بادئ ذي بدء ، فقد ظن أول وهلة ، حين قدم رسول الله إلى المدينة ، أن المهاجر لن يجد في يثرب الجو الملائم لدعوته ، وإذا كان قومه بمكة قد خلوه وحاربوا فكرته، أفيستطيع الأباعد الغرباء في طيبة أن يشدوا أزره ويمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأموالهم ، هذا لن يكون في ظن ابن أبيّ ، ومن ثم فقد أظهر الرضا بالدعوة الجديدة ، واختلف إلى محمد وأصحابه ، وهو يترقب اليوم الذي تدور فيه الدائرة على الدين الوليد ، وإذ ذاك يحلم ثانية برئاسته المضمحلة وسلطانه الفقيد .

وتمضي الأيام خلف الأيام ، والدين الجديد يشع إشعاعًا قويًا ، يذهب سناه بأبصار الحاقدين ، فهذه قريش تخرج في عدتها المعدة ، وذخيرتها المدخرة ، لتحارب صاحب الدعوة في يثرب ، ويلتقي الجمعان في بدر ، فتسقط راية الشرك ، ويندحر أعداء الله ، وألداء محمد ، اندحارًا تتحدث به الركبان ، ويعود المسلمون إلى المدينة متوجين بالنصر ، متمتعين بالسيطرة والمهابة ، فقد أصبح رسولهم الأعظم موهوب الجانب ، يحتمي بالكتائب ويستظل بالسيوف .

نظر عبد الله بن أبيّ فوجد ظنه في الفكرة الإسلامية يخيب ويضمحل ، فقد وجدت المنعة والعزة في يثرب ، ورزقت الحظوة والتأييد في حمى الأنصار ، فاشتعلت النار بين أضلاعه وخاف أن يعلن نقمته على الدين الجديد وجهًا لوجه ، فمحمد نافذ الكلمة ، مسموع الأمر ، فلابد من طريق خاف يثير به الغبار في مأمن من

العيون والأرصاد ، ولن يكون غير النفاق ستارًا مكينًا يخفي نوازعه ودواهيه، فتظاهر بالإسلام ، وأبطن الكفر الصريح ، وإذا اجتمع النفاق والحقد في قلب رجل فلا راحة له من نفسه ، فهو مضطر لأن يكبت مشاعره ، فيتحفظ في حديثه ، ويتهامس في أمره ، ثم ينزوي عن الناس خفية ليدبر ما يتراءى له من الوقيعة ، وإنك لتشهد الصراع يبلغ ذروته حين يجلس مع المسلمين فيسمع ما لا يرضى عنه من تبجيل محمد ، ويرى من احترامه وإكباره ما لا يقره فيهم بإعلان رأيه والتنفيس عن أهوائه ، ثم يجابه بعزة محمد ، وذلة نفسه ، فيكظم غيظه ، وتدور حرب أهلية في أطواء ضميره ، حرب بين الجهر والكتمان ، ونزاع بين التحفظ والتنفيس ، ويعصمه تفكيره فيجنح للسلامة ، وقد احتضر قلبه في صدره كالطائر الذبيح.

والمنافق - مهما كظم غيظه ، ولزم الحيطة والتستر - فلا بد أن تبدو دخيلة نفسه من أقواله وأفعاله ، حيث لا يستطيع أن يتجاهل مشاعره وخلجاته ، فهو مضطر إلى الإفصاح عن حقده بكلمة عابرة ، أو إشارة طائرة ، وفي فلتات اللسان ، وتغير السحنة ، واختلاج النظر ، ما يفضح أمره ويكشف حقيقته ، وقد تشتد به نزواه فيتحين المناسبة الطائرة للتفريج عن صدره ، فيخالف الرأى إن أمر ، ويشير بغير الحق إن استشير ، ولن يجد من يرتاب في طويته، فالعصمة متعذرة على الناس ، وكم يخطئ المخلص الغيور ،

فيشير بما يجر الكارثة ، ويوقع المصيبة ، فإذا نفث الحاقد سمه الخاتل متظاهرًا بالنصح فقد مهد العذر لنفسه لدى القوم ، إذ صدق قلبه وأخطأ تفكيره في ميزانهم .

وهكذا كان ابن أبيّ يشير بالباطل ، ويمهد للهزيمة دون أن يفتضح للعامة ، وموقفه في غزوة أحد ينهض دليلا واضحًا على خداعه ، فقد تشاور محمد مع أصحابه فيما يصنعه بقريش ، وقد خرجت للثأر مجهزة معدة ، فقال ابن أبيّ : لابد أن نعتصم بالمدينة ، فهي منيعة عذراء لم يقتحمها قبل ذاك ، وأنه ليعلم تمام العلم أن استهداف المدينة للغارة الحربية يفتّ من أعضاد المسلمين ، وما غزى قوم في ديارهم إلا بدد شملهم وذهب ريحهم ، غير أن الله أرأف بنبيه من أن يوقعه موقعًا لا يجد المخرج منه ، فتغلب الرأي القائل بالخروج إلى الأعداء .

وسار المسلمين مؤيدين بنصر اله ، وهاجت كوامن عبد الله ، فنكص على عقبه ، في معشر من أهله ، محتجًا بأن محمدًا لم يسمع مشورته ، وسبيل الخيانة في نكوصه واضح بين ، إذ لا يجوز لمحارب أن يتخلف عن الجيش إذا استقر الرأي على أمر ما ، متي ارتضته الجماعة ، وأقره القائد الأول ، وأنى لعبد الله أن يتابع الحق وقد أعماه حقده عن النهج القويم ، فارتد غادرًا ، وكأن خاتمة أحد الأليمة كانت حجة أخرى يبرر بها موقفه ، فقد رجع المسلمون إلى المدينة في حسرة وأسف يبكون شهداءهم الأطهار ، وقد عظمت

النكبة ، واشتعلت المصيبة ، وابن أبيّ يطير به الفرح كل مطار ، ولا يستطيع أن يظهر الشماتة جهرة ، فأخذ يعمد إلى استكناه الضمائر واستشفاف القلوب ، فإذا صادف منافقًا مثله خاض معه غمار التهكم والتشفي ، وإذا وجد مؤمنًا صادقًا أظهر الحزن والأسف .

ولئن كان حديث الهزيمة يبرد جوانحه من ناحية فإنه من جهة أخرى يفضح نفاقه أمام العقلاء ، ويؤكد عقوقه الذي كان موضع الشك ، فقد حامت حوله الشبهات يوم جلا بنو قينقاع عن المدينة ، إذ تحمس لبقائهم ، وقال لرسول الله بعد أن أخذ يجيبه : (أمسك على موالي !! أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع منعوني الأسود والأحمر تحصدهم في ليلة واحدة !! والله إني لأخشى الدوائر) .

وكان ابن أبيّ حليفًا لبني قينقاع ، فتستر بذلك وأظهر للملإ من الناس أنه يرعى الذمة ويوفى بالعهود ، ولو كان أخا عهد لاعتصم بدينه الذي يدعيه ، ولك أن تقرن موقفه هذا بموقف سعد بن معاذ من أحلافه بني قريظة ، فقد حكم فيهم السيف وأشار بقتل رجالهم وسبى نسائهم ، إذ نقضوا ما عاهدوا الله عليه وقاتلوا محمدًا في حرجه الضيق يوم الأحزاب ، فقد تشابه الموقفان واختلف الحليفان!!

ونحن نشاهد الآن أناسًا يفرون من الميدان الحربي ، ثم يقدمون إلى المحاكمة العسكرية ليلقوا الجزاء الرهيب ! فلم لم يقتص الرسول ممن فرق الكلمة ولاذ بالفرار ؟ أكبر الظن أن هزيمة

المسلمين في أحد كانت تدعو إلى الإغضاء والتهاون مع من غدر بهم من الأنصار ، فلو نكل رسول الله بعدوه لكان من المحتمل أن ينحاز له نفر من أهله وذويه ، وربما انقسم الأنصار قسمين فتكون هزيمة ثانية ، لاسيما وابن أبيّ مسموع الكلمة لدى فريق من الناس، ولن نجرد الرجل من الفطانة والذكاء ، فقد كان يعبئ ما وهبه الله من لباقة ومرونة لمحاربة الفكرة الإسلامية ، فهو يرسم الخطة المحكمة ، ويضع التدبير الحازم لينال مأربه عند سنوح الفرصة ، وها هو ذا يشهد هزيمة المسلمين في أحد ويرى بعينيه ما بنفوسهم من ندوب أليمة !.

فهل يدع الأيام تمر دون أن تعمق الجراح وتتسع الكلوم ؟ أو ينتهز البادرة السانحة فيسدد ضربته القاصمة ، إنه يتردد بين الإقدام والإحجام ، ويستمع إلى عقله الحصيف ، فيشير عليه ألا يكون في الصف الأول أمام الجبهة الإسلامية ، فقد يكون في هؤلاء المكلومين من تواتيه القوة فيسحقه تحت قدميه ، فمن الحزم ألا يسعى لحتفه بظلفه ، وهناك حرب أخرى يمكن أن يشعلها على الإسلام دون أن يتحمل تعبتها بنفسه ، فهؤلاء يهود بني النضير قد شاركوه عواطفه نحو صاحب الدعوة ، بل إنهم ائتمروا بمحمد وهموا أن يفتكوا به لولا عناية السماء ، وهم يترددون مثل ابن أبيّ بين الإقدام والإحجام ، فلم لا يشنون الحرب السافرة على محمد إبان ضعفه وحرجه ؟

إن ابن أبيّ يسير إليهم ليحالفهم على الغدر والخيانة ، وليقول لهم في صراحة وقحة : (عليكم بمحمد فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب سيدخلون معكم حصونكم ، ويموتون عن آخرهم دون الوصول إليكم !) ، ويسمع اليهود كلام المنافق فيتحمسون ويتظاهرون ، ثم يرجع ثانية إلى المسلمين يسترق الأسرار ويتخطف الأنباء ، فإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعه وأفشاه ! ويصدق الله وعده ، فتتهاوي معاقل اليهود وتندك حصونهم دكًا مشينًا ، ثم يجلون عن المدينة تاركين الذهب والعتاد ، ويفتضح أمر الخائن الأثيم ، فيقول الله في شأنه مع جماعة من أصحابه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الحشر : ١١] ثم يشبه ابن أبيّ بالشيطان ، إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني برئ منك ، وتلك لعمري سبة تقصم الظهر وتفرى الأصلاب .

أصبح رأس النفاق بعد هذه الخيانة البلقاء مضغة تلوكها الأفواه، وتلقطها الشفاه ، فمهما بالغ من الاحتياط فقد برح الخفاء وكشف القناع ، ونظر الرجل فإذا حديث السوء يسبقه في كل مكان ، فأحلافه اليهود يحتقرونه لجبنه وكذبه ، والمسلمون يسلقونه

بألسنة حداد لغدره ونفاقه ، فلم يبق إلا أن يستجيب لنزواته ويعلن السخط واضحًا صريحًا ، وإذا لم ينج من المسلمين بنفاقه ، فلينج من حقده بالبث والشكوى ، فقد برح به الكبت وودّ لو وقف على مربأ شاهق ليعلن كراهته للإسلام !.

وكأن القدر يهيئ له ما يريد ، فقد واتته الفرصة حين تزاحم أنصاري ومهاجري على ماء ، فتشاجروا وضرب المهاجر الأنصاري ، وتصايح الفريقان . ويقف ابن أبيّ في القوم ليقول : (والله ما صاحبنا محمدًا إلا لنلطم ، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قيل: سمن كلبك يأكلك ، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ما فعلتم بنفوسكم يا قوم ؟ أحللتموهم دياركم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما لو أمسكتم عليهم فضل الطعام ، لم يركبوا رقابكم ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد) .

كلمات يمليها الحقد والغل ، يقذفها حقود متآكل في موقف ينذر بالشر ، وينادى بالويل ، فهؤلاء الأنصار يتكتلون في وصف واحد محنقين ، وهؤلاء المهاجرون قد صورهم الموقف في صورة المعتدي الجاحد ؟ فلم لا يشعل ابن أبيّ الثقاب فتدور الرحى على الغرباء اللاجئين ! وشاء الله أن ينقذ الموقف غلام صغير يتقدم إلى عبد الله قيصيح في وجهه : (أنت والله الذليل القليل في قومك يا ابن أبيّ ومحمد في عز من الرحمن وقوة من المسلمين) .

ويتسامع الرسول بالفتنة ، فيتصالح الفريقان عند مقدمه ، ويلوم كلاهما نفسه على ما بدر منه ، وتعود كلمة الله متحدة متساندة ، وينظر ابن أبيّ فيجد أمله في الوقيعة قد تبدد وانماع ، بينما قد كشف نفسه . كشفًا لا يجد التستر والانزواء ؟ فأي جناية كبيرة قدمها لنفسه ؟ لقد ظن أن الفتنة ستقع فيستريح من ليلة الدامس ، ولكن هيهات لظلامه أن يزول ، فقد تمطى بصلبه وناء بكلكل وأردف أعجازًا بعد أعجاز !

تلفت المؤمنون إلى محمد يترقبون ما سيصنعه بعدوه ، وقد ظنوا أنه هامة اليوم ورمة الغد ، ويثق نجله عبد الله أن أباه سيلفظ أنفاسه عن قريب ، وكان مؤمنًا غيورًا ، فتقدم إلى رسول الله واستأذن يقول: علمت أنك تريد قتل أبي في بعض ما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرني أحمل رأسه إليك ، فإني لأخشى أن تأمر غيري بقتله فلا تدعني نفسه أنظر إلى قاتل أبي يسير بين الناس ! فيا للإيمان القوي يدفع صاحبه إلى التبرؤ من الأب العطوف ، ويا للصراع المؤثر بين العاطفة والواجب ، والعقل والقلب ، والهوى والدين ، أي كارثة امتحن بها هذا المؤمن الصابر ، فأضرمت نفسه وشتت فؤاده ، لقد نظر محمد إلى موقف الابن الغيور ، فترفق به وبوالده ، وعفا عن المذنب الآثم ، وإن أنكرته آكام المدينة وآجامها الصماء ، قبل أن ينكره الأهل والأقرباء .

وبعد : فهل أقصر ابن أبيّ عن غيه بعد أن صارت حياته هبة تصدق بها محمد عليه ؟ أنى له ذلك والحقد يفعل في قلبه الأفاعيل؟ فهو يحلم بالمكيدة للمسلمين إذا أمسى ، ويحاول أن يحقق الحلم إذا أصبح ، فيلتمس كل سبيل للدس والوقيعة ولقد كان قبل ذلك حريصًا على سمعته في قومه ، فأصبح في موضع لا يرغب فيه أي إنسان ، فلا عليه إذا أطلق لإفكه العنان ، وإن علم يقينًا ، أن جهده ضائع بائد ، والمسلمون على قلب رجل واحد ، يذعنون لنبيهم الكريم ، ويفتدونه بالمهج والأرواح ، ولقد آب المسلمون من غزوة بني المصطلق ظافرين منتصرين ، فاحتفلت المدينة بأنباء الغزوة الجديدة .

وتناقلت الألسن مدائح محمد وإطراءه في كل مكان ، فماذا يقول ابن أبيّ ؟ لقد ترك الغزوة ، فلم يخض في حديثها الذائع ، وسأل عن عائشة زوج النبي لِمَ لم ترجع معه في وقت واحد ، ولماذا صحبها صفوان بعد أن تأخرت عن الركب ؟ وما شأنه معها حتى تصطفيه دون سواه ؟ سلسلة من الشكوك والريبة يحيط بها الآثم بيت النبوة الشريف ، ومن العجيب أن يجد عصابة تنقل إفكه وتطير به في أجواء المدينة ، وفيهم من له في الإسلام جهاد وكفاح .

ويستمع الرسول إلى الإفك مغيظًا غاضبًا ، فيفزع إلى ربه شاكيًا ضارعًا ، ثم ينبلج الصبح على لسان جبريل ، فيحق الحق ويبطل الباطل ، ويجئ عمر إلى رسول الله فيحرضه على استئصال هذا

المنافق الآفك ، ولكن سيد الرسل يعتصم بالحلم والصفح ، فيقول لعمر ملاطفًا : (كيف بك إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه) . ثم يغمض العين عمن أشاع الريبة في أهله ، بين أناس يفتدون الأعراض بالأرواح ، فلو همس هامس بكلمة مريبة لبرقت السيوف وصهلت الجياد .

وتوالت الكوارث النفسية على ابن أبيّ فنخر في جسمه الحقد كما ينخر السل في رئتي المصدور ، وبدأ يشكو العلة الجسمية ، ويلتمس الشفاء في كل مكان ، ولو أراح صدره قليلا من حقده الدائب لبريء ، ولكن قدر عليه أن يقضي صريع الحسد والنفاق . ومن العجيب أن داءه الرهيب لم يشغل عن محمد وقومه ، فكان إذا سكنت عنه العلة قليلا فكر في المكيدة ، وجمع رهطًا من شيعته وذويه فيخوضون في أمر محمد وأصحابه ، وقد قال قائلهم ذات يوم : إن المسلمين يتهيأون لقتال الروم ، فكأنما بشر عبد الله بالشفاء، فاعتدل في مجلسه ، وسطع السرور في وجهه ، وقال متهكمًا ساخرًا : أيغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال ، وشدة الهجير ، واللبد النائي الشاسع ، أيحسب محمد أن قتال بني الأصفر لعب ؟ لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين بالأصفاد .. لن تخرجوا معه أبدًا ، ولن تقاتلوا معه عدوًا ، فسترون عاقبته عن قريب .

وطفق المريض العليل يحرض شيعته على المكث بالمدينة ، فكانوا يستأذنون الرسول في البقاء ، فيأذن راضيًا وهو يعلم قول الله : ﴿ لَوْ

خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة : ٤٧] .

وكان ما لابد أن يكون ؟ فقد ثقلت العلة على ابن أبيّ ؟ واقترب من الموت اقترابًا فاجعًا ، فجاء ولده المؤمن الصادق عبد الله بن عبد الله يرجو أن يستغفر الرسول لأبيه ، ولك أن تلمس نبل الرسول الأعظم حين تجده يتناسى جميع ما قدم له من عقوق وكفران ؟ ثم يستغفر لعدوه الألد مرات عديدة ترضية لنجله الأمين فأي أخلاق تلك التي ترتفع بصاحبها إلى الأوج الرفيع . ولكن عمر يقف ، وينزل الوحي مناصرًا الفاروق : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٨٠] .

ثم يفارق المحتضر الحياة فلا ييأس نجله اللهيف من روح الله ، ويسعى إلى محمد يلتمس منه أن يصلى على جنازة أبيه رحمة به ، ويهم الرسول بإجابة رجائه ، ولكن الوحي يناديه : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨٤] .

مسكين هذا النجل الأسيف ؟ لقد أجهد محمدًا في غير طائل ،

وما كان والده غير حاسد ، شاهد الصبح يتألق في جبين محمد ففر منه إلى ليل بطئ الكواكب حالك الظلمات :

وفي تعب من يحسد الشمس نورها

ويجهـــــد أن يأتي لها بضـــريب

*****

كعب بن مالك
(التائب المنيب)

كان (كعب بن مالك) أحد شعراء الأنصار الثلاثة الذين أبلوا بلاء حسنًا في ميدان الدعوة الإسلامية ، حيث تصدوا لشعراء الشرك بمكة ، يناقضون قصائدهم ويعدّ دون مفاخر الإسلام ، ومثالب الشرك ، وينشرون مبادئ الإخاء الإنساني ، وما جاء به الإسلام من مثل رائعات .

ولقد كان من سراة قومه ، ووجوه المدينة الذين خفوا يوم العقبة الثانية لبيعة رسول الله على أن يمنعوه ما يمنعون من أبناءهم وأنفسهم ، وحين هاجر رسول الله إلى المدينة آخى بينه وبين طلحة ابن عبد الله ، وقد استأذن رسول الله في هجاء أعدائه ، فأذن له ، وأعجب بما قال ، روى أن رسول الله قال له : أنت الذي تقول (زعمت) ، فقال : نعم ، فقال عليه الصلاة والسلام : لم ينس الله لك ذلك ، ورسول الله يشير إلى قول كعب :

زعمت سخينة أن تغالب ربها ... وليغلبن مغالب الغلاب

كما سمعه مرة ينشد :

(مجالدنا عن جذمنا كل فخمة) ، فقال له عليه الصلاة والسلام: أيصلح أن تقول (مجالدنا عن ديننا) ، قال : نعم وهي أجمل ، فكان ينشدها كذلك !

وقد شارك كعب في الحروب الإسلامية ما عدا بدرًا وتبوك ، أما في بدر فأكثر الرواة على أنه تخلف لغيابه عن طيبة إذا ذاك ، وبعضهم يثبت حضوره ، وهو معذور لا شك ، إذ لم يكن حاضرًا وقتها ! وقد أبلى أصدق البلاء في وقائع أحد والخندق وخيبر ، كما جالد بلسانه في معارضة ضرار بن الخطاب ، وابن الزبعرى وهبيرة ابن أبى وهب ، حين هجوا رسول الله وصحابته ، أما مراثيه للشهداء : حمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وصرعى غزوة مؤتة ، فذات تأثر نافذ ، وهي صادقة اللوعة ، إذ كان يقول عن اعتقاد صادق ، ويرثى عن وجد دفن ، كذلك شرف برثاء رسول الله ، وبعض أساتذة الأدب يوازنون بين رثائه ورثاء حسان فيؤثرونه عليه ، ولعل من أوضح الدلائل على تأثيره في مجال الدعوة الإسلامية أنه حين قال :

قضينا من تهامة كل ريب وخيبر ثم أجممنا السيوفا

نخبرها ولو نطقت لقالت قواطعهن دوسًا أو ثقيفا

أسلمت قبيلة دوس ، وقالت : انطلقوا إلى المدينة فلا ينزل بكم ما نزل بثقيف ، حيث توعدنا كعب !

وقد كان من سوء طالعه أن يتأخر عن تبوك حين استنفر لها الرسول وأصحابه في المدينة ، وكتب السيرة والتفسير تزدحم بحديث الثلاثة الذين خلفوا ، ومنهم كعب ، ولكن كعبًا نفسه

روى الحادث صادقًا ، محللا ما أحص به من مشاعر أليمة إزاء كبوته غير المنتظرة ، فجاءت روايته جيدة التصوير ، ماسة أوتار المشفقين عليه ، حين يصف مشاعره الملتاعة أبدع وصف وأصدقه، وقل أن تحفظ صحف التاريخ رواية نثرية مسهبة تحمل الدقائق عن موقف كهذا الموقف ، لذلك نترك كعبًا يتحدث بما أحس وشعر ، نقلا عن الإمام النووي في رياض الصالحين ، والحديث مسهب مطيل ، وسننقل منه ما يكفي ويشفي دون إخلال .

قال كعب فيما رواه عنه ولده عبد الله بن كعب ، وكان لا يكاد يبرح أباه في خاتمة حياته ، إذ كان قائده حين امتحن في عينه ، فأتيح له أن يلم بكل شيء من أمره ، فكان مما قال له عن مأساته :

لقد شهدت مع رسول الله ليلة العقبة ، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس فيها ، وكان من خبري حين تخفلت في تبوك أني لم أكن أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت في هذه الغزوة ، ولم يكن رسول الله يريد غزوة إلا ورّى بغيرها ، إلا هذه ، فقد كانت في حر شديد فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا ، والمسلمون كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد سجل أسماء) فتجهز رسول الله، وطفقت أغدو لكي أتجهز معه فأرجع ولم أقض شيئًا ، حتى أسرعوا ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلت ، فلم يقدر ، فطفقت أنظر بعد خروجهم

فيحزنني ألا أرى لي أسوة غير من اشتهر بالنفاق أو منى بضعف ، ولم يذكرني رسول الله حتى نزل تبوك فسأل : ما فعل كعب بن مالك، فقال رجل : ما ساءني ، ولكن معاذ بن جبل رد عليه ، فسكت الرسول ، فلما قفل القوم من تبوك ، وعرفت أن رسول الله سيسألني أجمعت صدقه وجاء المخلفون يعتذرون إليه وكانوا بضعًا وثمانين ، فقبل منهم علانيتهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، حتى جئت ، فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ، ثم قال : ما خلفك ؟ فقلت : يا رسول الله ، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لخرجت من سخطه بعذر ، فقد أعطيت جدلا ، ولكني علمت لئن فعلت ليوشكن الله أن يسخطك على وإن حدثتك حديث صدق تجد علىّ فيه ، إني لأرجو فيه عقبى الله عز وجلا ، والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك ، فجاء إلى نفر من بني سلمة يقولون : هلا اعتذرت فيستغفر لك ، قلت : هل قال مثلي أحد ؟ قالوا : مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وهما ممن شهدوا بدرًا ، ونهى رسول الله عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس حتى تنكرت لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا ، وقعدا في بيوتهما يبكيان ،

وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج للصلاة ، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد من المسلمين ، وآتي رسول الله فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ، ثم أصلى قريبًا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال على ذلك من جفوة المسلمين تسورت حائط ابن عمى أبي قتادة ، وهو أحب الناس إليّ ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد السلام، فقلت له : أتعلم يا أبا قتادة أني أحب الله ورسوله ، فسكت، فعدت ، فسكت ، فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي ، وتوليت ، فإذا نبطي من بلاد الشام يحمل كتابًا لي من ملك غسان ، ويقول إن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان فأسرع إلي ، فقلت : وهذا أيضًا من البلاء ، وأحرقت الرسالة، حتى مضت أربعون يومًا من الخمسين ، فجاء رسول من النبي يقول : إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها فقط ، فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك ، حتى يقضي الله في هذا الأمر ، وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك ، فلبثنا بذلك عشر ليال حتى تمت الخمسون ، ثم صليت صلاة الفجر صباح الخمسين على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكرها الله تعالى بنا ، إذ ضاقت عليّ الأرض

بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك ، أبشر ، فخررت ساجدًا لله ، وعلمت أن جاء فرج ، فآذن رسول الله بتوبة ربي على ، فذهب قبل صاحبى مبشرون ، وركض إلى رجل على فرس ، وأوفى آخر على جبل يبلغني بصوته ، فكان الصوت أسرع ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني ، نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ، ووالله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين ، وأتيت أتأمم رسول الله يتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئونني بالتوبة ، ويقولون : لتهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ، فما أنساها له ، فلما سلمت على رسول الله قال ووجهه يبرق من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، فقلت : أمن عندك يا رسول الله ، قال : لا، بل من عند الله عز وجل ، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله ، فقال ﷺ : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، فقلت : إني أمسك سهمي اللذين بخيبر ، وإن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت ،

فوالله ما علمت أن أحدًا أبلاه الله تعالى في صدق الحديث أحسن مما أبلاني ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ، وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالي فيما بقي ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٧ ، ١١٩] .

هذا موجز ما قال كعب ! وفي مطاوي قوله من الدقائق النفسية ، والخلجات الوجدانية ، ما أظنه يقدر على تصويره لو نظمه شعرًا ، وهو شاعر مطبوع ، ولكن بلاغة الصدق من أرقى البلاغات ! وإذا كان الصدق حميدًا في الأدب الخلقي ، فهو جميل في الأدب البياني ! فلنكن مع الصادقين .

*****

حجة الوداع
وأهداف المعارك الحربية

حين هاجر رسول الله إلى المدينة ، ونجا من تحكم المشركين بمكة أخذ يقيم الدولة الإسلامية الرشيدة مستضيئًا بما ينزل عليه من وحي الله !! لقد كان من كبرى أمانيه أن يجعل من مكة مقرًا لرسالة الإسلام ومكانًا لتطبيق شريعة الله ، ولكن عناد قريش قد أجبره على الهجرة ليجد في فضاء المدينة متسعًا لتنفيذ شريعة الإسلام . وفي هذا البلد الكريم استطاع أن يجمع الناس على أصول هادية تنتظم بها حياة الناس ، وأن يرسى من القواعد الهادية ما تستقيم به أمور الدولة الناشئة . ولعل أبرز ما دعا إليه الرسول كي يقوم برسالة الإصلاح الإسلامية ، بعد أن فرغ من تأكيد مسألة التوحيد وإقامة العقيدة على أساس العبودية الخالصة لله وحده ، لا شريك له ، والعزة الغالبة لمن يستنون بهديه الحكيم ، لعل أبرز ما دعا إليه ينحصر في هذه الأمور :

١ ـ **العدل** : إذ بالعدل قد قامت السموات والأرض ، ولن يفلح قوم ضاع الحق بينهم .

٢ ـ **المساواة** : كي يصبح الناس أمام الحقوق والواجبات سواء ، لا يتميز فرد عن فرد ، تطبيقًا لقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

٣ ـ **الوحدة** : ومعناها الاجتماع على رأى واحد ، وقانون واحد ، وهذا الرأي لا ينفرد مشرع به ، بل يتنزل من الله في كتابه العزيز ، وعلى الرسول أن يبين للناس حقائقه هاديًا مرشدًا .

٤ ـ **الشورى** : فلا استبداد لرأى فرد ، ولا مكان لجبروت كسرى أو قيصرى ، وإنما يعرض الموضوع ليدلى كل مسلم برأيه ، متى كان أهلا للمشورة الناصحة ، والرأي النزيه .

٥ ـ **التكافل الاجتماعي** : بأن يرعى الغني أمر الفقير ، وأن يكون المجتمع المسلم بنيانًا متآزرًا يشد بعضه بعضًا ، فلا تسقط لبنة من اللبنات ، بل يعزز مكانه بالبذل والعطاء .

هذه أصول تمتد إلى فروع كثيرة ، وقد جاء الإسلام ليؤكدها أبلغ تأكيد ، وليجعلها موضع التنفيذ العملي والتطبيق الفعلي ، ولكن الذين تعودوا على السيطرة والاستعلاء يعز عليهم أن تسود شرعة الحق والمساواة والحرية ، فلابد أن تهب الثوائر المزلزلة في وجوه الداعين إلى الله ، ولابد أن يتحرش بالإسلام خصومه المتكبرون ، ومن هنا اضطرت الجماعة الإسلامية بقيادة رسول الله ﷺ إلى خوض المعارك الحربية التي أشرنا إليها ببعض التفصيل فيما سبق ، كي نتبصر الحق .

هذه المعارك كانت عملا إجباريًا قام به المسلمون مضطرين ليرفعوا كلمة الله في الناس ، ولو تركوا يدعون إلى ربهم بالحكمة

والموعظة الحسنة ، ويرشدون الناس بالنصيحة والمجادلة بالتي هي أحسن ، ما فكر رسول الله في أن يقيم المعارك ببدر وأحد والأحزاب وخيبر ومكة وتبوك ومؤتة وحنين والطائف ! ولكن نفوس المرضى في كل مكان قد تجمعت على الشر ، وتدافع الموتورون ممن أسقط الإسلام كبرياءهم الزائفة إلى الانتقام ، فكانت الحروب الدامية ، وكانت الغزوات العاصفة التي ختمت بنصر الله وبالفتح المبين .

ومنذ قام الرسول بكفاحه الدائب حتى أتم الله نعمته عليه ، وهو حريص على تأكيد ما بعث به من الأصول الإسلامية الداعية إلى خير الناس ، حتى إذا جاء نصر الله والفتح وشاهد قدم الإسلام ترسخ وطيدة ثابتة رأى أن يخطب في الملإ ليعلن الوثيقة الإنسانية الرائعة في حجة الوداع ، وهي وثيقة حقوق الإنسان ، تلك الوثيقة التي سبقت ما تلاها من الوثائق منذ قامت الثورة الفرنسية حتى نهضت هيئة الأمم المتحدة اليوم ، والتي جهلها كثير من أبناء الإسلام ، فظنوا حديث المساواة والعدالة والإخاء وليد ثورة دموية قامت في فرنسا منذ ثلاثون قرن ! ولو قرءوا كتاب الله ! ولو درسوا حديث نبيه الكريم ! ولو طالعوا صفحات الجهاد الإسلامي في معاركه الأولى ، لعرفوا كيف سبق محمد ﷺ بإعلان حقوق الإنسان بعد أن كافح في سبيلها منذ بعثه الله إلى أن التحق بجوار ربه الكريم.

ففي اليوم الثامن من ذي الحجة للسنة العاشرة للهجرة شخص النبي إلى منى ، فبات بها ، ثم نزل عرفة في اليوم التاسع وخطب المسلمين خطبة جامعة تضم أصول الإسلام وترسى قواعد الجماعة على أصل ثابت ، فقال عيه الصلاة والسلام :

« أما بعد ، أيها الناس : اسمعوا مني أبين لكم ، فإني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامكم هذا في موقفي هذا ، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربًا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب .

إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم ، وإن النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله ، منها أربعة حرم .

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقًا ، ولكم عليهن حق ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتموهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيرًا .

إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه ، إلا عن طيب نفس منه ، فلا ترجعن بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده ، كتاب الله ، ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد .

أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد » .

هذه أصول الدعوة الإسلامية كما أوجزها نبي الإسلام في خطابه البليغ ، وقد جاءت محرمة كل ما كان عليه العرب في الجاهلية من غارات دموية تنهب فيها الأموال وتسفك الدماء ، كما جاءت بترسيخ قواعد المساواة بين الناس ، وبإعطاء كل ذي حق حقه ، وبتحريم الأرواح والأموال ، ورعاية حقوق النساء ، وكل ذلك مؤيد بآيات القرآن ، وما تركه الرسول من الأعمال قبل أن يؤيد بخطبة الوداع ! وإذن فقد كانت هذه الكلمة البليغة سياجًا يحيط بأعمال خالدة ووقائع مجهدة قام بها نبي الإسلام كي يرفع كلمة الله.

وعلينا في ضوء هذه الخطبة أن نسأل أنفسنا : هل كان الرسول بمستطيع أن يرسى هذه القواعد دون ما قام به من نضال ؟ وإذا كان النضال الحربي بوقائعه الجاهدة في شتى المعارك ، قد أدى إلى إحقاق الحق وإزهاق الباطل فهل يكون عملا عدوانيًا أو أنه يكون أمرًا لا مفر منه في جسم العدوان والقضاء على الطواغيت .

لندع ما يهرف به المغرضون ، فهؤلاء قد قام الغرض غاشيًا ساترًا على أبصارهم وبصائرهم ، فلا يسمح لهم أن يهتدوا إلى مشرق الحق، ولنتابع غزوات الرسول غزوة غزوة ، ونتدبر وقائعها بدءًا وخاتمة ، ثم لننظر : أكان الرسول معتديًا في بدر ؟ وكيف ، وقد نفر المشركون من مكة إليه في بلده النازح لمقاومته ؟ وهل كان كذلك معتديًا في أحد والأحزاب ؟ وأعداؤه يكررون هجومهم الآثم على المدينة مستعينين بمن استطاعوا أن يجمعوهم من المرتزقة والوصوليين ؟ أكان لرسول معتديًا يوم فتح مكة ، وقد خان المشركون عهده ، ونقضوا صلح الحديبية ، وبيتوا للشر في خفاء حين أظهروا الوفاق وأضمروا الشقاق ! أكان الرسول معتديًا في خيبر ، وما برح اليهود في كل مكان يشنون عليه الغارات ويؤلبون القبائل دون هوادة وسلام ؟ أكان الرسول معتديًا يوم حنين وقد تجمعت هوازن لمداهمة المدينة وحصارها ؟ أكان معتديًا حين جازف بجيشه الصغير في مؤتة وتبوك ليقف أمام أكبر قوة في الأرض ، وهو يعلم ما يترصده من الأهوال ، ولكنه يعرض نفسه للاستشهاد في سبيل المبدأ الإنساني النبيل ؟ ما دامت هذه القوة الغالبة تنذره بالحبر وتهدده باقتحام المدينة واستئصال شأفة المسلمين .

هذه أسئلة مجملة تكفلت صحف هذا الكتاب بالإجابة عنها ، وفيها عبرة بالغة لمن يربط الأسباب بمسبباتها ، ويقرن المقدمات بالنتائج ليعرف عن عيان من يمشي مكبًا على وجهه ، ومن يمشي

على صراط مستقيم .. وفي ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

*****

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

مقدمة ٥
في الطريق إلى المدينة ٧
الهجرة ومشروعية القتال ١٦
غزوة بدر الكبرى ٢٨
ما بعد المعركة ٤٣
غزوة أحد ٥٠
من حديث الشهداء ٦٥
دسائس وحقود ٧٢
غزوة الأحزاب ٨٧
البطل الشهيد سعد بن معاذ ١٠٣
صلح الحديبية ١١٦
فرقة فدائية ١٢٩
معركة خيبر ١٣٧
قصة الحجاج السلمي ١٤٧
غزوة مؤتة ١٥٤
ذو الجناحين : جعفر بن أبى طالب ١٦٣
قصة الفتح الأعظم ١٧٠

الموضوع الصفحة

من حديث الطلقاء ١٨٠
حنين والطائف ١٩٢
العباس بن عبد المطلب ٢٠٢
غزوة تبوك ٢٠٩
رأس النفاق يخذل عن الجهاد ٢١٩
كعب بن مالك التائب المنيب ٢٣٢
حجة الوداع ٢٣٩
الفهرس ٢٤٧

*****